المملكة العربية السعودية
الجامعة الإسلامية
كلية الحديث والدراسات الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

أصول الدعوة و طرقها

تأليف

د. عبد الرب بن نواب الدين آل نواب

الفصل الدراسي الثاني
١٤٤٥ هـ

اسم الطالب : أبو محمد حافظ السّجاد بن مسلم

المقدمة

الحمد لله الكبير المتعال ، والصلاة والسلام على النبي المجتبى المختار ، محمد وعلى آله وصحابته الأبرار الأخيار ، وبعد :

فإن (علم الدعوة) حديث النشأة باعتبار تدوينه وإفراده في مؤلف مستقل ، وهو علم قديم قدم رسالات الله ، ولقد عني سلفنا الصالح بتدوين علوم الشريعة على اختلاف فنونها وتعدد مجالاتها كعلم التفسير وأصوله ، والفقه وأصوله ، والسنة والسيرة وشروحهما ، والتاريخ ومراحله ، واللغة العربية وقواعدها ، والفتوى ومسائلها ، والعقيدة وأبحاثها ...

وما أن انقضت القرون الثلاثة المفضلة إلا وكانت علوم الشريعة قد استنبطت قواعدها ودونت أبحاثها وتبلورت مدارسها الفكرية وتمخضت جهود العلماء الرواد عن أهم وأجل مصادرها في مختلف الفنـــون وخدمت مصادر الإسلام خدمة جليلة إذ كانت من الدقة والتوثيق والشمولية في مكان منيف ، وغدت المؤلفات التي جاءت من بعد ذلك عالة عليها ، تنهل من معينها وتصدر عن ينابيعها .. فكانت مرحلة القرون المفضلة قد أخذت امتدادا فكريا تأصيليا وامتدادا آخر جغرافيا إذ كثر تدوين العلوم الإسلامية وواكب ذلك انتشار الفتوح الإسلامية وامتداد رقعتها الى الصين شرقا والى الأندلس ومشارف أوربا غربا وشمالا ، ولم يحظ (علم الدعوة) في هذه المرحلة بالتدوين والإفراد في التأليف وإن كان مبثوثاً في ثنايا كتب التفسير والسنة والسيرة والفقه والعقيدة ، تبعا للنصوص القرآنية الجليلة والأحاديث النبوية الشريفة لأن الدعوة ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كانت تمارس إبانئذ في واقع الحياة وفي سائر الأقطار التي دانت للإسلام بل كانت للدعوة وظائف سلطانية كولاية الحسبة وولاية القضاء وولاية المظالم وغيرها من الولايات التي كان مقصودها حفظ الدين وسياسة الرعية ونشر رسالة الإسلام وإعلاء كلمة الله في أرض الله .

ولما ترسخت أقدام المسلمين في البلاد المفتوحة ودان أهلها للإسلام وتلاقت ثقافاتهم القديمة وموروثاتهم المتراكمة بمعطيات الإسلام في المجال العلمي وترجمت الكثير من الفلسفات ظهرت كتب الفلسفة والتصوف والمنطق ودب الانحراف العقدي والسلوكي في الكثير من الجهلة وأصحاب الأهواء .. وقيض الله تبارك وتعالى للذب عن دينه وتصحيح ما انحرف من مفاهيم المسلمين في أمور دينهم رجالا أفذاذا نذروا أنفسهم لهذا الواجب الجليل فمنهم من جاهد في نطاق بلده ومنهم من هدى الله عليه خلقاً كثيراً وجماً غفيراً .

والدين الحنيف دين دعوة وعمل وسعي وجهاد ، ولكي تستقيم أحوال المسلمين تحتاج إلى دعوة راشدة مستبصرة ، ليكونوا صالحين في أنفسهم مصلحين لغيرهم ، وكلما تعددت مشكلات الحياة

مست الحاجة إلى الدعوة ، وبرزت الحاجة إلى دعاة يتحلّون بعلم غزير وفقه دقيق ووعي واستيعاب وقدرة على التمييز بين الأصيل والدخيل يؤدون واجبهم الجليل بالكلمة الطيبة اللينة والوجه البشوش والصدر الرحب بعيدا عن التكفير والعنف والتجريح وبغير اتهام للنوايا ولا سفاهة ولا طيش وهذا أهم ما يحتاجه المسلمون في عصرنا ..

ولما أحس الدعاة والعلماء في مجال البحث العلمي (الأكاديمي) هذه الحاجة المتنامية إلى الدعوة ، شرعوا يكتبون في علوم الدعوة يستلونها من مراجع الإسلام الأصيلة من الكتاب والسنة فنجم (علم الدعوة) مفرداً في أسفار ، وظهر قبل ذلك تخصص الدعوة في الجامعات الإسلامية وفي كليات الدعوة وأصول الدين .. فانبثقت الحاجة إلى كتابات منهجية تأصيلية تربط منهج الدعوة بسيرة السلف الصالح وتوثق مضامين الدراسة وتؤصلها على ضوء الكتاب والسنة كدراسات منهجية موضوعية .

ولعل هذا الجهد الكليل الذي بذلته في هذا الكتاب إسهام في إبراز (علم الدعوة) المتعدد الجوانب في موضوعية كاملة ، يثري رغبات الطالب الجامعي ويسهم في تكوينه الثقافي والأكاديمي ، ويسهم – أيضا – في تأصيل الفكر لدى شباب الصحوة المعاصرة وهو أمر أساس لتقويم مسارات العمل الإسلامي المعاصر وحمايته من التطرف والتشرذم والتشاؤم وسائر السلبيات التي تنجم في غيبة المنهجية التي تتوخى التأصيل والتنوير . ولعل الكتاب بعد هذا وذاك يسهم في حل مشكلة الكتاب الجامعي التي تعاني منه كثير من التخصصات العلمية في كثير من الأقسام المتخصصة في الجامعات الإسلامية ..

وقد كنت جمعت مادته إبان تدريسي المقرر بكلية الشريعة عام ١٤٠٦هـ وكنت أزيد فيه وأنقحه كلما احتجت إلى ذلك ، ودأبت على إخراجه على الوجه المرضي قدر المستطاع لاسيما في التوثيق العلمي الذي هو ضرورة في الأبحاث العلمية وأشد ضرورة في أبحاث الدعوة ليتحقق التأصيل الشرعي لمحاورها الرئيسة الثلاث : المحور الموضوعي والمنهجي والتاريخي .

ودونك فصول الكتاب ومباحثه :

الأصل الأول : الدعوة مقاصدها وخصائصها ، ويتضمن :

- التعريف بالدعوة وبيان المقصود منها .
- أهمية الدعوة إلى الله وفضلها وأنها وظيفة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، وحاجة الناس إليها .
- حكم القيام بالدعوة .
- مقاصد الدعوة وخصائصها .

- منهج الدعوة القويم والحذر مما يخالفه .
- مراتب الدعوة ، ومراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
- العلاقة بين الدعوة والعلوم الأخرى وصلتها بالحياة .
- مصادر الدعوة .

الأصل الثاني :

الداعية : (تعريفه ، أخلاقه وآدابه ، علمه وثقافته)

الأصل الثالث :

المدعو وكيفية دعوته : (التعريف به ، أمة الدعوة وأمة الاستجابة ، أهل الكتاب ، المشركون ، الملحدون ، كيفية الدعوة في المجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية)

الأصل الرابع :

أهم أساليب ووسائل الدعوة :

١- الحكمة .
٢- الموعظة الحسنة .
٣- الجدال بالتي هي أحسن .
٤- القصص وضرب الأمثال .
٥- الترغيب والترهيب .
٦- القدوة الحسنة .
٧- الإنفاق في سبيل الله .
٨- المساجد والمدارس .
٩- المؤسسات الخيرية .
١٠- المراكز الإسلامية .
١١- الخطابة .
١٢- وسائل الاتصال والإعلام .

لمحة عن منهج البحث :

حرصت في كتابي هذا على سبك العبارة السهلة القريبة الخالية من التقعير اللفظي والضعف اللغوي على قدر وسعي ، لأن علم الدعوة ليس مما يقع في اهتمام الدعاة الجامعيين والأكاديميين فقط بل هو غاية كل مسلم يعي رسالته . فنحن أمة ذات رسالة وقيامنا بتلك الرسالة تحقق لنا السيادة والريادة على العالمين .

وفي التوثيق وتحقيقا للتأصيل الشرعي اعتمدت على إيراد نماذج وشواهد من الكتاب والسنة وأكثرت منه ذلك ، فهو الأصل الذي تؤسس عليه كل دراسة ذات شأن ، وكنت أكتفي في إيراد النص القرآني الجليل بذكر أرقام الآي في المتن مع الإشارة إلى اسم السورة بعد النص مباشرة بين معكوفين هكذا [ ] ، وعزوت الأحاديث النبوية الشريفة إلى كتب السنة وخرجت منها ما يحتاج إلى تخريج ، وكثيراً ما أعزو الحديث إلى أحد الصحيحين ومعه غيره من كتب السنن زيادة في الإفادة ووقوفاً على الزيادات التي ليست عند الشيخين أو أحدهما ، ورمزت لكتب السنة في الحواشي خاصة الصحاح الستة ومسند الإمام أحمد وموطأ الإمام مالك بالرموز الآتية : (خ) صحيح البخاري ، (م) صحيح مسلم ، (د) سنن أبي داود ، (ت) سنن الترمذي ، (س) سنن النسائي ، (ما) سنن ابن ماجة ، (ط) موطأ الإمام مالك ، (أحمد) مسند الإمام أحمد . وذكرت إثر كل رمز من الرموز السابقة اسم الكتاب من المرجع الحديثي ورقم الحديث وذلك للاختصار وتحرير الحواشي من ثقل الإطالة والتكرار ، وعلى سبيل المثال فهذا الرمز : [(خ) الصلاة (٣٥٠)] معناه : رواه البخاري في كتاب الصلاة حديث رقم (٣٥٠) ، وأما بقية الكتب الحديثية الأخرى وعامة المراجع فإني أذكرها بعينها دون رمز والتزمت بطبعة واحدة في كل المراجع التي أحلت إليها . وفي ترصيف الحواشي والإحالة إلى المراجع ارتضيت منهج من يرى ذكر المراجع إثر النص المنقول مباشرة بين معكوفين هكذا [...] وليس في الحاشية أسفل الصفحة ، وهذا النمط معمول به في كثير من الدراسات والأبحاث وهو أدق وأيسر في الطباعة والإخراج الفني لا سيما أنه يسمح بإضافة معلومة جديدة أو وُجد مرجع جديد فلا يُحتاج إلى ترقيم جديد للبحث .

وأسأل الله أن يمن عليّ بالقبول ، وأن يعفو عن الزلل والشطط والتقصير والقصور فما من نعمة إلا وهو سبحانه وليّها ، له الحمد والفضل في الأولى والآخرة وهو الحكيم الخبير لا إله غيره ولا رب سواه ، وصلى اللهم وسلم على خاتم النبيين وقدوة الدعاة والمصلحين وعلى آله وصحابته أجمعين .

حرر في محرم ١٤٢١هـ

الأصل الأول

الدعوة إلى الله مقاصدها ومراتبها

ويتضمن ما يأتي :

- التعريف بالدعوة .
- أهمية الدعوة إلى الله وفضلها وحاجة الناس إليها .
- حكم القيام بالدعوة .
- مقاصد الدعوة وخصائصها .
- أهمية الأخذ بمنهج الدعوة القويم والحذر مما يخالفه .
- مراتب الدعوة ، ومراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
- العلاقة بين الدعوة والعلوم الأخرى وصلتها بالحياة .
- مصادر الدعوة .

تعريف الدعوة

الدعوة في اللغة :

ذكر اللغويون معاني عديدة للدعوة ، منها : النداء ، والطلب ، والحث ، والحض ، والصيحة ، والاستمالة [انظر : لسان العرب ٢٥٧/١٤ والقاموس المحيط ٣٢٨/٤ والمعجم الوسيط ٢٨٦/١]

وتطلق الدعوة أيضا على : الأذان والطلب إلى الطعام .

واشتقاقات مادة (د ع و) و (د ع ي) كثيرة ، منها : التداعي وهو التجمع يقال تداعى القوم إلى كذا أي تجمعوا ، ومنها الادعاء ، والدعوى : اسم لما يدعيه ، والادعاء : زعم أن كذا له إما حقا أو باطلا ، ومنها الدعاء وهو العبادة .

والأصل في مدلول الدعوة أنه يعتمد على البيان والكلام ، قال صاحب المقاييس : (الدعوة أن تميل الشيء إليك بصوت أو كلام يكو ن منك [معجم مقاييس اللغة ٢ / ٢٧٩ مادة (دعو)] ، ويؤيده قول الله عزوجل : { سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ(١٩٣) } [الأعراف] فذكر الدعوة مقابل الصمت .

والدعوة من حيث اللغة تستعمل في الخير وفي الشر ، كما في قوله تعالى عن المشركين : { أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٢٢١) } [البقرة]

الدعوة في اصطلاح القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة :

القرآن الكريم هو المرجع الأول للدعوة ، والسنة النبوية الشريفة هي المفسرة لجمله المبينة لهديه صلى الله عليه وسلم في الدعوة والتربية ، وللدعوة في القرآن الكريم كلمات مرادفة منها :

أ) التبليغ والبلاغ قال تعالى : { يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧) } [المائدة] وقال في موضع آخر: { هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ (٥٢) } [إبراهيم : ٥٢] وقال في موضع آخر { وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤) }[النور]

ومن السنة النبوية الشريفة حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : (بلغوا عني ولو آية ..) [خ : أحاديث الأنبياء (٣٤٦١)]

وقال في خطبته الجامعة في حجة الوداع : (اللهم هل بلغت ؟) [خ : الحج (١٧٣٩)] وقال أيضا : (ليبلغ الشاهد الغائب فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه) [متفق عليه :خ : كتاب العلم (٦٧) ، م : القسامة (١٦٧٩)]

ب) التعليم والإعلام : وأصل مادتهما العلم ، فمن الأول قوله تعالى : { كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) } [البقرة] قال ابن كثير : ({ يعلمهم الكتاب } وهو القرآن { والحكمة } وهي السنة ، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ، فكانوا في الجاهلية الجهلاء يسفهون بالعقول الغراء فانتقلوا ببركة رسالته ويمن سفارته إلى حال الأولياء وسجايا العلماء ، فصاروا أعمق الناس علما، وأبرهم قلوبا وأقلهم تكلفا وأصدقهم لهجة) [تفسير ابن كثير ١ / ٢٠٩]

ومن السنة النبوية الشريفة حديث معاذ ﷺ قال : بعثني رسول الله ﷺ قال (إنك تأتي قوما من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا اله إلا الله وأني رسول الله ، فان هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم) الحديث [متفق عليه : خ : الزكاة (١٣٩٥) ، م : الإيمان (١٩) واللفظ له]

والأغلب في الإعلام أنه يكون بعد الدعوة وإن كان من مرادفاتها ، فالدعوة تكون بادئ ذي بدء إلى أصل العقيدة وأساس الدين ، والإعلام يأتي من بعد بفروع الأحكام ومسائل العبادات ، ولهذا ذكر الدعوة إلى الشهادتين ، ثم الإعلام بعد ذلك بالصلاة والزكاة وسائر أركان الدين الباقية .

جـ) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : وهو أخص من الدعوة ، والدعوة أعم وأشمل ، قال تعالى : { وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) } [آل عمران] فعطف الأمر والنهي على الدعوة وهو من باب عطف الخاص على العام . فالأمة الخاتمة أمة دعوة وأمة أمر بالمعروف ونهي عن المنكر .

ومن السنة حديث سعد بن مالك الأنصاري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : (من رأى منكم منكرا فليغيره بـــيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) [م : الإيمان (٤٩)]

والنصوص الواردة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة جدا تأمر به وتحض عليه وتنوه بقيمته في المجتمع وأثره في الاستقرار الاجتماعي ، وعظيم مثوبته عند الله تعالى ، وتحذر من تركه أو التكاسل فيه وتبين عواقب ذلك ..

د) الدعاية : كما في كتابه ﷺ إلى هرقل : (سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ..) [متفق عليه : خ : بدء الوحي (٧) ، م : الجهاد والسير (١٧٧٣)]

والدعاية هنا ليست بالمفهوم التجاري المبني على الترويج الكاذب ، وإنما هي كلمة الإخلاص قال الحافظ في الفتح : (قوله بدعاية الإسلام – بكسر الدال – من قولك دعا يدعو دعاية ، نحو شكا يشكو شكاية ، ولمسلم (بداعية الإسلام) ، أي : بالكلمة الداعية إلى الإسلام وهي: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله [الفتح ٣٣/١]

هـــ) الإيصال : ومنه قول الله تعالى { وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمْ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٥١)} [القصص] ويتضمن معنى السعي إلى المدعو وإيصال الخير للغير، ويقتضي قوله (وصّلنا) البيان والإتمام فيكون المعنى بينا وأتممنا لهم الخبر عن خيري الدنيا والآخرة [النكت والعيون (تفسير الماوردي) ٢٥٦/٤]

و) البيان والتبيين : ومنه قول الله تعالى { وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) } [النحل] وقد أخذ الله ميثاق أهل الكتاب وأهل العلم والبصيرة بأن يبينوا للناس الحق ولا يكتموه ، وتوعد الذين يكتمون الحق من بعد أن بينه تعالى للناس ، وأن عليهم الدعوة إلى الله والصدع بالحق ، قال تعالى { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ } [آل عمران : ١٨٧] ، وقال في وعيد الذين يكتمون الحق ولا يبلغونه للناس: { إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا

أَنزَلْنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمْ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمْ اللَّاعِنُونَ(١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(١٦٠) } [البقرة]

ومن مرادفات الدعوة – أيضا – في الكتاب والسنة : التذكير والإصلاح والنصيحة والوصية والتواصي بالحق والدلالة على الخير والهداية ، والتعاون على البر والتقوى وغير ذلك كثير .

إن تعدد هذه المرادفات وتنوعها يعطي دلالة شمولية على سعة الدعوة وأنها سبيل المؤمنين وضرورة حياتية بل هي منهاج حياة ..

الدعوة عند علماء السلف :

- عند شيخ الإسلام ابن تيمية : يتميز تعريفه رحمه الله بالسلاسة والبساطة ، قال : (الدعوة إلى الله هي: الدعوة إلى الإيمان به وبما جاءت به رسله بتصديقهم فيما أخبروا به وطاعتهم فيما أمروا) [مجموع الفتاوى ١٥ / ١٥٧ – ١٥٨ وأيضا ٢٠ / ٧]

وبتأمل هذا التعريف يتبين أنه ينفرد بثلاث خصائص : أولها أنه يخلو من الحد الاصطلاحي والقيد المنطقي ، فهو يعرّف الدعوة بالدعوة ، لأنه الأوفق المتمشي مع مقام الدعوة وسعة مدلولها ، فالدعوة إلى الله هي الدعوة إلى دينه والدين كما يقول ابن تيمية : (ما بعث الله به رسله وهو ما يجب على المرء التصديق به والعمل به) [الحسبة ص ٤٥]

ثانيها : لم يفرق ابن تيمية بين الدعوة والحسبة إذ أن الأمر والنهي من مضامين الدعوة ومرادفاتها ، يقول – رحمه الله – بعد أن تكلم عن وجوب القيام بالدعوة : (وقد تبين بذلك أن الدعوة نفسها أمر بالمعروف ونهي عن المنكر ، فإن الداعي طالب مستدع مقتض لما يدعو إليه ، وذلك هو الأمر به ، إذ الأمر هو : طلب الفعل المأمور به واستدعاء له ودعاء إليه ، فالدعاء إلى الله دعاء إلى سبيله فهو أمر بسبيله ، وسبيله : تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر) [مجموع الفتاوى ١٥ / ١٦٦ – ١٦٧]

ثالثها : يتضمن تعريفه للدعوة كافة محاور ومرتكزات الدين : العقيدة والشريعة والأخلاق ، لا سيما أصل الدين (توحيد العبادة) وهو كما قال رحمه الله : (التوحيد العلمي القولي المذكور في قوله تعالى { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ(١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢)لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ(٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ(٤) } [سورة الإخلاص] والتوحيد القصدي العملي المذكور في قوله تعالى : { قُلْ يا أيها الْكَافِرُونَ(١)لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ(٢) } [سورة الكافرون] وما يتصل بذلك فان هذا بيان لأصل الدعوة إلى الله وحقيقتها ومقصدها) [المرجع السابق ١٥ / ١٦٤]

الدعوة لدى بعض المعاصرين :

منهم من عرف الدعوة بالدين فخلط بين هذين الاصطلاحين ، ومنهم من غلّب في تعريفه الجانب المنهجي ببيان آلية الدعوة وبعض طرائقها ، ولنقتبس من كلّ ما يناسب المقام .

- **قال الشيخ ابن باز رحمه الله : (الدعوة هي : منهج الرسل عليهم الصلاة والسلام وهم الأئمة فيها فالدعوة إلى الله طريق الرسل وطريق أتباعه إلى يوم القيامة) [الدعوة إلى الله وأسلوبها المشروع : من بحوث مجلة البحوث الإسلامية ص ٢٠١ العدد ٣٨] وهذا تعريف وصفي كما ترى لم يتقيد فيه بالحد الاصطلاحي لسعة المدلول كما سبقت الإشارة إليه .**
- **تعريف : (قيام العلماء والمستنيرين في الدين بتعليم الجمهور من العامة ما يبصرهم بأمور دينهم ودنياهم على قدر الطاقة) [أبو بكر زكرى : الدعوة الى الإسلام ص ٨] وتضمن الداعي والمدعو وما يدعى إليه . وهو تعريف مقيد بالحد الاصطلاحي كما ترى .**
- **تعريف آخر : (الدعوة حث الناس على الخير والهدى ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليفوزوا بسعادة الآجل والعاجل) [علي محفوظ : هداية المرشدين ص ١٧]**

وهذا التعريف القيم مقتبس من القرآن الكريم من قول الحق تعالى وتبارك {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) } [آل عمران]

- **تعريف آخر قال : (الدعوة الحث على فعل الخير واجتناب الشر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر و التحبب بالفضيلة والتنفير عن الرذيلة وإتباع الحق ونبذ الباطل) [المرجع السابق ص ٢٤]**

ويستشف من التعريفات السابقة أن الدعوة تحيي موات القلوب بإذن الله ، وتحدث تلك النقلة الهائلة في الحياة إذ تغيّر واقع الناس تغييرًا جذريا نحو الأحسن والأفضل ، فتنقلهم من دركة الشرك والضلال إلى درجات التوحيد والهدى والنور ، ومن حضيض المعصية إلى مقام الطاعة ، ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم ، وإلى هذا التحول الفريد يشير قول الحق تباركت أسماؤه { وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ(١٩)وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ(٢٠)وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ(٢١)وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ(٢٢)إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ(٢٣)إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ(٢٤)} [فاطر] وشتان بين مسلم وكافر، بين أهل الجنة وأهل النار { أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ(١٨) } [السجدة]

تعريف بـ (أصول الدعوة)

أصول الدعوة اصطلاح علمي له مدلولان موضوعيان يستلزم أحدهما الآخر :

فالأول ينصب نحو المفهوم التأصيلي ، فأصول الدعوة على هذا المدلول هي تلك الأصول العقدية المتمثلة في أركان الإيمان وأركان الإسلام وركن الإحسان : (مراتب الدين) الثلاث ، وأصول الدعوة هي أصول الدين لأن الدعوة الإسلامية إنما هي في حقيقتها دعوة إلى الدين المهيمن على كل شئون الحياة وبهذه الخاصية تنفرد الدعوة الحقة عن غيرها من الدعوات الباطلة ، ومن هذا المفهوم أتى تعريف الدعوة في كثير من الأبحاث التخصصية مقترنا بتعريف الدين .

لذا نجد القرآن الكريم يشير إلى هذا ويؤكده ، تأمل قوله تعالى : { قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ(١٠٨)} [يوسف] فالدعوة إلى الله هي الدعوة إلى دينه ودينه ما جاءت به رسله مما أمروا به ونهوا عنه ..

المدلول الثاني لأصول الدعوة يتوخى المفهوم الموضوعي المنهجي ، الذي يبحث في مضمون الدعوة ومقاصدها ومراتبها ومراحلها ومناهجها ومؤهلات الداعي وأصناف المدعوين .. الخ وهذا هو المفهوم الذي قامت عليه فصول هذا الكتاب ، بعد تأسيسها على المفهوم الأول ، إذ أن أحدهما يستلزم الآخر ويقتضيه .

أهمية الدعوة وفضلها :

حسبنا دلالة على فضل الدعوة وأهميتها وشرف الدعاة أن الله جل وعز بجلاله وكبريائه وجبروته نسب الدعوة إلى نفسه الشريفة وذاته العلية فقال : { وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(٢٥)} [يونس]

وقال عن المشركين: { أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٢٢١)} [البقرة] وقال : { يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ (١٠) } [إبراهيم] فهو سبحانه وتعالى : { لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ (١٤)} [الرعد] وكفى بذلك فضلا وشرفا .

وحسبنا دلالة على شرف الدعاة ومكانهم المنيف وكرامتهم عند ربهم ومليكهم أنهم ورثة الأنبياء والمرسلين فهم صفوة الخلق وقمة البشرية ومنارات الخير والبر والرشد ، فمن دعا إلى الله تعالى نال هذا الشرف ، والدعاة الصادقون السائرون في منهاج النبوة يسوقون الأمة سوقا رفيقا نحو الصلاح والإصلاح ، ويوقظون في الناس وازع الخير والفضيلة ، ويكفونهم – بإذن الله – عن الإثم والعدوان ، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فلا سبيل إلى الخروج من مأزق الأهواء وضيق الشهوات وحيرة الشبهات إلا بالدعوة الإسلامية : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا} [النساء :١٧٤]

ولنتبين فضل الدعوة والدعاة وشرف مكانها ، وتلك النقلة الهائلة التي تحدثها الدعوة في حياة الناس نتأمل حال الناس في الجاهلية قبل الإسلام وما تضمنه الهدى الذي جاء به الإسلام كما وصف ذلك جعفر رضي الله عنه عند النجاشي قال : (كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسئ الجوار ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة) [ابن هشام : السيرة النبوية ١/٣٣٦]

ومثل آخر يصور الهوة السحيقة التي يتردى فيها العقل حين تتقاذفه الأهواء فيضل عن سواء السبيل ، فعن أبي رجاء العطاردي قال :كنا في الجاهلية إذا لم نجد حجرا جمعنا حثية من التراب وجئنا بالشاة فحلبناها عليه ثم طفنا به !! [خ : المغازي (٤٣٧٦) ، الدارمي: المقدمة (٤) ، وانظر ابن كثير: السيرة النبوية ١/٦٢]

وأيضا ما ذكره المغيرة بن شعبة رضي الله عنه لعامل كسرى زمن عمر الفاروق رضي الله عنه في غزو الشام ، لما قال له : ما أنتم ؟ قال : نحن أناس من العرب كنا في شقاء شديد وبلاء ، نمص الجلد والنوى من الجوع ، ونلبس الوبر والشعر ، ونعبد الشجر والحجر ! فبينا نحن كذلك إذ بعث رب السموات ورب الأرضين تعالى ذكره وجلت عظمته إلينا نبيا من أنفسنا ، نعرف أباه وأمه ، فأمرنا نبينا رسول ربنا صلى الله عليه وسلم أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده ، أو تؤدوا الجزية ، وأخبرنا نبينا عن رسالة ربنا أنه من قتل منا صار إلى الجنة في نعيم لم ير مثلها قط ، ومن بقي منا ملك رقابكم ..) [خ : الجزية والموادعة (٣١٦٠)]

فحاجة البشرية إلى هدي الكتاب والسنة حاجة ماسة ، وهي حاجة مطردة كحاجة الأرض القاحلة العطشى إلى الماء العذب النمير يخرج به الزرع وتدب به الحياة ، وهي حاجة نابعة من فطرة الناس التي خلقهم الله عليها ، إذ خلقهم لعبادته وجعل لهم كل ما على الأرض زينة ليبلوهم أيهم أحسن عملا .

فالضرورة إلى الرسل كما قال ابن القيم (أعظم من ضرورة البدن إلى روحه والعين إلى نورها ، والروح إلى حياتها ، فأي ضرورة وحاجة فرضت فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير) [زاد المعاد ١ / ٦٩]

ولقد كان من فضل الله ورحمته بعباده أن بعث في كل أمة رسولا يدعو إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل وإقامة موازين الحق والعدل في الناس ، قال الله عز وجل : { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ

أُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } [النحل :٣٦] وقال { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ(٢٤) } [فاطر :٢٤]

لقد خلّد القرآن العظيم دعوات الرسل عليهم صلوات الله وتسليماته بدءا من أولهم نوح ومن جاء بعده كهود وصالح وشعيب وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وعيسى إلى إمامهم وخاتمهم محمدا ﷺ ومنهم من لك نعرف أخباهم كما قال تعالى : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ } [غافر : ٧٨]

ومما يدل على فضل الدعوة وشرف الدعاة أن الله تبارك وتعالى أثنى على الدعاة المصلحين الذين يسيرون في طريق النبيين والمرسلين ، فقال : { وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ(٣٣) } [فصلت]

والمعنى : لا أحد أحسن قولا منهم ويدخل في مدلول الآية النبي ﷺ والمؤذنون والعلماء والدعاة المصلحون كما ذكر ذلك جمع من المفسرين [أنظر ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٤ / ١٠٥]

ومما يدل على فضل الدعوة والدعاة حديث أبي هريرة ﷺ قوله ﷺ: (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً) [متفق عليه :خ : فضائل الصحابة (٣٧٠١) ، م : العلم (٢٤٠٦) واللفظ له .]

وهذا ولا شك فضل عظيم ومغنم كبير ، ولقد كان النبي ﷺ أعظم الناس أجرا إذ نال مثل أجور من تبعه من لدن عصره إلى قيام الساعة .

وفي حديث سهل بن سـعد ﷺ يذكر النبي الكريم ﷺ ما يحوزه الدعاة المصلحون من الأجر والمغنم والفضل الكبير ، قال : (والله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حمر النعم) [متفق عليه : خ : كتاب الجهاد (٣٠٠٩) ، م : فضائل الصحابة (٢٤٠٦)]

قال الإمام النووي (حُمُر النّعَم) هل الإبل الحمر وهي أنفس أموال العرب يضربون بها المثل في نفاسة الشيء وأنه ليس هناك أعظم منه ، وتشبيه أمور الآخرة بأعراض الدنيا إنما هو للتقريب من الافهام وإلا فذرة من الآخرة خير من الأرض بأسرها وأمثالها معها ، وفي الحديث بيان فضل العلم والدعاء إلى الهدى وسن السنن الحسنة [النووي على صحيح مسلم ١٥ / ١٧٨]

ومن دلائل فضل الدعاة أن الله تبارك وتعالى أثنى عليهم كما سبق في آية سورة فصلت ، وقال تعالى : { الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا(٣٩)} [الأحزاب]

وهؤلاء الدعاة المصلحون السائرون في طريق الأنبياء هم ورثة الأنبياء ففي حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : (وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يـــــورّثوا دينارا ولا درهما ولكن ورّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر) [خ تعليقا : العلم : باب العلم قبل القول والعمل ، د : العلم (٣١٥٧) ، ت : العلم (٢٦٨٢) وقال إسناده عندي ليس بمتصل ، ابن ماجه : المقدمة (٢٢٣) ، أحمد : الأنصار (٢٠٧٢٣)]

وإن الله عز وجل بسبب إصلاحهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ودعوتهم الناس إلى الخير يرفع عن الأمة ألوانا من البلاء والعذاب كما قال سبحانه : { فَلَوْلَا كَانَ مِنْ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنْ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ(١١٦)وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ(١١٧) } [هود]

قال الإمام السعدي رحمه الله في هذا حث لهذه الأمة أن يكون فيهم بقايا مصلحون لما أفسد الناس قائمون بدين الله يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون منهم على الأذى ويبصرونهم من العمى، وفي هذه الحال أعلى حالة يرغب فيها الراغبون وصاحبها يكون إماما في الدين إذ جعل عمله خالصا لرب العالمين [ابن سعدي – تيسير الكريم الرحمن ٣ / ٢٢٠]

وتأمل كيف ينجو أهل الإصلاح والمناصحة من العذاب بسبب قيامهم بالدعوة والنصح وهذا من السنن الكونية النافذة ، قال تعالى : { وَاسْأَلْهُمْ عَنْ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(١٦٣)وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ(١٦٤)فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنْ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ(١٦٦) } [الأعراف]

وفي هاتين الآيتين الشريفتين أن تلك الأمة انقسمت ثلاث طوائف :

فطائفة وعظت وأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر وهم المصلحون الذين توخوا بأمرهم ونهيهم الاعتذار إلى الله ورجاء أن يصلح الله بهم أرباب المنكرات ، وهذه الطائفة هي الناجية الذين قال الله فيهم { أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنْ السُّوءِ } وطائفة أخرى توقفت في الأمر ، لا أمرت ولا نهت ولا رفعت بذلك رأسا ولا كانت مع أهل المنكرات وأرباب المعاصي بل اعتزلت وانطوت ، وقد سكت السياق القرآني الجليل عن ذكر مصيرهم وكأنهم لا يستحقون ذكرا !! وطائفة ثالثة عتت وفسقت وجاهرت بالمنكرات فبهم نزل العذاب ، ومسخهم الله قردة خاسئين والعياذ بالله تعالى .

حكم القيام بالدعوة :

أجمع المسلمون من السلف والخلف على أن الدعوة إلى الله تعالى ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب جليل وفريضة دينية ينبغي أن تنهض إليها الأمة الإسلامية وتأثم إذا خلا عصر أو مصر من دعاة إلى الله آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر ، وانعقد هذا الإجماع منذ عصر النبوة .

ثم اختلفوا في نوعية هذا الوجوب ، أهو وجوب كفائي إذا قام به البعض سقط عن الباقين ؟ أم أنه وجوب عيني يأثم المسلم بتركه ؟ على مذهبين :

المذهب الأول :

وعليه السلف والخلف الصحابة والتابعون ، ومن جاء بعدهم من الأئمة كالطبري والأئمة الأربعة وابن تيمية وابن القيم وابن كثير والشوكاني والصنعاني وابن سعدي ومن المعاصرين ابن باز وابن عثيمين وغيرهم خلق كثير رحمهم الله وأجزل مثوبتهم حتى كاد يكون إجماعاً ، ذهبوا إلى أن الدعوة إلى الله تعالى ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبة وجوبا كفائيا ، قال ابن تيمية رحمه الله تعالى : (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يجب على كل أحد بعينه بل هو على الكفاية كما دل عليه القرآن ولما كان الجهاد من تمام ذلك كان الجهاد أيضا كذلك فإذا لم يقم به من يقوم بواجبه أثم كل قادر بحسب قدرته إذ هو واجب على كل إنسان بحسب قدرته كما قال النبى ﷺ : (من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) [رواه مسلم وأصحاب السنن ، تقدم تخريجه] ، [مجموع الفتاوى ٢٨ / ١٢٦]

هذا والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر معيار صادق دقيق لمعرفة إيمان المرء فإذا تمعّر وجهه لله حين رؤيته المنكر فهو مؤمن أما إذا لم يتحرك فيه ساكن فهو منافق !

قال أهل العلم والأمر والنهي يكون تارة بالقلب وتارة باللسان وتارة باليد فأما القلب فيجب بكل حال إذ لا ضرر في فعله ومن لم يفعله فليس هو بمؤمن كما قال النبي ﷺ وذلك أدنى أو أضعف الإيمان وقال ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل وقيل لابن مسعود : مَن ميّت الأحياء ؟ فقال : الذي لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً وهذا هو المفتون الموصوف في حديث حذيفة بن اليمان [مجموع الفتاوى ٢٨ / ١٢٧]

واستدل من ذهب إلى أنه واجب كفائي بما يأتي :

١- قول الله تعالى : { وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)} [آل عمران] وجه الاستدلال : قالوا (من) في قوله { وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ

أُمَّةٌ } تبعيضية والمعنى كما قال الطبري : ولتكن منكم أيها المؤمنون جماعة يدعون الناس إلى الخير يعني الإسلام وشرائعه التي شرعها الله لعباده [تفسير الطبري ٤ / ٢٦]

قال ابن كثير : المقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن وإن كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة بحسبه ،كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) وفي رواية : (وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل) [م : الإيمان (٤٩) واللفظ له ، وأصحاب السنن : د : كتاب الصلاة (٩٦٣) ، ت : الفتن (٢١٧٢) وقال حديث حسن صحيح ، س : الإيمان وشرائعه (٥٠٠٨) ، ما : إقامة الصلاة (١٢٧٥) ، أحمد : المكثرين (١٠٦٥١) ، وانظر : تفسير ابن كثير ١/ ٤١٩ ، والكشاف ١ / ٤٥٢ ، والبحر المحيط لأبي حيان ٣ / ٢٠]

٢ – قول الله عز وجل : { الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ(٤١)} [الحج]

قال القرطبي : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على الكفاية وقد عينهم الله تعالى بقوله { الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ } الآية ، وليس كل الناس مُكّنوا ! [القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ٤ /١٦٥]

٣ – قول الله عز وجل : { وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ(١٢٢)} [التوبة]

قالوا : أمر تعالى بتخصيص نفر وطائفة للتفقه في الدين وإنذار الناس مساخط الله ولو كانت الدعوة واجبة وجوبا عينيا لما كان لهذا التخصيص معنى .

٤– حديث أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ : (من رأى منكرا فلينكره بيده ولم يستطع فبلسانه ومن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) [م : الإيمان (٤٩) ، وأصحاب السنن : ت : الفتن (٢١٧٢) وقال حديث حسن صحيح ، ن : الإيمان (٥٠٠٨) ، د : الصلاة (٩٦٣) ، ما : إقامة الصلاة (١٢٧٥) ، أحمد : المكثرين (١٠٦٥١)]

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قيدا بالاستطاعة وليس كل المسلمين مستطيع ، وهذا من رحمة الله بعباده ، ولو كانت الدعوة فرضا عينيا لما كان لهذا التقييد معنى .

ومن السنة العملية : أن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم لم يكن يأمر جميع الصحابة بالقيام بالدعوة وإنما بعث نفرا منهم إلى جهات بعينها دعاة إلى دين الله ، وما كان الصحابة كلهم ينفرون للجهاد ولا كان كلهم يدعون إلى الله على وجه الإيجاب العيني ، وإنما كانوا يدعون على قدر الاستطاعة ، وكانت هذه هي القاعدة الاجتماعية التي قام عليها المجتمع إذ ذاك ، وهي القاعدة المؤسسة على أركان الإسلام الخمسة فمن أداها وعمل بمستلزماتها فقد أدى ما افترض الله عليه ، وتأمل ما رواه أبو هريرة رضي الله

عنه من قول النبي صلى الله عليه وسلم : (من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقا على الله أن يدخله الجنة هاجر في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها) [خ : التوحيد (٧٤٢٣)]

فالدعوة إلى الله تعالى عمل جليل وقربى إلى الله تعالى ، وهي واجبة على المسلمين جميعا ثم إن قام بها العلماء والأمراء والقادرون سقط الوجوب عن الباقين [انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٥ / ١٦٥ – ١٦٧ و إعلام الموقعين لابن القيم ١٧٦/٢ والتبيان في أقسام القرآن لابن القيم أيضا – ص ٥٤ وانظر للفائدة فضل الدعوة إلى الله لسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ص ١٤ – ١٥ ط : ١٤١٠هـ الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية]

وخلاصة ما سبق :

١ –أن الدعوة تجب عينيا على المسلم (العالم القادر) كالعلماء والأمراء بحسب المنصب والقدرة .

٢– أن غير المؤهل لا يجوز له أن يفتي بغير علم أو يدعو بغير الأسلوب الحكيم كي لا يحرف دين الله ولا ينفّر عباد الله ولا يهدم بدل أن يبني .

٣ – أن الدعوة في حق العاجز والعامي غير المستطيع غير واجبة وجوبا عينيا بل وجوبا كفائيا. إلا ما كان في حيز ولايته ومسؤوليته فلا يسقط عنه كالأب في بيته وصاحب العمل في متجره ...

المذهب الثاني :

لعامة الظاهرية [راجع الفصل في الملل والأهواء والنحل : علي بن احمد بن حزم ٥ /١٩ – ٢٨] وعامة المعتزلة (الذين يجعلون أصول دينهم خمسة : التوحيد الذي هو سلب الصفات ، والعدل الذي هو التكذيب بالقدر، والمنزلة بين المنزلتين ، وإنفاذ الوعيد ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذي منه قتال الأئمة) [انظر مجموع الفتاوى ٢٨ / ١٢٨ – ١٢٩]

ومن علماء التفسير الزجاج ذهبوا إلى أن الدعوة إلى الله تعالى واجبة وجوبا عينيا على كل مسلم ، واستدلوا بما يلي :

١– أن (من) في قوله { وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ } الآية : بيانية لبيان الجنس ، قال الزجاج : معنى الكلام : ولتكونوا كلكم أمة تدعون إلى الخير وتأمرون بالمعروف ، ولكن (من) هنا تدخل لتحض المخاطبين من سائر الأجناس ، وهي مؤكدة أن الأمر للمخاطبين ، ومثل ذلك قوله تعالى : { فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنْ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ(٣٠) } [الحج] ومعناه : اجتنبوا الأوثان فإنها رجس ، قال : ويدل على أن الكل أمروا بالمعروف والنهي عن المنكر قوله تعالى : { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ الْفَاسِقُونَ(١١٠)} [آل عمران] ، [ابن الجوزي : زاد المسير في علم التفسير ١ / ٤٣٤]

٢ – عموم النصوص التي وردت آمرة بالدعوة والتبليغ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كالسابق ذكرها وأيضا حديث أبي بكرة ﷺ مرفوعا : (.. ألا ليبلغ الشاهد الغائب) [متفق عليه : خ : العلم (٦٧) ، م : القسامة (١٦٧٩)] وحديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعا : (بلغوا عني ولو آية) [خ : أحاديث الأنبياء (٣٤٦١) ، ت : العلم (٢٦٦٩) ، أحمد : المكثرين (٦٧١١)]

قالوا : ظاهر هذه النصوص يدل على وجوب الدعوة على كل مسلم لأنه لم يرد فيها استثناء ، ولأن الفلاح المذكور في قوله { وأولئك هم المفلحون } منوط بالقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فكل من لم يقم بهذا الواجب لم يشمله الفلاح .

الترجيح :

لا ريب أن قول الجمهور الذي يكاد يكون إجماعا هو الراجح الذي عليه المعول ، وأما قول المعتزلة والظاهرية فلا يعتد به وذلك للأسباب الآتية :

أولا – أن عموم النصوص الشرعية التي احتج بها من قال بالوجوب العيني قيدتها النصوص الأخرى والقرآن العظيم يفسر بعضه بعضا فـ (مِنْ) تبعيضية بدلالة الآيات الأخرى التي أوجبت على الأمة الإسلامية تخصيص (أمة) من المؤهلين بالعلم ، أو بالعلم والسلطان والنفوذ والقدرة ، لتقوم بواجب الدعوة إلى الله على بصيرة وعلم . وكذلك الأحاديث النبوية الشريفة ليس فيها دلالة قاطعة على وجوب القيام بالتبليغ والأمر والنهي على كل مسلم بعينه لتخصيص دلالتها بالنصوص الأخرى ، والاستدلال في الأحكام الشرعية إنما يكون بالنصوص جميعها لا ببعضها .

ثانيا – بالنظر إلى مراتب الدعوة نجد اتفاق المسلمين على أن الوجوب العيني على المسلم العامي لا يكون إلا في حدود مسئولياته وفي نطاق رعيته وعلى من تحت يده وعلى قدر علمه ووسعه ، واتفاقهم أيضا على أن الوجوب العيني إنما يكون على المسؤولين كالولاة والأمراء والعلماء الكبار والزعماء ومن بيدهم زمام الأمور ولهم النفوذ والسطوة قال ابن القيم : (وهذا واجب على كل مسلم قادر وهو فرض كفاية ويصير فرض عين على القادر الذي لم يقم به غيره من دوي الولاية والسلطان فعليهم من الوجوب ما ليس على غيرهم فإن مناط الوجوب هو القدرة فيجب على القادر ما لا يجب على العاجز قال تعالى فاتقوا الله ما استطعتم) [الطرق الحكمية ص ٢٣٦]

وبنظرة عصرية وما استجد في زماننا من منكرات مع ضعف الوازع الديني ينبغي الاهتمام بالدعوة أكثر من ذي قبل وفي هذا قال الشيخ ابن باز رحمه الله : (عند قلة الدعاة وكثرة المنكرات وعند غلبة الجهل كحالنا اليوم تكون الدعوة فرض عين على كل واحد بحسب طاقته ، وإذا كان في محل محدود كقرية ومدينة ونحو ذلك ووجد فيها من تولى هذا الأمر وقام به وبلغ أمر الله كفى وصار التبليغ في حق غيره سنة لأنه قد أقيمت الحجة على يد غيره ، ونفذ أمر الله على يد من سواه ، ولكن بالنسبة إلى بقية أرض الله وإلى بقية الناس يجب على العلماء حسب طاقتهم وعلى ولاة الأمر حسب طاقتهم أن يبلغوا أمر الله بكل ما يستطيعون وهذا فرض عين عليهم بالتعيين على حسب الطاقة والقدرة ، بهذا يعلم أن كونها فرض عين وكونها فرض كفائي أمر نسبي يختلف ، فقد تكون الدعوة فرض عين بالنسبة إلى أقوام وإلى أشخاص وسنة بالنسبة إلى أشخاص وإلى أقوام لأنه وجد في محلهم وفي مكانهم من قام بأمر وكفى عنهم ، أما بالنسبة إلى ولاة الأمر ومن لهم القدرة الواسعة فعليهم من الواجب أكثر ، وعليهم أن يبلغوا الدعوة إلى ما استطاعوا من الأقطار حسب الإمكان بالطرق الممكنة وباللغات الحية التي ينطق بها الناس) [فضل الدعوة إلى الله وحكمها ص ١٦ – ١٧]

ثالثا – لتحرير مكان الخلاف ينبغي أن ينظر إلى مراتب الأمر والنهي إذ يجب على القادر العالم ما لا يجب مثله على العاجز والجاهل ، والمسلم العامي في غير مسئوليته ورعيته الخاصة لا تجب عليه الدعوة وجوبا عينيا لأنه لا يستطيع وقد قال الله تعالى : { فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا} [التغابن : ١٦] وقال في موضع آخر : { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } [البقرة : ٢٨٦] فإن استطاع وجبت ومكمن الاستطاعة أمران (العلم ، والمقدرة) وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله فهذه النصوص ونظائرها تقرر القاعدة الأصولية أن الوجوب مرتبط بالقدرة والاستطاعة .

فكمال الوجوب على القادر العالم ، يليه في الوجوب من تحقق فيه العلم ، ولا وجوب على العاجز الجاهل .

هذا ولا بد من الرجوع إلى السلطان في تغيير المنكرات الكبار ، استتبابا للأمن وحفظا لهيبة السلطان وحذرا من الافتيات عليه وحرصا على مصالح المسلمين العامة وهذا أصل عظيم من أصول منهج السلف في الدعوة إلى الله فتأمله وقف عنده تكن محمود السريرة نقي السيرة .

مقاصد الدعوة وخصائصها

إلى ماذا ندعو ؟ ما موضوع الدعوة وما محورها وما أهمية هذا المضمون الذي تضافرت علي تحقيقه دعوات الرسل عليهم الصلاة والسلام ؟

لا جرم أن الدعوة إلى الله تعالى إنما هي دعوة إلى دينه بالإيمان به وبما جاءت به رسله مما أمروا به ونهوا عنه ، فمحور الدعوة العام ومقصودها الأجلّ تحقيق العبودية لله رب العالمين وحده لا شريك له ، وهذا لب الإسلام الذي لا يقبل الله دينا غيره قال تعالى { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ } [آل عمران : ١٩] وقال { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ(٨٥) } [آل عمران]

إن محور الإسلام وأصله الأصيل ومرتكزه الركين توحيد الله تعالى في ألوهيته قال تعالى : { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي(٥٦)} [الذاريات]

ووجود الإنسان في هذه الحياة الدنيا إنما هو لإعمار الآخرة على هذا الأساس ، والقرآن العظيم ما فتئ يذكّر الناس بهذه الحقيقة قال تعالى :{ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ(١١٥)فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ(١١٦)وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ(١١٧)وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ(١١٨) } [المؤمنون]

وتوحيد العبادة هو أصل الأصول الذي دارت عليه رسالات الله كلها ، قال الله تعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِي(٢٥)} [الأنبياء] وقال{ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } [النحل : ٣٦]

ومن السنة قول النبي صلى الله عليه وسلم من حديث عمرو بن شعيب رضي الله عنه : (خير ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير) [ت : الدعوات (٣٥٨٥) وقال حديث حسن غريب]

وعلى هذا الأصل مدار الجزاء الأخروي قال تعالى : { قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا(١١٠) } [الكهف] وقال : { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ

مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٩٧) } [النحل] فالإيمان بالله والعمل الصالح وما يقتضيه هذان الأصلان هما سبب الفوز برضوان الله والنجاة من سخطه وهو ما تهدف إليه الدعوة الإسلامية .

وعلى هذا فإن الدعوة إلى الله تعالى بالأصالة إنما تكون إلى عبادته وحده وإقامة منهج الحياة كلها على هذا النسق الرشيد ، وهذا المبدأ رغم وضوحه وجلائه وتمشيه مع الفطر السليمة والعقول القويمة ذهل عنه كثير من الدعاة فانشغلوا بغيره من المبادئ وبذلوا جهودهم في غيره من الغايات متخطين بذلك المنهج النبوي في الدعوة القائم على ترتيب الأوليات في الدعوة والبدء بالأهم فالمهم وبالأساس والأصل قبل الفروع .

وخلاصة القول : إن الدعوة إلى الله تعالى تهدف إلى تعريف الناس أصول الدين الثلاثة : معرفة العبد ربه الذي خلقه ورزقه وأنه سبحانه وتعالى المستحق للعبادة وحده دون سواه فهو المتفرد في الربوبية والألهية والأسماء والصفات لا إله غيره ولا رب سواه . ومعرفة العبد دينه وهو الإسلام وهو الدين الذي لا يقبل الله دينا سواه . ومعرفة العبد نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم .

ومن بعد ذلك إقامة سائر الأحكام والأخلاق والآداب على هذا الأساس الوطيد والأصل العظيم كما في حديث معاذ (إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحّدوا الله تعالى ، فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم) [متفق عليه]

ومن مقاصد الدعوة إقامة المجتمع الإسلامي الأمثل ، الذي ينتهج منهج الدين القويم في كل جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والفكرية والسياسية ، مجتمع يتواصى بالخير والحق والفضيلة ويحارب الشر والفساد والرذيلة ولا يفرط في ثوابته العقدية والشرعية ، يناصر المظلوم أيا كان دينه أو بلده أو جنسيته ، مجتمع يدعو إلى إرساء دعائم السلام والحق والعدل في الإنسانية . مجتمع يدعو بأخلاقه الكريمة وخصاله الشريفة ومواقفه الثابتة النبيلة قبل القيل .

من مقاصد الدعوة :

من كبرى مقاصد الدعوة : تحقيق العبادة لله تعالى وحده لا شريك له وهو أعظم أهداف الدعوة وأجل مقاصدها وما خلق الله تعالى الخلق إلا ليعبدوه وهو الغني الحميد قال تعالى : {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ(٥٦)} [الذاريات] ومن سبل تحقيق التوحيد محاربة الشرك بكل أنواعه وأسبابه ، ومحاربة كل مظاهره المؤدية إليه كالسحر والشعوذة والخرافات والكهانة وكل ما يصرف العبد عن ربه وخالقه ومولاه .

ومن مقاصد الدعوة اتباع السنة ومحاربة البدعة ، فطاعة الرسول واجبة وهي من طاعة الله قال تعالى :{وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ(١٢)}[التغابن] ومخالفة أمره من أسباب العطب والهلاك قال تعالى : { فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٦٣)}[النور]

ومما ورد في الاتباع قوله صلى الله عليه وسلم : (قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هـــالك ومن يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ) [جزء من حديث رواه : د : السنة (٤٦٠٧) ، ت : العلم (٢٦٧٦) وقال حديث حسن صحيح ، ماجة : المقدمة (٤٤) ، أحمد : الشاميين (١٦٥١٩) واللـــفظ لابن ماجة وأحمد] فكل زيادة في الدين أو نقص فهو رد على صاحبه ، وفي حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) [متفق عليه : خ : الصلح (٢٦٩٧) ، م : الأقضية (١٧١٨)]

وعليه فإن الدعوة إلى السنة وبيان فضلها وأهميتها وآثار إتباعها ومحاربة البدعة وبيان أخطارها وآثارها من مهمات الدعاة لاسيما في هذا العصر وهو ما ينبغي أن يعوه ويولوه جل عنايتهم قال غضيف بن الحارث الثمالي رضي الله عنه : (ما أحدث قوم بدعة إلا رفع مثلها من السنة فتمسك بسنة خير من إحداث بدعة) [أحمد : مسند الشاميين (١٦٣٩٦) وانظر فيض القدير للمناوي ٤١٢/٥ فقد عزاه إلى أنس رضي الله عنه]

ومن مقاصد الدعوة إقامة مجتمع إسلامي متكافل مترابط يتواصى بالحق ويتواصى بالصبر ، وهو مجتمع تراحم وتواصل ، يتنافس أفراده على الطاعات والقربات كما في قوله تعالى {التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ(١١٢)}[التوبة] كما يتصفون في المعاملات بأحسن الأخلاق كما في قوله تعالى :{الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ (١٧)} [ال عمران]

ومن مقاصد الدعوة العمل الحثيث على وحدة المجتمع وترابطه وقوته ، والتحذير من كل ما يزعزعه أو يفككه أو يزرع فيه العنصريات والحزبيات والتفرق ، ومحاربة كل ما يؤدي الانقسامات والتشرذم والتناحر ، ولا سبيل إلى تحقيق ذلك بعد روابط الإيمان إلا بالسمع والطاعة والانقياد لولاة الأمر ما لم يأمروا بمعصية ومن بين عشرات النصوص الواردة في ذلك قوله تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً(٥٩)}[النساء]

ومن مقاصد الدعوة تنشئة أمة متعاونة داعية إلى الخير والرشد هي خير أمة أخرجت للناس {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ(١١٠)}[ال عمران]

ومن خصائص الدعوة :

١- أنها دعوة ربانية :

فالله تعالى هو الداعي إلى رحمته وإلى الجنة كما قال : {وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٢٥)}[يونس] وقال : { يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ }[إبراهيم : ١٠] وهو سبحانه وتعالى له دعوة الحق { لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاء لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ(١٤) } [الرعد : ١٤]

ومن ثم فإن الاستجابة لهذه الدعوة الربانية الخالدة سعادة أبدية ، والإعراض عنها شقاوة أبدية والعياذ بالله قال تعالى :{ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ أُوْلَـئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(١٨)}[الرعد]

والدعوة إنما تكون إلى الإسلام وهو دين جميع الرسل ، وهو الدين الذي ارتضاه الله تبارك وتعالى ولن يقبل دينا غيره ، وفي هذا نصوص عديدة منها : قوله تعالى : { إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ } [آل عمران : ١٩] وقوله :{ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ(٨٥) } [آل عمران]

٢ – الشمولية والكمال :

الإسلام دين شامل كامل يحكم ويضبط كل تصرفات المكلفين منذ لحظة المولد إلى لحظة الوفاة ، وعليه فالدين الحنيف يشمل كل مرافق الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية وغيرها ، قال تعالى : { مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ } [الأنعام] أي : ما فرطنا في شيء بكم إليه حاجة إلا بيناه في الكتاب إما نصا وإما مجملا وإما دلالة [ابن الجوزي – زاد المسير ٣ / ٣٤]

وقال تعالى : { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ(٨٩) } [النحل] وقال تعالى : { وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا (١٢)} [الإسراء] أي بيّنّاه تبيينا . قال أبو السعود : { وَكُلَّ شَيْءٍ } تفتقرون إليه في المعاش والمعاد سوى ما ذكر من جعل الليل والنهار آيتين وما يتبعه

من المنافع الدينية والدنيوية { فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا } أي بيناه في القرآن الكريم بياناً بليغاً لا التباس معه [إرشاد العقل السليم ٥ / ١٦٠]

وقال تعالى : { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا } [المائدة : ٣] أي فارضوه أنتم لأنفسكم فإنه الدين الذي أحبه الله ورضيه وبعث به أفضل الرسل الكرام وأنزل به أشرف كتبه وقال علي بن أبي طليحة عن ابن عباس قوله { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ } وهو الإسلام أخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أنه أكمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبدا وقد أتمه الله فلا ينقصه أبدا وقد رضيه الله فلا يسخطه أبدا [تفسير ابن كثير ٢ / ١٥]

ومن شمول الإسلام شمول القرآن قال ابن تيمية بعد أن ذكر الكتب السماوية السابقة : (وأما القرآن فإنه مستقل بنفسه لم يحوج أصحابه إلى كتاب آخر بل اشتمل على جميع ما في الكتب من المحاسن وعلى زيادات كثيرة لا توجد في الكتب ، فلهذا كان مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، يقرر ما فيها من الحق ويبطل ما حرف منها وينسخ ما نسخه الله ، فيقرر الدين الحق وهو جمهور ما فيها ، ويبطل الدين المبدل الذي لم يكن فيها ، والقليل الذي نسخ فيها فإن المنسوخ قليل جداً بالنسبة إلى المحكم المقرر [مجموع الفتاوى ١٩ / ١٨٤]

ومن شمولية السنة حديث عمر رضي الله عنه قال : (قَامَ فِينَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَقَامًا فَأَخْبَرَنَا عَنْ بَدْءِ الْخَلْقِ حَتَّى دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنَازِلَهُمْ وَأَهْلُ النَّارِ مَنَازِلَهُمْ حَفِظَ ذَلِكَ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ) [خ : بدء الخلق (٣١٩٢)]

وحديث حذيفة رضي الله عنه قال : (خَطَبَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُطْبَةً مَا تَرَكَ فِيهَا شَيْئًا إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا ذَكَرَهُ عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ إِنْ كُنْتُ لَأَرَى الشَّيْءَ قَدْ نَسِيتُ فَأَعْرِفُ مَا يَعْرِفُ الرَّجُلُ إِذَا غَابَ عَنْهُ فَرَآهُ فَعَرَفَهُ) [متفق عليه : خ : القدر (٦٦٠٤) ، م : الفتن (٢٨٩١)]

وعند الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال : (صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا صَلَاةَ الْعَصْرِ بِنَهَارٍ ثُمَّ قَامَ خَطِيبًا فَلَمْ يَدَعْ شَيْئًا يَكُونُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا أَخْبَرَنَا بِهِ حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ) [ت : الفتن (٢١٩١) وقال حسن صحيح ، أحمد : المكثرين (١٠٦١١)]

وفي حديث سلمان رضي الله عنه لما قيل له : قد علمكم نبيكم صلى الله عليه وسلم كل شيء حتى الخراءة ؟ قال : (أجل لقد نهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول أو أن نستنجي باليمين أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار أو أن نستنجي برجيع أو بعظم) [م : الطهارة (٢٢٣ و ٢٦٢) ، وأصحاب السنن : د : الطهارة (٧) ، ت : الطهارة (١٦) ، س : الطهارة (٤١) ، ماجة : الطهارة (٣١٦) ، أحمد : الأنصار (٢٢٥٩٠)]

٣- العالمية :

فالدعوة الإسلامية دعوة عالمية ، ورسالته صلى الله عليه وسلم رسالة عامة للناس كافة على اختلاف العصور والأمصار إلى يوم القيامة ، لذا فالدعوة إلى الله ليست تنحصر في بلد ولا عرق ولا جنس ولا لون ولا عصر ، قال الله تعالى : { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(١٥٨)} [الأعراف] وقال:{ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ(١٠٧) } [الأنبياء] وقال : { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(٢٨) } [سبأ] وقال : { تَبارَكَ الذي نزّلَ الفرقانَ على عَبْده ليكونَ للعالمينَ نذيراً } [الفرقان : ١]

ودعوته كما أنها تشمل الإنس فإنها تشمل الجن أيضا قال تعالى : { قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنْ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا(١)يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا(٢) } [الجن] وغيرها من آيات الكتاب العزيز ، وقد ذكر شيخ الإسلام أساليب دعوتهم وأحوالهم وأسباب تلبسهم بالإنس فطالعه [مجموع الفتاوى ١٩ / ٣٩] وإنما وقع الخلاف في الملائكة هل تشملهم رسالته أم لا ؟ على قولين والصحيح أنها لا تشملهم لتضافر الأدلة على أن رسالته للثقلين ، والله أعلم .

ومن الأدلة على عالمية الدعوة قول النبي صلى الله عليه وسلم : (كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة) وفي لفظ مسلم : (.. وبعثت إلى كل أحمر وأسود) [متفق عليه : خ : التيمم (٣٣٥) ، م : المساجد (٥٢١ و ٥٢٣)] والمراد بالأحمر البيض من العجم وغيرهم ، وبالأسود العرب لغلبة السمرة فيهم وغيرهم من السودان وقيل المراد بالأسود السودان ، وبالأحمر من عداهم من العرب وغيرهم ، وقيل الأحمر الإنس والأسود الجن والجميع صحيح فقد بعث إلى جميعهم [أنظر النووي : المنهاج ٨/٥]

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار) [م : الإيمان (١٥٣) ، أحمد : المكثرين (٧٨٥٦)]

ومن السنة التطبيقية حديث (كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى) [م : الجهاد (١٧٧٤) ، ت : الاستئذان (٢٧١٦) ، أحمد : المكثرين (١٤٠٧٧)]

قال ابن هشام : (فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رسلا من أصحابه وكتب معهم كتبا إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام ، فبعث دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر ملك الروم ، وبعث عبد الله

بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك فارس ، وبعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة ، وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ملك الاسكندرية ، وبعث عمرو بن العاص السهمي إلى جيفر وعياد ابني الجلندي الأزديين ملكي عمان ، وبعث سليط بن عمرو أحد بني عامر بن لؤي إلى ثمامة بن أثال وهوذة بن علي الحنفيين ملكي اليمامة ، وبعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى العبدي ملك البحرين ، وبعث شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ملك تخوم الشام ، قال ابن هشام : وبعث شجاع بن وهب إلى جبلة بن الأيهم الغساني ، وبعث المهاجر بن أبي أمية إلى الحارث بن عبد كلال الحميري ملك اليمن [ابن هشام : السيرة النبوية ٢ / ٦٠٦]

٤ – الوسطية :

يتبوأ الدين الحنيف الذي ارتضاه الله لنا المكانة الوسط في العقيدة والشريعة والأخلاق ، فهو بين الإفراط والتفريط بين الغلو والتهاون ، لا يقبل التنطع ولا الرهبانية كما يأبى طرفي النقيض الغلو والتساهل ، يفي بحاجات الروح والجسد والعقل في آن واحد ، والوسط ما له طرفان متساويا القدر ، وتتجلى الوسطية في المحاور الآتية :

الوسطية في العقيدة : فالعقيدة الإسلامية من أعدل العقائد التي عرفتها البشرية وأوسطها ، وأنقاها من لوث الشبهات التي طالت العقائد الباطلة والتحريف الذي اعترى الملل الأخرى لأن الإسلام هو دين الله الذي ارتضاه لعباده والذي لا يقبل دينا غيره ، وهو دين الرسل كلهم إذ كلهم أخلص دينه لله وأسلم وجهه لله وهو محسن ، وكلهم كفر بالطاغوت واستمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها وهي كلمة لا إله إلا الله .

ففي الألوهية : تقوم العقيدة الإسلامية على توحيد الله عز وجل في الربوبية والإلهية والأسماء والصفات ، وهو أصل الاعتقاد الذي ينبني عليه الإيمان بأركان الإيمان الستة وأركان الإسلام الخمسة وركن الإحسان ، فالله سبحانه وتعالى منزه عن النقائص ، ومنهج السلف يقتضي إثبات ما أثبته تعالى لنفسه من غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل فهو سبحانه كما قال عن نفسه : { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ(١١) } [الشورى] وقال : { الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى(٥) } [طه] وقال : { لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنْ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا(١١١) } [الإسراء] وقال : { يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ(١٩) } [غافر] ، وقال : { لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ(١٠٣) } [الأنعام]

وقال كما يردده المسلمون صباح مساء { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ(٥) } [الفاتحة] فهو سبحانه المعبود بحق لا إله غيره ولا رب سواه .. فأين هذا من عقائد اليهود والنصارى في الألوهية إذ يرون لله ولداً تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً وكما قال الله عنهم : { وَقَالَتْ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ(٣٠) } [التوبة]

وفي النبوة : تقوم عقيدة المسلمين على محبة الأنبياء والرسل كلهم دون تفريق بينهم ، وأن لهم منازل أنزلهم الله عز وجل إياها وأنهم مربوبون لله تعالى وأنهم بشر اصطفاهم الله لرسالته ونبوته وأنهم معصومون من الكبائر والموبقات وأن الإيمان بهم جميعا ركن من أركان الإيمان الستة ، قال تعالى : { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ(٢٨٥) } [البقرة]

الوسطية في الشريعة : إذ أن أحكام الإسلام فضلا عن اليسر هي وسط بين التشدد والتساهل ، فالنبي صلى الله عليه وسلم كما وصفه ربه عز وجل : { الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ(١٥٧) } [الأعراف]

ومن وسطية الشريعة أن حرمت التشدد والتزمت ومنه الرهبانية وترك النكاح وكما قال الصحابة رضوان الله عليهم : (لقد رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على عثمان بن مظعون التبتل ولو أذن له لاختصينا) [متفق عليه : خ : النكاح (٥٠٧٤) ، م : النكاح (١٤٠٢)] كما قال راوي الحديث ، فالمنهج الإسلامي وسط بين التفريط والإفراط .

وفي جانب العبادات دعا الإسلام إلى توخي المنهج الوسط المعتدل ، فهو يرفض التشدد والتنطع ، كما أنه يأبى التساهل والتكاسل والتخاذل ففي رفض التشدد والغلو حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (هلك المتنطعون) قالها ثلاثا [م : العلم (٢٦٧٠) ، د : السنة (٤٦٠٨) ، احمد : المكثرين من الصحابة (٣٤٧٣) واللفظ لمسلم] والتنطع : التكلف والغلو ومجاوزة الحد . وفي حديث آخر قال صلى الله عليه وسلم : (أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني) [متفق عليه : خ : النكاح (٥٠٦٣) ، م : النكاح (١٤٠١)]

وقال : (إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وابشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة) [خ : الإيمان (٣٩) ، ن : الإيمان وشرائعه (٥٠٣٤) ، ماجة : الزهد (٤٢٠١)]

قال الحافظ ابن حجر – رحمه الله – : (سمى الدين يسراً مبالغة بالنسبة إلى الأديان قبله ، لأن الله رفع عن هذه الأمة الإصر الذي كان على من قبلهم ومن أوضح الأمثلة له أن توبتهم كانت بقتل أنفسهم وتوبة هذه الأمة بالإقلاع والعزم والندم) وقال (والمشادة بالتشديد المغالبة ، يقال شاده يشاده مشادة إذا قاواه والمعنى : لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيغلب) [الفتح ١/٩٣ – ٩٤] وفي حديث سهل بن عبد الله رضي الله عنه مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم : (إن الله لم يبعثني متعنتا ولكن بعثني معلما ميسراً) [م : الطلاق (١٤٧٨) ، ت : تفسير القرآن (٣٣٧٤) وقال حديث حسن صحيح غريب]

٥- الخلود والصلاحية لكل عصر ومصر :

فالإسلام دين الفطرة يخاطب الناس كافة على اختلاف أوطانهم وقومياتهم وألسنتهم وأعراقهم وسلالاتهم وثقافاتهم ، وعلى وجه الإجمال فخلود هذا الدين وحفظ الله له من التحريف يقتضي صلاحيته من جهة الزمان ، وعالميته تقتضي صلاحيته من جهة المكان .

ومن دلائل صلاحية هذا الدين كماله ، قال تعالى : { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا } [المائدة : ٣] فهو دين كامل شامل لا يقبل الإضافة والزيادة والابتداع ولا يقبل تعديلا ولا تحويلا ، وكما قال تعالى : { لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ(٤٢) } [فصلت]

هذا في حين أن الملل الباطلة اعتراها تبديل وتزييف ونقص استتبعه انفضاض الأتباع وتفرقهم واضمحلال الشريعة ودأب أصحاب تلك الملل يتخلصون منها ومن ضلالاتها ولوثها كما هو واقع النصرانية التي حاربها أهلها ونبذوها في مجتمعاتها إذ أخرجوا للناس ما يسمى بالعلمانية وهي قصر النصرانية في حدود الكنيسة لا تتعداها ، أما المجتمع والحياة عموما فلا رقابة للدين البتة ! ، وكذلك وقع للشيوعية والماركسية الجدلية فبعد أن قامت لها دول انهارت واحدة تلو الأخرى وصارت كذاهب الأمس وهذه أمثلة ... فلئن كانت النصرانية ملة محرفة لا تصلح كتطبيق عملي وكان من مصلحة الكنيسة قصر الديانة داخل الكنائس استبقاء لهيبتها فإن هذا الوضع المعوج لا يصلح بحال في المجتمعات الإسلامية لصلاح الإسلام لكل عصر ومصر ومواكبته لكل مراحل التاريخ الإنساني وتأييده وتشجيعه

العقول المفكرة والقلوب المستنيرة بنور الله فهو لا يحجر على العقول ولا القلوب كما فعلت الديانة النصرانية المحرفة .

وللدعوة خصائص أخرى جمعها الدكتور عبد الرحمن الجزائري في رسالته الدكتوراه خصائص الدعوة ، تركنا التفصيل فيها اختصارا .

أهمية الأخذ بمنهج الدعوة القويم والحذر مما يخالفه

للدعوة منهاج قويم سار عليه الأنبياء والمرسلون ، وهو منهاج يقوم على أساس التوحيد الخالص لله تعالى في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته ، مع التخلص من كل الأهواء والبدع والجهالات والتصوف مما يدخله الناس في الدين ولم ينزل لله بها سلطانا ، ومنهاج الدعوة واحد لا يحتمل التعدد وهو المنهاج المستقيم الذي لا عوج فيه كما قال تعالى : { وَأَنَّ هَـــذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٥٣)}[الأنعام]

والأمارة البينة على هذا المنهاج هو تأسيسه على أساس توحيد العبادة ، وهل تجد أوضح فيه من قول الله تعالى : { قُلْ هَـــذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١٠٨)}[يوسف] فالبصيرة في الدعوة أن تحقق التوحيد وأن تنتفي من الشرك ، فمتى حقق الدعاة ذلك حصل لهم التمكين في الأرض وهو وعد إلهي ووعد الله تعالى لا يتخلف قال تعالى :{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(٥٥)} [النور]

ومن تأمل أحوال الدعاة الذين ينهجون غير هذا المنهج ممن لا يهتمون بتحقيق العبادة لله تعالى وإفرادها له تعالى وأيضا من يفسرون كلمة التوحيد بالربوبية فقط كما كان مشركو العرب ومن يزعمون كذبا وزورا أن الاهتمام بالتوحيد يفرق الأمة يجد أنهم يتخبطون على غير هدى ولا يجنون من دعوتهم غير الهم والتعب ولا يمكن لهم لا في القلوب ولا في البلاد ..

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

أضواء على التعريف :

المعروف هو : (الحق الذي جاء به الوحي الإلهي وعرفت العقول حسنه وبهاءه) والمنكر (ما أنكره الشرع ونهى عنه وقبحه) قال الماوردي (وإنما سمي الحق معروفا لأنه معروف الصحة في العقول ، وسمي الباطل منكرا لأنه منكر الصحة في العقول) [النكت والعيون ٢ / ٢٦٨]

وأعرف المعروف توحيد الله تعالى في الألوهية ، كما أن أنكر المنكر الشرك بالله تعالى . قال الإمام الطبري : وأصل المعروف كل ما كان معروفا ففعله جميل مستحسن غير مستقبح في أهل الإيمان بالله وإنما سمى طاعة الله معروفا لأنه يعرفه أهل الإيمان ولا يستنكرون فعله ، وأصل المنكر ما أنكره الله ورأوه قبيحا فعله ولذلك سميت معصية الله منكرا لأن أهل الإيمان بالله يستنكرون فعلها ويستعظمون ركوبها [الإمام الطبري : جامع البيان ٤/٣٠]

والله تبارك وتعالى أمر بأمهات الفضائل ونهى عن أمهات الرذائل فقال : { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(٩٠) } [النحل] ويندرج تحت الأصول ما دونها في الرتبة والدرجة .

الاصطلاح الشرعي : اصطلحوا على اطلاق (الحسبة) على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باعتبارهما شعيرة من شعائر الإسلام وولاية من الولايات السلطانية .

وللحسبة في اللغة ثلاثة معاني :

أولها طلب مثوبة الله تقول : فعلته حسبة واحتسب فيه احتسابا ، والاحتساب طلب الأجر ، والاسم : الحسبة – بالكسر – وهو الأجر ، وفي حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ : (من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه) [متفق عليه : خ : الإيمان (٣٨) ، م : صلاة المسافرين (٧٦٠)]

ثانيها : التدبير يقال إنه لحسن الحسبة في الأمر أي : حسن التدبير والنظر فيه .

ثالثها : الإنكار يقال احتسب فلان أي أنكر عليه قبيح فعله [انظر : لسان العرب مادة (حسب) ١/٣١٠]

وهذه المعاني اللغوية الثلاثة مرعية في الحسبة الشرعية إذ المحتسب إنما يطلب أجره في احتسابه من الله عز وجل وهذا هو الأصل فيه ، ثم هو يتوخى حسن التدبير وسلامة التقدير حتى تثمر حسبته قبولا وحسن عاقبة ، وفي الوقت نفسه ينكر على العصاة قبيح فعلهم على هدى وبصيرة .

الحسبة إصطلاحا :

عند الماوردي : (أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله) [النكت والعيون ٢ / ٢٦٨] ومن خلال هذا التعريف يتبيّن الفرق بين (الدعوة) و(الحسبة) من وجهين :

أولا – ظهور المنكر وهو : إما ترك أمر مشروع أو ارتكاب محظور ، فإذا ما ظهر المنكر جرت الحسبة على أرباب المنكرات بحسب الوقائع والأحوال ، أما الدعوة فإنها تكون ابتداء سواء ظهر منكر أو لم يظهر فهي من هذا الاعتبار أعم من الحسبة وأشمل .

ثانيا – تحديد المجالات التي تجري فيها الحسبة مما يحمل فيها الناس حملا على تحقيق المصالح ودرء المفاسد ، فالحسبة على هذا نوع ولاية وسلطة تستلزم القوة والرهبة لأنها تستمد ذلك من هيبة السلطان وقوته وسلطته ، أما الدعوة فالأصل فيها اللين واللطف كما في قول الباري جل ذكره لموسى وهارون عليهما السلام : { اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى(٤٣)فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى(٤٤) } [طه]

شروط الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر :

شروط المحتسب الرئيسة ثلاثة قال ابن تيمية رحمه الله : (لا بد من هذه الثلاثة العلم والرفق والصبر العلم قبل الأمر والنهى والرفق معه والصبر بعده وإن كان كل من الثلاثة مستصحبا في هذه الأحوال وهذا كما جاء في الأثر عن بعض السلف ورووه مرفوعا ذكره القاضي أبو يعلى في المعتمد (لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيها فيما يأمر به فقيها فيما ينهى عنه رفيقا فيما يأمر به رفيقا فيما ينهى عنه حليما فيما يأمر به حليما فيما ينهى عنه) [مجموع الفتاوى ٢٨ / ١٣٧]

لمحة تاريخية عن الحسبة :

أول من قام بالحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو النبي صلى الله عليه وسلم ، وحياته كلها جهاد ودعوة وحسبة وتربية وأمر ونهي .

ومن الأمثلة على حسبته ﷺ مارواه جابر بن يزيد عن أبيه أنه صلى مع رسول الله ﷺ وهو غلام شاب فلما صلى إذا رجلان لم يصليا في ناحية المسجد فدعا بهما فجئ بهما ترعد فرائصهما فقال : (مَا مَنَعَكُمَا أَنْ تُصَلِّيَا مَعَنَا) ؟ قالا قد صلينا في رحالنا ، فقال : (لَا تَفْعَلُوا إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فِي رَحْلِهِ ثُمَّ أَدْرَكَ الْإِمَامَ وَلَمْ يُصَلِّ فَلْيُصَلِّ مَعَهُ فَإِنَّهَا لَهُ نَافِلَةٌ) [د : الصلاة (٤٨٨)]

وما رواه سالم عن أبيه ﷺ قال : (رأيت الذين يشترون الطعام مجازفة يضربون على عهد رسول الله ﷺ أن يبيعوه حتى يؤووه إلى رحالهم) وفي رواية أخرى لمسلم : (كنا في زمان النبي ﷺ نبتاع الطعام

فيبعث علينا من يأمرنا بانتقاله من المكان الذي ابتعناه فيه إلى مكان سواه قبل أن نبيعه) [متفق عليه : خ : البيوع (٢١٣١) ، م : البيوع (١٥٢٧)]

وما رواه ابن عباس رضي الله عنهما : (أن النبي ﷺ مر وهو يطوف بالكعبة بإنسان ربط يده إلى إنسان بسير أو بخيط أو بشيء غير ذلك فقطعه النبي ﷺ بيده ثم قال قدْهُ بيده) [خ : الحج (١٦٢٠) ، س : مناسك الحج (٢٩٢٠) ، د : الأيمان والنذور (٢٨٧٢) ، أحمد : بني هاشم (٣٢٦٤)]

وكل ما أثر عنه من سنة قولية وفعلية وتقريرية إنما هي شواهد على أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، ولو تتبعت الأحاديث التي تبدأ بقول الراوي أمرنا رسول الله ﷺ بكذا ونهانا عن كذا - كمثال - لوجدتها من الكثرة بحيث تستوعبها أسفار ضخام .

ولما جاء عهد الخلافة الراشدة احتسب الخلفاء ، فمن احتساب أبي بكر رضي الله عنه حروب الردة وجمع القرآن وقد كانت خلافته سنتين ونيفا ، وأما خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد طالت زهاء عشر سنوات ، وتعددت في عصره الفتوحات وظهرت بعض المنكرات وتجاهر بها بعض الناس فاستدعى ذلك أن يولّي (محتسبا) يتفرغ لهذا الأمر وتكون كفايته من بيت المال ، وكان عمر رضي الله عنه يقوم بالحسبة بنفسه ، وقصصه في هذا كثيرة مستفيضة .

قال الطبري : (وكان عمر إذا أراد أن يأمر المسلمين بشيء أو ينهاهم عن شئ مما فيه صلاحهم بدأ بأهله وتقدم إليهم بالوعظ لهم والوعيد على خلافهم أمره ، كالذي حدثنا أبو كريب حدثنا عبيد الله بن عمر بالمدينة عن سالم قال كان عمر إذا صعد المنبر فنهى الناس عن شئ جمع أهله فقال إني نهيت الناس عن كذا وكذا وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير وأقسم بالله لا أجد أحدا منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة !) [الإمام ابن جرير الطبري : تاريخ الأمم ٢١/٥ حوادث سنة (٢٣)]

وكان عمر في ورعه وتقواه وأمانته مع قوته في الحق مضرب المثل وقصصه في هذا كثيرة مشتهرة منها ما رواه إياس بن سلمة عن أبيه قال : مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه في السوق ومعه الدرة فخفقني بها خفقة فأصاب طرف ثوبي فقال : أمط عن الطريق ! فلما كان في العام المقبل لقيني فقال يا سلمة تريد الحج ؟ فقلت : نعم ، فأخذ بيدي فانطلق بي الي مترله فأعطاني ستمائة درهم وقال : إستعن بها على حجك واعلم أنها بالخفقة التي خفقتك !! قلت : يا أمير المؤمنين ما ذكرتها ، قال : وأنا ما نسيتها !) [تاريخ الأمم ٣٢/٥]

ومن لطائف احتسابه رضي الله عنه (أنه أتي بمال فجعل يقسمه بين الناس فازدحموا عليه فأقبل سعد بن أبي وقاص يزاحم الناس حتى خلص إليه فعلاه عمر بالدرة وقال أقبلت لا تهاب سلطان الله في الأرض فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لن يهابك !) [تاريخ الأمم ٢٤/٥]

وعلى هذا المنوال كانت الحسبة في عهد عثمان وعلي رضي الله عنهم جميعا ، ولو تتبعنا أخبارهم في ذلك لطال بنا المقام وحسبنا هذا القدر .

من حسبة بعض الصحابة رضي الله عنهم ما رواه ابْنُ شِهَابٍ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَخَّرَ الصَّلَاةَ يَوْمًا فَدَخَلَ عَلَيْهِ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ فَأَخْبَرَهُ أَنَّ الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ أَخَّرَ الصَّلَاةَ يَوْمًا وَهُوَ بِالْعِرَاقِ فَدَخَلَ عَلَيْهِ أَبُو مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيُّ فَقَالَ مَا هَذَا يَا مُغِيرَةُ أَلَيْسَ قَدْ عَلِمْتَ أَنَّ جِبْرِيلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَزَلَ فَصَلَّى فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ صَلَّى فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ صَلَّى فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ صَلَّى فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ صَلَّى فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ بِهَذَا أُمِرْتُ فَقَالَ عُمَرُ لِعُرْوَةَ اعْلَمْ مَا تُحَدِّثُ أَوَ أَنَّ جِبْرِيلَ هُوَ أَقَامَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقْتَ الصَّلَاةِ قَالَ عُرْوَةُ كَذَلِكَ كَانَ بَشِيرُ بْنُ أَبِي مَسْعُودٍ يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ قَالَ عُرْوَةُ وَلَقَدْ حَدَّثَتْنِي عَائِشَةُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُصَلِّي الْعَصْرَ وَالشَّمْسُ فِي حُجْرَتِهَا قَبْلَ أَنْ تَظْهَرَ) [خ : مواقيت الصلاة (٥٢٢)] هذا غيض من فيض ..

ثم تواصى المسلمون بالحسبة في عهود الإسلام المختلفة العهد الأموي فالعباسي فالعهود التي تلته بحسب الأحوال والوقائع ، وقام علماء الإسلام في كل عصر بهذا الواجب الإسلامي الجليل كشيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه، ومن قبله الأئمة الأربعة وغيرهم من أعلام الهدى رحمهم الله جميعا ، والمراجع التاريخية في هذا حافلة بالشواهد التي تجسد مدى اهتمام المسلمين بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأنه من خصائص الأمة الإسلامية .

وفي هذا العصر لما أراد الله أن يحفظ دينه وكتابه قيض الشيخ محمد بن عبد الوهاب التميمي فصدع بالدعوة إلى التوحيد ونبذ كافة أشكال وصور الشرك والبدع والخرافة والدجل ، وآزره الإمام محمد بن سعود – رحمهما الله – فقامت دولة التوحيد واتخذت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منهجا لا تحيد عنه في كل أدوارها ، ولا نعلم اليوم في بلاد المسلمين كافة دولة لها هيئة حكومية متخصصة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غير المملكة العربية السعودية حرسها الله ، ووفق قادتها لكل خير وبرّ ورشد آمين .

لمحة عن مجالات الحسبة :

قال ابن القيم : (وأما ولاية الحسبة فخاصتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما ليس من خصائص الولاة والقضاة وأهل الديوان ونحوهم فعلى متولي الحسبة أن يأمر العامة بالصلوات الخمس

في مواقيتها ويعاقب من لم يصل بالضرب والحبس وأما القتل فإلى غيره ، ويتعاهد الأئمة والمؤذنين فمن فرط منهم فيما يجب عليه من حقوق الأمة وخرج عن المشروع ألزمه به واستعان فيما يعجز عنه بوالي الحرب والقاضي . واعتناء ولاة الأمور بإلزام الرعية بإقامة الصلاة أهم من كل شيء فإنها عماد الدين وأساسه وقاعدته وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى عماله أن أهم أمركم عندي الصلاة فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ومن ضيعها كان لما سواها أشد إضاعة . ويأمر والي الحسبة بالجمعة والجماعة وأداء الأمانة والصدق والنصح في الأقوال والأعمال وينهى عن الخيانة وتطفيف المكيال والميزان والغش في الصناعات والبياعات ويتفقد أحوال المكاييل والموازين وأحوال الصناع الذين يصنعون الأطعمة والملابس والآلات فيمنعهم من صناعة المحرم على الإطلاق كآلات الملاهي وثياب الحرير للرجال ويمنع من اتخاذ أنواع المسكرات ويمنع صاحب كل صناعة من الغش في صناعته ويمنع من إفساد نقود الناس وتغييرها ويمنع من جعل النقود متجراً فإنه بذلك يدخل على الناس من الفساد ما لا يعلمه إلا الله بل الواجب أن تكون النقود رءوس أموال يتجر بها ولا يتجر فيها وإذا حرم السلطان سكة أو نقدا منع من الاختلاط بما أذن في المعاملة به ، ومعظم ولايته وقاعدتها الإنكار على هؤلاء الزغلية وأرباب الغش في المطاعم والمشارب والملابس وغيرها فإن هؤلاء يفسدون مصالح الأمة والضرر بهم عام لا يمكن الاحتراز منه فعليه ألا يهمل أمرهم وأن ينكل بهم وأمثالهم ولا يرفع عنهم عقوبته فإن البلية بهم عظيمة والمضرة بهم شاملة ولا سيما هؤلاء الكيماويين الذين يغشون النقود والجواهر والعطر والطيب وغيرها يضاهئون بزغلهم وغشهم خلق الله والله تعالى لم يخلق شيئا فيقدر العباد أن يخلقوا كخلقه ، قال تعالى فيما حكى عنه رسوله صلوات الله وسلامه عليه : (ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذرة فليخلقوا شعيرة) [متفق عليه : خ : اللباس (٥٩٥٣) ، م: اللباس والزينة (٢١١١) عن أبي هريرة] ولهذا كانت المصنوعات كالطبائخ والملابس والمساكن غير مخلوقة إلا بتوسط الناس وقال تعالى : { وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ(٤١)وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ(٤٢) } [يس] وقال تعالى : { قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ(٩٥)وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ(٩٦) } [الصافات] وكانت المخلوقات من المعادن والنبات والدواب غير مقدور لبني آدم أن يصنعوها لكن يشبهون بها على سبيل الغش وهذا حقيقة الكيمياء فإنها ذهبت مشبه . ويدخل في المنكرات ما نهى الله ورسوله من العقود المحرمة مثل عقود الربا صريحا واحتيالا وعقود الميسر كبيوع الغرر وكحبل الحبلة والملامسة والمنابذة والنجش وهو أن يزيد في السلعة من لا يريد شراءها وتصرية الدابة اللبون وسائر أنواع التدليس وكذلك سائر الحيل المحرمة على أكل الربا وهي ثلاثة أقسام : أحدها ما يكون من واحد كما إذا باعه سلعة بنسيئة ثم اشتراها منه بأقل من ثمنها نقدا حيل على الربا ، ومنها ما تكون

ثنائية وهي أن تكون من اثنين مثل أن يجمع إلى القرض بيعا أو إجارة أو مساقاة أو مزارعة ونحو ذلك وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لا يحل سلف وبيع ولا شرطان في بيع ولا ربح ما لم يضمن ولا بيع ما ليس عندك) [ت : البيوع (١٢٣٤) ، وقال حديث صحيح ، ن : البيوع (٤٦١١) ، د : البيوع (٣٠٤١) ، دارمي : البيوع (٢٤٤٧) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما] وفي سنن أبي داود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من باع بيعتين في بيعة فله أوكسها أو الربا) [د : البيوع (٣٠٠٢) ، ت : البيوع (١٢٣١) ، ن : البيوع (٤٦٣٢) ، أحمد : المكثرين (٩٢١٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه] ومنها ما تكون ثلاثية وهي أن يدخلا بينهما محللا للربا فيشتري السلعة من آكل الربا ثم يبيعها لمعطي الربا إلى أجل ثم يعيدها إلى صاحبها بنقص دراهم يستعيدها المحلل . وهذه المعاملات منها ما هو حرام بالاتفاق مثل التي يباع فيها المبيع قبل القبض الشرعي أو بغير الشرط الشرعي أو يقلب فيها الدين على المعسر فإن المعسر يجب إنظاره ولا تجوز الزيادة عليه بمعاملة ولا غيرها ومتى استحل المرابي قلب الدين وقال للمدين إما أن تقضي وإما أن تزيد في الدين والمدة فهو كافر يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل وأخذ ماله فيئا لبيت المال . فعلى والي الحسبة إنكار ذلك جميعه والنهي عنه وعقوبة فاعله ولا يتوقف ذلك على دعوى ومدعي عليه فإن ذلك من المنكرات التي يجب على ولي الأمر إنكارها والنهي عنها) [الطرق الحكمية – ص ٣٤٩ وما بعدها]

وعلى هذا فقد صنف العلماء المنكرات تبعا للوقائع والأحوال التي يتلبس بها أصحاب المنكرات وهو تصنيف عرفي إلى حقوق الناس الخالصة وهو ما يتوقف عليه دعوى ومطالبة بالحق ومجاله القضاء والمظالم . وحقوق عامة هي حق لله تعالى وهو ما لا يتوقف عليه دعوى خاصة وهي مجال الحسبة ومنها منكرات المساجد ، ومنكرات الأسواق ، ومنكرات الطرق ، ومنكرات الحمامات ، ومنكرات الضيافة ، ومنكرات الأعراس .. حتى ذكر صاحب نصاب الاحتساب خمسين بابا للمنكرات [انظر الطرق الحكمية ص ٢٤٠ والأحكام السلطانية ص ٢٥٥ ونصاب الاحتساب ص ٨٤]

وثمة ارتباط وثيق بين مجالات الحسبة ووجوب الاحتساب ، وممن جلى ذلك ابن تيمية قال – رحمه الله – : (ويجب على أولي الأمر وهم علماء كل طائفة وأمراؤها ومشائخها أن يقوموا على عامتهم ويأمروهم بالمعروف وينهوهم عن المنكر ، فيأمروهم بما أمر الله به ورسوله ، وينهونهم عما نهى الله عنه ورسوله صلى الله عليه وسلم فالأول – يعني المعروف – مثل شرائع الإسلام وهي الصلوات الخمس في مواقيتها وإقامة الجمعة والجماعات من الواجبات ، والسنن الرواتب كالأعياد وصلاة الكسوف والاستسقاء والتراويح وصلاة الجنائز وغير ذلك ، وكذلك الصدقات المشروعة والصوم المشروع وحج البيت الحرام ، ومثل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره

وشره ، ومثل الإحسان وهو أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فإنه يراك ، ومثل سائر ما أمر الله به ورسوله من الأمور الباطنة والظاهرة ومثل إخلاص الدين لله والتوكل عليه وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما والرجاء لرحمة الله والخشية من عذابه ، والصبر لحكم الله والتسليم لأمر الله ومثل صدق الحديث والوفاء بالعهود وأداء الأمانات إلى أهلها وبر الوالدين وصلة الأرحام والتعاون على البر والتقوى ، والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والصاحب والزوجة والمملوك ، والعدل في المقام والفعال ، ثم الندب إلى مكارم الأخلاق مثل : أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك قال الله تعالى : {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(٤٠)وَلَمَنْ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ(٤١)إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٤٢)وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ(٤٣)} [الشورى] وأما المنكر الذي نهى الله عنه ورسوله فأعظمه الشرك بالله وهو أن يدعو مع الله إلها آخر إما الشمس وإما القمر أو الكواكب، أو ملكا من الملائكة أو نبيا من الأنبياء أو رجلا من الصالحين أو أحدا من الجن أو تماثيل هؤلاء أو قبورهم أو غير ذلك مما يدعى من دون الله تعالى أو يستغاث به أو يسجد له فكل هذا وأشباهه من الشرك الذي حرمه الله على لسان جميع رسله) واستطرد رحمه الله في ذكر المنكرات فذكر مقولات أهل الكلام والعبادات المبتدعة وسماع اللهو والغناء .. الخ [راجع مجموع الفتاوى ٣/ ٤٢٣ - ٤٣٠]

ومما سبق يتبين شمول الموضوعات التي يتناولها الاحتساب من حيث الأصل ، فينبغي تغيير المنكرات كلها ما يتصل منها بالعقيدة أو ما له صلة بالشريعة والأخلاق والآداب .

مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

يُقصد بمراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (آلية التطبيق) التي بها يكون الأمر بالمعروف وتغيير المنكر والنهي عنه ، وكل أمر بمعروف فهو نهي عن منكر . ولنسق نبذة عن مراتب المعروف ودرجاته ، يليها نبذة عن دركات المنكر .

مراتب المعروف المأمور به :

يتنوع الأمر في الشرع ويتفاوت على درجات ،ومعرفة ذلك على وجه الإجمال والتفصيل مما يحسن بالمحتسب الوقوف عليه والإلمام به فأول ذلك :

١- الفريضة أو الفرض : ويسميه بعض الأصوليين الواجب ، وهو (طلب الفعل على وجه الجزم) كصيغة {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ(٤٣) } [البقرة] على خلاف بين الأصوليين أيثبت الفرض بدليل قطعي أم ظني ؟ والجزم هو القطع ، أي طلب الفعل على وجه القطع المقتضي للوعيد على الترك ، وتنقسم مرتبة الفرض إلى :

أ) فرض عيني : وهو ما يجب على كل مسلم مكلف بعينه كالصلوات الخمس وصوم رمضان ، والزكاة إذا ملك النصاب وحال عليه الحول ، والحج إن استطاع عليه سبيلا ، وبر الوالدين ، والجمعة والجماعة على الرجال المكلفين ، ورد السلام ونحو ذلك .

ب) فرض كفائي : وهو ما إن قام به البعض سقط الحكم عن الباقين كالجهاد في سبيل الله ، والدعوة إلى الله ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وغسل الميت ودفنه ، وحفظ القرآن ، وفرض الكفاية واجب على جميع الأمة عند جمهور العلماء فإذا قام به بعضهم سقط عن الآخرين.

٢- المستحب : وهو عند بعض الفقهاء المندوب أو المسنون ، وهو (طلب الفعل طلبا غير جازم) كصيغة { وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ } [البقرة : ٢٨٢] وقيل في حده : (ما أثيب فاعله ولم يعاقب تاركه) و ينقسم على رأي الجمهور إلى سنة مؤكدة كالسواك وركعتي الفجر ، والسنن الرواتب ، وسنة غير مؤكدة كصوم النفل مطلقا ، وعامة النوافل .

٣- المباح : وهو المعلن يقال باح أي ظهر وعلن ، وفي اصطلاح أهل الشرع (ما خلا من مدح أو ذم) والمباح هو الأصل في العادات إلا أن يرد دليل بحظره وعلى الداعي والمحتسب الإلمام بعد هذا بمتعلقات الأمر ، ومنها :

- الأمر الذي يقتضي الفورية كالصلوات الخمس وصوم رمضان وأداء الدين والودائع على من كان مليئا ، و الأمر الذي يقتضي التراخي كالحج على رأي بعض الفقهاء الذين أفتوا بتقديم الزواج على الحج إن خشي العنت على نفسه ، والأمر الذي فيه تفصيل .

- الأمر الذي يجب مرة والذي يتكرر، فمما يجب مرة في العمر الحج والعمرة ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما : (أيها الناس كتب عليكم الحج) فقام الأقرع بن حابس فقال : في كل عام يا رسول الله ؟ قال : (لو قلتها لوجبت ولو وجبت لم تعملوا بها أو لم تستطيعوا أن تعملوا بها ، فمن زاد فهو تطوع) [د : المناسك (١٧٢١) ، ما : المناسك (٢٨٨٦) ، س : مناسك الحج (٢٦٢٠) ، دارمي : المناسك (١٧٢٢) ، أحمد : بني هاشم (٢١٩٠) واللفظ له ، وله شاهد في الصحيحين أنظر م : (١٢١٦)]

والأمر الذي يتكرر كل يوم كالصلاة المفروضة والتطهر لها والذي يتكرر كل أسبوع كصلاة الجمعة والغسل لها وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : (غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم وسواك وأن يمس من الطيب ما قدر عليه) [متفق عليه : خ : الجمعة (٨٧٩) ، م : الجمعة (٨٤٦) واللفظ له]

والذي يتكرر كل شهر كختم القرآن ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : (اقرأ القرآن في شهر) قال إني أجد قوة . قال (فاقرأه في عشرين ليلة) قال إني أجد قوة قال : (فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك) [متفق عليه : خ : الصوم (١٩٧٨) ، م : الصيام (١١٥٩) واللفظ له]

والذي يتكرر كل عام كصوم رمضان ..

– الأمر الذي هو من أعمال القلوب والذي هو من أعمال الجوارح ، فالأول النية وتوخي الإخلاص في الطاعات ، والثاني كعامة الطاعات والقربات. وللأمر متعلقات أخرى يجدر بالمحتسب الوقوف عليها والإلمام بها كمعرفة الناسخ والمنسوخ والعام والخاص والمطلق والمقيد والمضيق والموسع والمعين والموسع وقد بسطها علماء الأصول فيرجع إلى مظانها [راجع الموافقات للشاطبي (فصل الأوامر والنواهي ٧١/٣ والمستصفى من علم الأصول (أقسام الأحكام) ٦٥/١]

دركات المنكر :

المنكر خلاف المعروف ، وأصل المنكر ما أنكره الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ورأى أهل الإيمان قبيحا فعله ، والمنكر عند عامة الفقهاء (كل ما حرمه الشرع أو قبحه أو كرهه) وقبل (كل ما ليس فيه رضى الله تعالى من قول أو فعل) وعند أبي حامد الغزالي (كل محذور الوقوع شرعا) وقيل (كل قصد أو قول أو فعل قبحه الشارع ونهى عنه) وترتيب الحديث هنا عن تفاوت المنكرات في القبح وهو ما يسميه البعض بمراتب النهي عن المنكر وتمثل الجانب العلمي النظري للحسبة ، ثم يليه الحديث عن كيفية تغيير المنكرات وهو ما يسميه البعض بمراتب تغيير المنكر وتمثل الجانب العملي التطبيقي .

والمنكرات دركات كما في قوله تعالى: { إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا } [النساء : ٣١] فذكر أن منها كبائر ومنها ما هو دون ذلك ، وتتلخص مراتب المنكر في (المحرم ، والمكروه):

أما المحرم : فهو ضد الواجب ولذا قالوا (ما ذم فاعله ولو قولاً) والمحرمات كثيرة منها ما هو معلوم من الدين بالضرورة لا يعذر مسلم بجهله إياها ، كحرمة الشرك بالله تعالى وهو اكبر الكبائر

وأخطر الجرائم وأنكر المنكرات ، ومنها الخمر والخنزير والزنا وقتل النفس بغير حق وأكل أموال الناس بغير حق وبعض المحرمات أغلظ من بعض وأشنع .

وأما المكروه : فضد المحبوب وفي الشرع (ما مدح تاركه ولم يذم فاعله) وعند بعضهم (ترك الأولى) وهو عند المتأخرين نوعان : المكروه كراهة تنزيهية كإدمان اللحم والنفخ في الطعام ، وكراهة تحريمية ، ويرد في كلام الإمام أحمد اصطلاح المكروه على الحرام وهو مأخوذ من اصطلاح القرآن العظيم في قوله تعالى بعد أن ذكر الشرك وعقوق الوالدين وقطيعة الرحم والتبذير وقتل الأولاد خشية إملاق والزنا وقتل النفس بغير حق واكل مال اليتيم وتطفيف المكاييل والموازين والكذب والتكبر : { كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا(٣٨) } [الإسراء]

وللمنكرات متعلقات ، منها :

– المحرم لذاته كالخمر والميسر ، والمحرم لعارض كمحظورات الإحرام .

– المنكرات الصادرة من مكلف وهو المسلم البالغ العاقل والصادرة من غير المكلف كالصبي والمجنون .

– المنكرات التي توجب حدا شرعيا كالقتل والزنا وشرب المسكر وتناول المخدر والقذف والسرقة ، والتي توجب تعزيرا ، والتي تستوجب نصحا فقط ، وأيضا المنكرات التي فيها جناية على النفس والتي فيها جناية على الأعراض والتي فيها جناية على الأموال .

والحسبة تتطلب فقهاً في الدين وتبصراً في مسالك الاحتساب ودقة في فهم مقاصد الشريعة وبصرا في وقائع الحياة ومجرياتها ، وتقصير المحتسب أو الداعي في شيء من ذلك يعود عليه بالوبال وقد يرتكب المحتسب بتقصيره منكرا يجب تغييره !

مراتب تغيير المنكر :

باستقراء جملة من نصوص الكتاب والسنة يتبين أن مراتب تغيير المنكر سبع ، ينبغي مراعاة التدرج فيها فلا يصار إلى مرتبة منها مع إمكان الاحتساب بالمرتبة التي دونها ، فمتى تم تغيير المنكر بأقل تكلفة ومن أقرب طريق وبأيسر سبيل كان تجاوز ذلك من الشطط والمنكر ، ولابد أن يسبق مراتب تغيير المنكر علم بالحكم الشرعي من جهة الحل والوجوب والاستحباب ، أو الحرمة والكراهة على نحو ما سبق كي تكون الحسبة على بصيرة وتكون ذات جدوى .

ومراتب تغيير المنكر إجمالا سبعة :

١- التعريف بالمنكر .
٢- الوعظ والتخويف بالله عز وجل .
٣- التقريع والتعنيف بالقول .
٤- التغيير باليد .
٥- التهديد بما يقدر عليه .
٦- الضرب من غير سلاح .
٧- إشهار السلاح والقتال والاستعانة بالجنود .

ولكل مرتبة من هذه المراتب ضوابط وحدود وآداب ، ومراعاة التدرج فيها واجب وهو متروك لتقدير المحتسب وكياسته وفطنته ووقوفه على ما يكتنف المنكر من ملابسات .

وإليك الآن ملخص المراتب مع الأدلة والأمثلة وبالله التوفيق .

المرتبة الأولى - التعريف بالمنكر :

لا يقدم على ارتكاب المنكر - في الغالب - إلا جاهل أو ضعيف الإيمان ركيك الديانة ، فالأول يعلّم برفق وأناة ، والآخر يذكّر ويناصح ، ومن الأمثلة على مرتبة التعريف بالمنكر وتعليم الصواب والتنبيه على الخطأ بلطف ورفق : قصة الأعرابي الذي بال في المسجد وقد وردت في كتب السنة بروايات متعددة ، وفي كل منها فائدة تستنبط وعبرة تستخرج ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قام أعرابي فبال في المسجد فتناوله الناس ، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم :(دعوه وهريقوا على بوله سجلا من ماء أو ذنوبا من ماء ، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين) وفي لفظ لمسلم : (دعوه ولا تزرموه) والازرام : القطع والمعني : لا تقطعوا بوله ! وعند مسلم أيضا : ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه فقال : (إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر إنما هي لذكر الله عز وجل والصلاة وقراءة القرآن) [متفق عليه : خ : الوضوء (٢٢٠) ، م : الطهارة (٢٨٤)]

ويستنبط من الحديث من فقه تغيير المنكر ما يأتي :-

أ) أن الجاهل يعرّف بالمنكر في رفق ولين بالكلمة الطيبة والوجه البشوش ما دام غير مستخف ولا معاند تأليفا لقلبه ووقايته من داء الكبر والجحود ، قال النووي : (وفيه الرفق بالجاهل وتعليمه ما يلزمه من غير تعنيف ولا إيذاء إذا لم يأت بالمخالفة استخفافا أو عنادا) [شرح النووي لصحيح مسلم الموضع المذكور .] وهذا الأعرابي جاهل بالحكم وجاهل بكثير من آداب الإسلام يدل عليه رواية الإمام أحمد والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه وفيها : (دخل أعرابي المسجد فصلى ركعتين

ثم قال : اللهم ارحمني ومحمدا ولا ترحم معنا أحدا ، فالتفت إليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال : لقد تحجرت واسعا ثم لم يلبث أن بال في المسجد) [خ : الأدب (٦٠١٠) ، د : الصلاة (٨٨٢) ، ت : الطهارة (١٤٧) ، س : السهو (١٢١٦) ، ابن ماجه : الطهارة (٥٢٩) ، أحمد : المكثرين (٦٩٥٧)]

بـــ) وأن الذين يعدلون عن الرفق واللين لغير حاجة بل جفاء منهم وسوء فهـــم يجـــب تعـــريفهم بالطريق القويم والمنهج النبوي في الدعوة لأن عدولهم هذا يعد منكراً كمنكر الأعرابي الـــذي بـــال في المسجد ! ولهذا علّم النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة رضوان الله عليهم الذين تنـــاولوا الأعـــرابي وغضبوا من فعله القبيح كما في رواية البخاري الأخرى في كتاب الأدب وفيها (فثـــار إليـــه النـــاس ليقعوا به) [خ : الأدب (٦١٢٨)] وفي رواية الترمذي (فأسرع إليه الناس) [ت : الطهارة (١٤٧)]

وقال لهم : (دعوه لاتزرموه) [متفق عليه : خ : الأدب (٦٠٢٥) ، م : الطهارة (٢٨٤)]

جـــ) أن الأصل في الدعوة إلى الله ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التيســـير والتبشـــير لا التعسير ولا التنفير ، وهذا مقصد من مقاصد الشريعة المطهرة قال الله تعالى : { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْـــرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ} [البقرة : ١٨٥] وقال النبي صلى الله عليه وسلم للصحابة كما في الحـــديث : (إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين) ، وكم من آمر ناه سلك طريق الفظاظة في تغيير المنكـــر فنفـــر الناس وكان لبعضهم فتنة ، وهو يظن أنه يحسن صنعا !

هذا وكثيرًا ما يقترن النهي عن المنكر بالتعليم والتعريف لاسيما إن كان الواقع في المنكـــر جـــاهلا بالحكم ومن الأمثلة عليه غير ما تقدم : حديث المسيء صلاته من رواية أبي هريرة رضي الله عنـــه : (أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فدخل رجل فصلّى ثم جاء فسلّم على النبي صلى الله عليه وسلم ، فرد النبي صلى الله عليه وسلم عليه السلام فقال : (ارجع فصل فإنك لم تصـــل) فصـــلّى ثم جاء فسلّم على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (ارجع فصل فإنك لم تصلّ) [ثلاثـــا] فقـــال : والذي بعثك بالحق فما أحسن غيره فعلّمني . قال : (إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ، ثم اركع حتى تطمئن راكعا ، ثم ارفع حتى تعتدل قائما ، ثم اسجد حتى تطمئن ســـاجداً ، ثم ارفع حتى تطمئن جالسا ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها) [متفـــق عليه : خ : الأذان (٧٩٣) ، م : الصلاة (٣٩٧)]

– مثال آخر : عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على صبرة طعام – أي كومة – فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا فقال : (ما هذا يا صاحب الطعـــام ؟) قـــال : أصابته السماء يا رسول الله قال : (أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس ؟ من غش فلـــيس مـــني)

وفي رواية لمسلم : (من غشنا فليس منا) [م : الإيمان (١٠١) ، د : البيوع والأجارات (٣٤٥٢) ، ت : البيوع (١٣١٥) وقال حسن صحيح ، ماجة : التجارات (٢٢٢٤) ، أحمد : مسند المكثرين من الصحابة (٦٩٩١)]

وفي هذا الحديث الشريف جمع صلى الله عليه وسلم بين أسلوب التعريف بالمنكر وذلك في قوله (أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس) وبين أسلوب الوعظ البليغ في قوله (من غش فليس منا) وذلك مما اقتضاه الحال ، ولأن الغش في البيوع وغيرها مما تعم به البلوى خاصة بين التجار والباعة الذين يغلب على كثير منهم الجهل بأحكام البيوع مع ضعف الوازع الديني .

– مثال آخر : عن قيس بن أبي غرزة قال كنا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم نسمى السماسرة ، فمر بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمانا باسم هو أحسن منه فقال : (يا معشر التجار إن البيع يحضره اللغو والحلف فشوبوه بالصدقة) [أصحاب السنن : د : البيوع (٣٣٢٦) ، ت : البيوع (١٢١٠) وقال حسن صحيح ، س : الأيمان والنذور (٣٧٩٧) ، ما : التجارات (٢١٤٦) ، دارمي : البيوع (٢٤٢٦)]

وتتجلى هنا التوجيهات النبوية الجليلة في تغيير الاسم إلى ما هو أحسن وللاسم الحسن أثره النفسي والاجتماعي في المسمّى ، وأيضا أرشدهم إلى أن يشوبوا بيوعهم بالصدقة لتكون كفارة لخطايا اللغو والحلف وقلّ أن تجد تاجرا لا يحلف أو يلغو ، وأما الحلف الكاذب فكبيرة كما سيأتي و لابد لها من التوبة النصوح .

– مثال آخر : عن حمزة بن أبي أسيد الأنصاري (مالك بن ربيعة) رضي الله عنهما عن أبيه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول وهو خارج من المسجد وقد اختلط الرجال بالنساء في الطرق ، قال صلى الله عليه وسلم للنساء : (استأخرن فإنه ليس لكن أن تحققن الطريق – أي ليس لكن السير في وسط الطريق – عليكن بحافات الطريق) قال : فكانت المرأة تلتصق بالجدار حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها به) [د : الأدب (٥٢٧٢) ، المعجم الكبير ١٩ / ٢٦١ ،]

وهذا الحديث من جملة الأحاديث التي تعرف المرأة المسلمة بآداب دينها وأخلاقه كي تنأى بنفسها عن مواقع العطب وحتى لا تتعرض لفتنة أو تعرض غيرها لذلك ، وما أكثر المنكرات التي تكون المرأة طرفا فيها ،كالتبرج والاختلاط بالرجال الأجانب وتحتاج إلى تعرف بالحق وتبصير بأحكام الدين وتنوير بأخلاق المسلمين المتقين .

وجدير بالتنويه بالرفق واللين واللطف في مرتبة التعريف بالمنكر ، لاحتياج النفس البشرية إلى ذلك ، فهي بطبيعة تكوينها عزيزة منيعة يصعب الولوج إليها إلا من الباب وهو اللين واللطف ، وذكر بعض المفكرين تحليلاً بارعاً للنفس الإنسانية حين تتلبس بالجهل وأبان عن حاجتها إلى اللين فقال : (يجب تعريف الجاهل باللطف من غير عنف وذلك لأن في ضمن التعريف نسبة إلى الجهل والحمق !

والتجهيل إيذاء وقلما يرضى الإنسان بأن يُنسب إلى الجهل بالأمور لاسيما الشرع ، ولـذلك تـرى الذي يغلب عليه الغضب كيف يغضب إذا نبه على الخطأ والجهل ، وكيف يجتهد في مجاحدة الحق بعد معرفته خيفة أن تنكشف عورة جهله !) [إحياء علوم الدين ٤٥/٧]

والداعي اللبيب من يستطيع تعليم المدعو وتبصيره وتقويمه وتهذيب سلوكه دون مساس بكرامتـه أو جرح لمشاعره ، وهذا من دقائق الحكمة في الدعوة مما يغفل عنها كثير من الدعاة الذين تغلب على طبائعهم العجلة والطيش وقلة الوعي لرامي هذا الدين الحنيف ومقاصده .

المرتبة الثانية – الوعظ والتخويف بالله :

الوعظ: زجر مقترن بتخويف ، وقالوا : هو تذكير بالخير فيما يرق له القلب ، والعظـة والموعظـة الاسم قال تعال : { يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(٩٠)} [النحل] [انظر مفردات القرآن (كتاب الواو) ص ٥٢٧] ومن خصائص الوعظ أنه يجمع بين الأمر والنهي وبين التذكير بهما أو بأحدهما قال الله تعـالى : { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُـمْ لَعَلَّكُـمْ تَذَكَّرُونَ(٩٠)} [النحـل] وهذا ما يسمى بأسلوب الترغيب والترهيب وذكر الوعد والوعيد وهو باب عظيم من أبواب الدعوة إلى الله تعالى حتى صنفت فيه أسـفار مفـردة كالترغيـب والترهيـب للمنذري.

ومرتبة الوعظ لمن يقدم على المنكر و يغلب على الظن أنه يعرف أنه يرتكب معصية ومن يصر على المنكرات ، والعمدة في أسلوب الموعظة قول الحق جل ذكره : { ادْعُ إِلَى سَـبِيلِ رَبِّـكَ بِالْحِكْمَـةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَـبِيلِهِ وَهُـوَ أَعْلَـمُ بِالْمُهْتَدِينَ(١٢٥)} [النحل] فنوه بأسلوب الموعظة وأرشد إلى أن تكون (حسنة) وهي التي تتضـمن النصح وإرادة النفع ، والتذكير بالله وبيوم الحساب على وجه الإشفاق .

ولا ينتفع بأسلوب الوعظ في الأصل إلا مؤمن يخاف الله تعالى ويؤمن بوعده ووعيده قال الله تعالى : { إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ (١٨)} [فـاطر] وقال : { فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ(٤٥)} [ق] وقال : { وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ(٥٥)} [الـذاريات] وقـد يحصل بالتذكير نفع عام .

– ومن مواعظ القرآن العظيم في شأن الشرك والمشركين قوله تبـارك وتعـالى :{ هَـذَا يَـوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ(٢١)احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ(٢٢)مِـنْ دُونِ

اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ(٢٣)وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ(٢٤)مَا لَكُمْ لَا يَتَنَاصَرُونَ(٢٥)بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ(٢٦)وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ(٢٧)قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنْ الْيَمِينِ(٢٨)قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ(٢٩)} [الصافات]

وفي هذه الآيات البينات حال المشركين وسوء مآلهم وكيف أن أعمالهم في ضلال ومنقلبهم إلى النار ويوم القيامة يتبرأ الأتباع من المتبوعين وهي عاقبة كل من أشرك بعبادة ربه وكذب المرسلين وعتا وتجبر واستكبر عن قبول الحق والاستجابة لدعوته والإيمان بالله وبيوم المعاد.

– ومن مواعظ القرآن العظيم قول الباري جل ذكره : { لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ(١٥)فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ(١٦)ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ(١٧)وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ(١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ(١٩) } [سبأ] وفي الآيات البينات عبر ماثلات وعظات بالغات تقرر أن المنعم جل ذكره من حقه أن يعبد فلا يكفر ، وإن يشكر فلا يجحد ، فإنّ الشكر يزيد في النعمة والكفر والجحود يذهبها ويطمسها ، وأهل سبأ كانوا في رغد من العيش وأمن وارف وقوة وحضارة لكنهم جحدوا هذه النعم ولم يشكروها فدمرهم الله ومزقهم كل ممزق وجعلهم عبرة للمعتبرين وعظة للمتعظين .

– ومن مواعظ القرآن العظيم قوله تعالى عن أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم وبيان سبب دخولهم فيها : { كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(٣٨)إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ(٣٩)فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ(٤٠)عَنْ الْمُجْرِمِينَ(٤١)مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ(٤٢)قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ(٤٣)وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ(٤٤)وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ(٤٥)وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ(٤٦)حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ(٤٧)فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ(٤٨)} [المدثر]

– وفي أحوال أهل الجنة وأهل النار قوله تعالى : { ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ(٣٢)جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ(٣٣)وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ(٣٤)الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ(٣٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ(٣٦)وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ

الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ(٣٧)} [فاطر : ٣٢ - ٣٧] وهكذا يرد السياق القرآني الجليل قارنا بين طريق الخير وطريق الشر مع بيان حال ومآل كل من الأخيار الأبرار ، والأشرار الفجار ،حال أهل الجنة وحال أهل النار ليحصل بذلك التبشير والإنذار والترغيب والترهيب وليختار الإنسان لنفسه ما شاء { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ(٤٦)} [فصلت]

- ومن مواعظ النبي ﷺ : ما رواه أبو ذر رضي الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة : المنان الذي لا يعطي شيئا إلا منة ، والمنفق سلعته بالحلف الفاجر ، والمسبل إزاره) [م : الإيمان (١٠٦)] وفي هذا إنذار وتخويف بالله تعالى لمرتكبي هذه الكبائر، ومنكراتهم بالغة الشناعة لتضمنها احتقار الناس والكذب والغش .

- وفي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من حمل علينا السلاح فليس منا) [متفق عليه : خ : الديات (٦٨٧٤) ، م : الإيمان (٩٨)] وفيه وعيد شديد لمن استهان بحرمات المسلمين وبث الفتن بينهم أو بذر بذورها أو مالأ على ذلك كما لا يخفى .

- وفي وعظ الدعاة وطلبة العلم وأئمة المساجد ونحوهم الذين قد يغفلون عن دقائق أمور الدعوة عن حسن قصد فيشقون على من خلفهم من المصلين والمأتمين ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : أقبل رجل بناضحين وقد جنح الليل فوافق معاذا يصلي فترك ناضحه وأقبل إلى معاذ فقرأ بسورة البقرة أو النساء فانطلق الرجل ، وبلغه أن معاذا نال منه فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فشكا إليه معاذا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (يا معاذ أفتان أنت) ثلاث مرات (فلولا صليت بسبح اسم ربك ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى ، فإنه يصلي وراءك الكبير والضعيف وذو الحاجة) [متفق عليه :خ : الأذان (٧٠٥) ، م : الصلاة (٤٦٥)]

ومن فقه الدعوة في الحديث الشريف : أن أحكام الإسلام وآدابه وجملة ما جاء به الدين الحنيف إنما يؤخذ من الكتاب والسنة لا من واقع المسلمين وإن كانوا من طلبة العلم والدعاة إلى الله ، لأنهم ليسوا بمعصومين ، وأن طلبة العلم وأمثالهم من أئمة المساجد والدعاة إلى الله تعالى عليهم التمسك بالدين الحنيف قولا وفعلا وعلما وعملا كي لا يفتنوا الناس ولذا يراعى في الدعاة مالا يراعى في غيرهم لأنهم موضع قدوة ومحل أسوة ، وقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم معاذا إلى اليمن داعيا ، ثم هو من الفقهاء وقد قال فيه (أعلمكم بالحلال والحرام معاذ) [ت : المناقب (٣٩٠٠) وقال حسن غريب ، ماجة : المقدمة (١٥٥) ، أحمد : المكثرين (١٢٤٣٧)] رضي الله عنه وأرضاه .

ومن فقه الدعوة في الحديث أن الأصل في الدعوة الرفق والتيسير والتبشير ، سواء في مضمون الدعوة أو في طريقة العرض والنصح أو في منهج التطبيق ، فدين الله عز وجل يسر ورحمة وليس العنف والتشديد والتنطع من مقاصد الدين ولا مما يرضاه الله عز وجل ، وأن على الدعاة أن يدركوا ذلك ويعوه .

– ومن الأحوال ما تتطلب موعظة قولية وفعلية معا كي يحصل الزجر، ومن صورها ما في الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه رأى صورة في البيت فرجع ، وروى – كذلك – أن ابن عمر رضي الله عنهما دعا أبا أيوب فرأى في البيت سترا على الجدار ، فقال ابن عمر : غلبنا عليه النساء ! فقال : من كنت أخشى عليه ، فلم أكن أخشى عليك ، والله لا أطعم لكم طعاما فرجع ! [رواه البخاري في باب : هل يرجع إذا رأى منكرا في الدعوة من كتاب النكاح في صحيحه ٩ / ٢٤٩]

وعلى هذا فلا يجوز للمسلم أن يحضر الأماكن التي يشهد فيها المنكرات ولا يمكنه الإنكار إلا لموجب شرعي مثل أن يكون هناك أمر يحتاج إليه لمصلحة دينه أو دنياه لابد فيه من حضوره أو يكون مكرها كما ذكره فقهاء الإسلام [انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية رحمه الله ٢٨ /٢٣٩]

ومن الموعظة التأديبية (هجر العصاة) حتى يتوبوا أو يثوبوا ، كالمبتدعة وأرباب المنكرات المصرين عليها كما سيأتي في أساليب دعوة العصاة في الجزء الثاني إن شاء الله .

هذا وعوداً على بدء فإن الموعظة من الأهمية بمكان يدل عليه كثرة النصوص التي تضمنته من الكتاب والسنة وحسبنا أن الله تعالى وعظ المؤمنين في غير ما آية من القرآن الكريم .

آداب المواعظ :

ثمة آداب وأخلاق ينبغي للمحتسب والداعي إلى الله التحلي بها ، من أهمها :

١– تصحيح النية وتوخي الإخلاص وسلامة القصد في الوعظ ، فيعظ ابتغاء وجه الله ، ولا يعظ ليظهر علمه وتفوقه أو لإظهار عيوب الناس وجهلهم أو النيل منهم وتنقصهم فإن هذه الخسائس تحبط العمل وتذهب الأجر وتورث الوزر ، ومقام الوعظ مقام جليل ينبغي صيانته من أمراض النفس وأهوائها والإنسان محاسب على نياته ومقاصده قبل أن يحاسب على ظاهر عمله وفي الحديث النبوي الشريف : (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى) [متفق عليه : خ : بدء الوحي (١) ، م : الإمارة (١٩٠٧) وهو جزء حديث]

هذا وثمة آفة عظيمة ينبغي أن يتوقاها المسلم فإنها مهلكة وهي : (أن العالم قد يرى عند التعريف بالمنكر عز نفسه بالعلم وذل غيره بالجهل ! فربما يقصد بالتعليم الإذلال وإظهار التميز بشرف العلم وإذلال صاحبه بنسبته إلى خسة الجهل ، فإن كان الباعث هذا فهذا المنكر أقبح في نفسه من المنكر

الذي يعترض عليه ، ومثال هذا المحتسب مثال من يخلص غيره من النار بإحراق نفسه وهو غاية الجهل) [إحياء علوم الدين ٧ / ٤٦ ويؤخذ من هذا الكتاب ما هو نافع ويترك ما ليس كذلك لا سيما الأحاديث الضعيفة .]

٢ – تجنب التعيير والتشهير : غرض الداعي إلى الله الإصلاح كما قال نبي الله شعيب عليه السلام { إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ(٨٨)} [هود] والقاعدة في الإصلاح أنه لا يتحقق ولا يؤتي ثماره إلا بالرفق والأناة ، فمتى وعظ على ملأ لغير مصلحة شرعية فقد عير وشهّر ، وفرق بين النصيحة والتعيير فالأولى بنّاءة والأخرى هدامة ، ولقد كان من هدي النبي صلى الله عليه وسلم أنه إذا وعظ على ملأ عمّ ، ولم يخص صاحب المنكر بالذكر لا فردا ولا جماعة ، فكان يقول : ما بال أقوام فعلوا كذا أو بلغني عنهم كذا مع أن المعني قد يكون فردا أو أفرادا معدودين ، لأن التعميم يتحقق به التنبيه على الخطأ ويوقع الوعظ موقعه المثمر دون جرح أو إثارة شر أو إحراج أو تنفير فمن انصح ووعظ على ملأ وسمى أو شهّر فقد ارتكب منكرا وجب أن ينهى عنه ، لاسيما إن كان المنصوح أو الموعوظ من ولاة الأمر الذين أمرنا بطاعتهم وتوقيرهم ولو ظلموا وجاروا ما أقاموا الصلاة كما هو مذهب أهل السنة والجماعة خلافا للمبتدعة كالخوارج وعامة المعتزلة الذين يجيزون الخروج على الأئمة لمجرد الفسق أو الجور .

٣ – تحري الصحيح الثابت من المواعظ : من القرآن الكريم والسنة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين من القصص والأمثال والوعد والوعيد والترغيب والترهيب ففي ذلك غنية عن الأحاديث الموضوعة المكذوبة والقصص الخيالية التي وضعها الوضاعون وسقطة القصاصين على اختلاف العصور لقصد الوعظ ، ولأن الوعظ في جوهره إنما هو إخبار عن الله تعالى وعن رسوله صلى الله عليه وسلم ، وذلك سبيله التوقيف لا الرأي ولا الاجتهاد قال تعالى : { اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ } [الأنعام : ١٠٦] وقال النبي صلوات الله وتسليماته عليه من رواية أبي هريرة رضي الله عنه : (من كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار) [متفق عليه : خ : العلم (١١٠) ، م : المقدمة (٣)]

٤ – تحري الأحوال الملائمة : ويتحقق ذلك بأمرين أولهما تحري الوقت المناسب لإيقاع الوعظ ، والثاني تحري حال الموعوظ ومدى تقبله للوعظ إذ لا يتقبل الناس ما يقال لهم وهم مشغولو البال ولا وهم في منأى عن روح المواعظ .. وهذه أمور يقدرها الدعاة باعتبارات الظروف والبيئة ونحو ذلك والحكمة تقتضي تأخير الوعظ لحين تهيؤ أحواله إلا أن تفوت مصلحة شرعية [انظر للمؤلف النصيحة شروطها وآدابها]

قال البخاري في كتاب العلم : باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولهم بالموعظة والعلم ، وأورد فيه قول ابن مسعود رضي الله عنه : (كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا) [متفق عليه : خ : العلم (٦٨) واللفظ له ، م : صفة القيامة (٢٨٢١)]

فلا يكرر الموعظة كل يوم أو كلما مر على صاحب المنكر أو كلما رآه وليدع له بالصلاح والاستقامة بظهر الغيب فان للمسلم على أخيه المسلم حقا عظيما ، ولا يذكره عند أحد بسوء لغير مطلب شرعي فيصير مغتابا له لا ناصحا ولا واعظا ..

المرتبة الثالثة – التقريع والتعنيف : وهو للمعاندين والمصرين على المعاصي والمنكرات ، وتلي مرتبة التعنيف مرتبة الوعظ والتخويف بالله عز وجل فمن وعظ فلم يتعظ وذكر فلم يتذكر قرع وعنف فإن ما به من علة مستمكنة لا يجدي معها إلا هزّه هزاً ! ولقد أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أن يغلظ لأهل النفاق والشقاق فقال : { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدْ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(٧٣) } [التوبة] ، [التحريم : ٩]

ومن أمثلة التقريع والتعنيف قول الباري جل ذكره على لسان إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام أنه قال لقومه عبدة الأصنام : { أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ(٦٧)} [الأنبياء] والتأفف كلمة التضجر وإبداء الغضب فهو من التعنيف والتشنيع والزجر

– وقال تعالى في قصة لوط عليه السلام أنه قرع قومه وشنع عليهم منكرهم قائلا لهم:{ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ الْعَالَمِينَ(٨٠)} [الأعراف]

وقال : { أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ(٥٤)} [النمل] والفاحشة في حد ذاتها مستقبحة ووصمهم بها على وجه التقريع إيقاظ لضمائرهم الميتة وعقولهم المتحجرة وقال : { أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ(٥٥) } [النمل] وفي هذا موعظة بليغة وإنكار وتوبيخ علّ فطرهم تستقيم أو عقولهم تستنير لكنهم نكسوا على أعقابهم وقابلوا نبي الله بأقبح مقال إذ كان بهم داء عضال ! فأخذهم العذاب .

– ومن السنة النبوية ما في الصحيحين عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت : جاءت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله إن لي ابنة عريسا أصابتها حصبة فتمرق شعرها – يعني تساقط – أفأصله ؟ قال : (لعن الله الواصلة والمستوصلة) [متفق عليه : خ : اللباس (٥٩٤١) ، م : اللباس (٢١٢٢)] وكان يكفي للجواب على سؤال السائلة في غير أسلوب التقريع أن يقال : لا . لا

تصلي شعرها ، أو لا يجوز وصل الشعر ، أو لا تفعلي فإنه منهي عنه ونحو ذلك من الأقوال المفيدة للحظر ، لكنه لشناعة هذا الفعل وما فيه من غش وتغرير ولبس أورد اللعن ليكون أوقع في النفس وأبلغ في ردع من يرتكبون هذا المنكر ، ويقاس على وصل الشعر ما انتشر في زماننا ما يسمى بالباروكة .

– ومثال آخر ما في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال :(لعن الله الواشمات والمستوشمات والنامصات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات لخلق الله ومالي لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم) [متفق عليه : خ : التفسير (٤٨٨٦) ، م : اللباس (٢١٢٥)]

قال ابن منظور في اللسان الوشم : ما تجعله المرأة على ذراعها بالإبرة ثم تحشوه بالنؤور وهو دخان الشحم ، والنامصة : التي تزين النساء بالنمص وهو : نتف شعر الوجه ، والمتنمصة هي : التي تفعل ذلك بنفسها ، والمتفلجات للحسن : المباعدات بين الأسنان ، وفي التهذيب : الفلج في الأسنان : تباعد ما بين الثنايا والرباعيات خلقة فان تكلف فهو التفليج اهـ

ومن الآداب التي ينبغي أن يتقيد بها المحتسب في أسلوب التقريع والتعنيف :

أ – اجتناب الفحش في القول والبذاءة في اللسان كالسب والشتم واللعن ، ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم كما في رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : (ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء) [ت : البر والصلة (٢٠٤٣) وقال حسن غريب ، أحمد : المكثرين (٣٦٤٦)]

وإن لعن فلا يوجهه لإنسان بعينه وإن كان متلبسا بمنكر يستوجب اللعن وإنما يلعن من لعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سبق في الأحاديث النبوية فيقول مثلا لعن الله النامصة ، ولعن الله الواشمة ، ونحو ذلك فيعرض ولا يجابه فهو أسلم للعرض والدين وفي حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لا تلاعنوا بلعنة الله ولا بغضبه ولا بالنار) [ت : البر والصلة (١٩٧٦) وقال حسن صحيح ، د : الأدب (٤٩٠٦)]

ب) الاقتصار على قدر الحاجة وبما يتحقق به المقصود من التقريع والتوبيخ دون استرسال في ذلك ولا تكرار له فيصير منفرا فتانا ! إذ القصد زجر العاصي والإعلام بمنكره وأنه ينبغي تركه والكف عنه لا غير ، وليحذر المحتسب الانزلاق إلى هوة الرياء أو الغضب لغير ذات الله عز وجل أو التشفي أو الإذلال لغرض شخصي ونحو ذلك من الدنايا والرزايا ، قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : (ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما فان كان إثما كان أبعد الناس منه ، وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها) [متفق عليه : خ : المناقب (٣٥٦٠) واللفظ له ، م : الفضائل (٢٣٢٧)]

ج) تجنب التقنيط من رحمة الله ومغفرته وفضله فإن غفران الذنوب إلى الحي القيوم الذي لا يموت لا إلى أحد سواه ، وهو سبحانه القائل { قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ (١٥٦)} [الأعراف] ، وباب التوبة مفتوح بين العبد وبين ربه مهما عظمت الذنوب قال تعالى : (قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(٥٣)} [الزمر]

وقد يأخذ المحتسب الحماس والانفعال المذموم فيستعظم الذنب ويتجاوز حدوده فيشنع على الواقع في المنكر بما ليس له ذلك ، من مثل ما رواه جندب رضي الله عنه عن رسول صلى الله عليه وسلم (أن رجلا قال : والله لا يغفر الله لفلان ، وأن الله تعالى قال : من ذا الذي يتألّى عليّ أن لا أغفر لفلان ، فإني قد غفرت لفلان وأحبطت عملك) [م : البر والصلة (٢٦٢١)]

المرتبة الرابعة – التغيير باليد :

والعمدة في ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم كما يرويه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : (من رأى منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) [م : الإيمان (٤٩)]

ولقد مضت سنة النبيين عليهم الصلاة والسلام بتغيير المنكرات بأنفسهم ، فهذا إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والتسليم كسر أصنام قومه وأقام بذلك الحجة عليهم قال تعالى : { فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ(٥٨)} [الأنبياء] أي لم يبق منهم شئ ، ولفظ (جذاذ) يقع على الواحد والاثنين والجمع من الذكر والمؤنث قال ابن قتيبة : (جذاذاً) أي فتاتا وكل شئ كسرته فقد جذذته [ابن الجوزي : زاد المسير ٥ / ٣٥٨]

ولما مكن الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح طعن الأصنام وكسرها ، وأخرج ابن هشام في السيرة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال (دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح على راحلته فطاف على راحلته وحول البيت أصنام مشدودة بالرصاص فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يشير بقضيب في يده الى الأصنام ويقول { وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} [الإسراء : ٨١] فما أشار لصنم منها في وجهه إلا وقع لقفاه ، ولا أشار الى قفاه إلا وقع لوجهه حتى ما بقي منها صنم إلا وقع ، فقال تميم بن أسد الخزاعي في ذلك :

وفي الأصنام معتبر وعلم لمن يرجو الثواب أو العقابا

[ابن هشام – السيرة النبوية ٤١٧/٢ وانظر ابن كثير – السيرة النبوية ٥٧١/٣]

وفي رواية ابن مسعود رضي الله عنه قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمئة نصب – أي أصنام – فجعل يطعنها بعود في يده ويقول : { وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ } [الإسراء :٨١] ، { قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ } [سبأ :٤٩] ، [متفق عليه : خ : المغازي (٤٢٨٧) ، م : الجهاد (١٧٨١)]

– ومن صور التغيير باليد – أيضا – إخراج المخنثين من البيوت لميوعتهم واضمحلال رجولتهم ولما يفسدونه من المراهقين والنساء قال ابن عباس رضي الله عنهما : (لعن النبي صلى الله عليه وسلم المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء وقال : أخرجوهم من بيوتكم فأخرج النبي صلى الله عليه وسلم فلانا وأخرج عمر فلانا) [خ : اللباس (٥٨٨٦) واللفظ له ، د : اللباس (٤٠٩٧) ، ت : الأدب (٢٩٣٥) وقال حسن صحيح ، ما : النكاح (١٩٠٤)]

– ومن أمثلة تغيير المنكر باليد من الهدي النبوي : ما رواه عقبة بن عامر قال :(أهدي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فروج حرير فلبسه فصلى فيه ثم انصرف فنزعه نزعا شديداً كالكاره له وقال :لا ينبغي هذا للمتقين) [متفق عليه : خ : الصلاة (٣٧٥) ، م : اللباس والزينة (٢٠٧٥)]

– ومن أمثلته أيضا ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما : (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى خاتما من ذهب في يد رجل فنزعه وطرحه وقال : يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في يده) فقيل للرجل بعدما ذهب النبي صلى الله عليه وسلم خذ خاتمك انتفع به قال : لا والله لا آخذه أبدا وقد طرحه رسول الله صلى الله عليه وسلم [م : اللباس والزينة (٢٠٩٠) وله شاهد عند : س : الزينة (٥١٨٨) ، أحمد : مسند المكثرين (١٠٦٨٦)]

– ومن أمثلته مما يتعلق بالبيوع والمعاملات ما رواه سالم عن أبيه قال : (رأيت الذين يشترون الطعام مجازفة يضربون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعوه حتى يؤوه الى رحالهم) [متفق عليه : خ : البيوع (٢١٣٧) واللفظ له ، م : البيوع (١٥٢٧)]

وهذا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان يوكل رجالا لمهمة الاحتساب ولتغيير المنكرات وقد ذكر العلماء صورا متعددة للمنكرات التي تغير باليد ، سواء ما في وسع المحتسب المتطوع تغييرها بيده وما هو من اختصاصات المحتسب المولى كالإتلاف والإحراق وتطبيق الغرامات المالية [أنظر مجموع الفتاوى ٢٨ / ١١٤]

شرط القدرة والاستطاعة :

تغيير المنكر باليد مرتبط – كما لا يخفى – بشرط القدرة والاستطاعة كما نص عليها الحديث النبوي الشريف (من رأى منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) فاشتراط الاستطاعة موضع إجماع ، قال الاشعري : (وأجمعوا – يعني أهل السنة

والجماعة – على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، عليهم بأيديهم وبألسنتهم إن استطاعوا ذلك وإلا فبقلوبهم وأنه لا يجب عليهم بالسيف إلا في اللصوص والقطاع بعد مناشدتهم) [رسالة الى أهل الثغر ص ٢٩٥ الإجماع رقم ٤٤]

وسئل الإمام أحمد – رحمه الله – : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على المسلم ؟ قال : نعم . قال فان خشي ؟ قال : هو واجب عليه حتى يخاف فإذا خشي على نفسه فلا يفعل [الأمر بالمعروف : للخلال ص ٦٧]

وتتحقق القدرة والاستطاعة على (تغيير المنكر باليد) بحسب مكانة المحتسب ومنصبه فيجب على ولاة الأمر من الأمراء والحكام والمسئولين بحكم ولايتهم ومناصبهم ما لا يجب على العوام ، ويجب على العلماء وأهل الحل والعقد بحكم ما أوجبه الشرع عليهم من بيان الحق وإيصاله للناس وعدم كتمه ما لا يجب على من سواهم وهكذا .. ودليل القدرة قول الله تعالى : { فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ } [التغابن : ١٦] وقول النبي صلى الله عليه وسلم : (إذا نهيتكم عن شئ فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم) [متفق عليه : خ : الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٨٨) واللفظ له ، م : الفضائل (١٣٣٧)]

ويذكر شيخ الإسلام ابن تيمية معيارين للقدرة بهما يعرف القادر المستطيع من العاجز الخامل وهما : الخوف من مكروه ، وعدم الفائدة من الإنكار . قال : (... فذلك [أي انتصار المظلوم] مشروط بشرطين : أحدهما القدرة على ذلك . والثاني ألا يعتدى . فإذا كان عاجزا أو كان الانتصار يفضى إلى عدوان زائد لم يجز وهذا هو أصل النهى عن الفتنة فكان إذا كان المنتصر عاجزا وانتصاره فيه عدوان فهذا هذا . ومع ذلك فيجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحسب إظهار السنة والشريعة والنهي عن البدعة والضلالة بحسب الإمكان كما دل على وجوب ذلك الكتاب والسنة وإجماع الأمة ، وكثيرٌ من الناس قد يرى تعارض الشريعة في ذلك فيرى أن الأمر والنهي لا يقوم إلا بفتنة فإما أن يؤمر بهما جميعا أو ينهى عنهما جميعا وليس كذلك بل يؤمر وينهى ويصبر عن الفتنة كما قال تعالى : { يَابُنَيَّ أَقِمْ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنْ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ(١٧) } [لقمان]

وقال عبادة : (بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأثرة علينا وألا ننازع الأمر أهله وأن نقوم أو نقول بالحق حيث ما كنا لا نخاف في الله لومة لائم) [متفق عليه : خ : الفتن (٧٠٥٦) ، م : الأمارة (١٧٠٩)]

فأمرهم بالطاعة ونهاهم عن منازعة الأمر أهله وأمرهم بالقيام بالحق ولأجل ما يظن من تعارض هذين تعرض الحيرة في ذلك لطوائف من الناس والحائر الذي لا يدري لعدم ظهور الحق وتميز المفعول من

المتروك ما يفعل إما لخفاء الحق عليه أو لخفاء ما يناسب هواه عليه) [الاستقامة ١ / ٤٠ – ٤٢] والغـــزالي يوجّه هذه القاعدة ويقرر أن تحقق المراد والسلامة من الضرر لهما أربعة أحوال :

١– أن يجتمع المعنيان فلا تجب الحسبة .

٢– أن ينتفي المعنيان فتجب إذ هي القدرة المطلقة .

٣– أن لا يخاف مكروها لكن لا يفيد إنكاره فلا تجب لكن تستحب لإظهار شعائر الإســـلام وتذكير الناس بأمر الدين .

٤– أن يصاب بمكروه لكن يغيّر المنكر فيستحب وليس بواجب ولا محرم [أبو حامـــد الغـــزالي : إحياء علوم الدين ٣ / ١٢١٤]

وما ذكر من تحقق الفائدة من الإنكار وأمن المحتسب من الخوف إنما هو من الأمور الظنيـــة ، فقـــد يغلب على الظن عدم الفائدة من الإنكار ولا يصدق الظن ، وقد يخاف المحتسب من عاقبة التغيير ولا يكون ثمة سوى العافية ! والناس متفاوتون في تقدير ذلك بتفاوت عزائمهم وتوقعاتهم ، والفائدة مـــن الإنكار متحققة ولابد وإن لم تُر آثارها بينة للناس وذلك بإقامة الحجة على مرتكبي المنكرات ولهذا لما قال فريق من بني إسرائيل للصالحين المصلحين كما حكى الله عنهم { لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } [الأعـــراف :١٦٤] أي لعلهم ينتهون ، إن ينتهوا فهو أحب إلينا أن لا يصابوا ولا يهلكوا وإن لم ينتهوا فمعذرة إلى ربكم ، قال : فمضوا علـــى الخطيئة [ابن كثير : التفسير ٢ / ٢٨٧]

فمع إقامة الحجة والإعذار لعل التقوى تدب في القلوب فتهب بعد هجعتها وتسلك مسلك الرشد ، وعليه فالقدرة والإستطاعة إنما تعرف تبعا لدرجة لمنكر وظرف وقوعه وقوة إيمان المحتسب ومكانتـــه ومنصبه ومضاء عزيمته .

وهذه المراتب الأربع المتقدم ذكرها لا يخفى وجه كونها لكل محتسب آمر بالمعروف ناه عن المنكـــر من آحاد المتطوعين ، وإنكارهم منوط بالاستطاعة والمصلحة ولهم الإنكار وفق المراتب الســـابقة تبعـــا للظروف والأحوال والملابسات .

وما تبقى من مراتب الاحتساب فهي من اختصاصات المحتســـب المـــولّى ذي الســـلطة والولايـــة والصلاحيات ، المأذون له بالإنكار من ولي أمر المسلمين ، وهو المحتسب المكلف بـــالأمر بـــالمعروف والنهي عن المنكر وإصلاح ذات البين وتقويم المعوج من الرعاع وتكون كفايته من بيت مال المسلمين ، فله إضافةً إلى المراتب الأربعة السابقة المراتب الثلاث الآتي ذكرها ، وهي على الترتيب :

المرتبة الخامسة – التهديد بما يقدر عليه : وهو التخويف المقرون بالوعيد ، وهو في الأصالة من اختصاص الوالي الذي من خصائصه التمكن والسطوة والغلبة والقهر ومن صلاحياته التأديب والتعزير بالضرب والحبس والجلد وسائر أنواع التعزير لاستخراج الحقوق ورد المظالم وردع الظلمة ونصرة المستضعفين وقمع المجرمين .

وقد سلك الأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام مسالك في السياسة الشرعية لإظهار الحق ودحض الباطل ومنها التهديد ، مثل قول إبراهيم الخليل لقومه { وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ } [الأنبياء : ٥٧] ثم نفذ ما تهددهم به فكسرها كما سبق في المرتبة الآنفة ، ولذا جعل بعض العلماء التهديد قبل التغيير باليد ، ونظر بعضهم إلى جملة المراتب فقدم التغيير على التهديد وجعل الضرب والقتال – وهما من ضروب التغيير باليد – مرتبتين تليان التهديد المقدور عليه .

ومن الأمثلة قصة الذين أهدر النبي صلى اللهعليه وسلم دماءهم يوم الفتح وإن وجدوا تحت أستار الكعبة لكثرة إيذائهم المؤمنين ، وهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وعبد الله بن خطل ، والحويرث بن نقيذ ، ومقيس بن صبابة ، وسارة مولاة لبني عبد المطلب ، وعكرمة بن أبي جهل [ابن هشام : السيرة النبوية ٣ / ٥٦٣] فمنهم من قتل ومنهم من استؤمن له ثم حسن إسلامه كعكرمة رضي الله عنه .

– ومن الأمثلة تهديد الذين يتخلفون عن صلاة الجماعة في المساجد لغير عذر ويتهاونون في أداء هذه العبادة الجليلة في هيئتها الجماعية التي شرعها رب العالمين وأحكم الحاكمين لاسيما صلاة العشاء وصلاة الفجر أثقل الصلوات على المنافقين ، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (والذي نفسي بيده ! لقد هممت أن آمر بحطب فيحطب ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها ، ثم آمر رجلا فيؤم الناس ، ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم ، والذي نفسي بيده لو يعلم أحدهم أنه يجد عرقا سمينا أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء) [متفق عليه : خ : الأذان (٦٤٤) واللفظ له ، م : المساجد (٦٥١) والمرماة : ما بين ظلفي الشاة من اللحم ، وانظر الفتح ٢ / ١٢٦] وما أكثر المتهاونين في أداء الصلاة جماعة من أصحاب المتاجر والدكاكين ولاعبي الكرة وسائقي السيارات من الغافلين هداهم الله .

المرتبة السادسة – الضرب من غير سلاح : والذي يعنينا هنا تقرير الضرب واعتباره من وسائل ردع العصاة عن ارتكاب المنكرات . ومنه إقامة الحدود الشرعية والتعزير بالضرب مما هو من اختصاصات الحكام والأمراء وليست لآحاد المسلمين ، ويدخل في هذه المرتبة عامة الحدود الشرعية التي هي دون القتل كحد الشرب وحد القذف وحد الزنا لغير المحصن والضرب تعزيرا ، إذ

أن من مقاصد هذه الحدود ردع العصاة عن المعاصي ووعظ من تحدثه نفسه مقارفة مثل تلك المنكرات ، وأما ما لأفراد المسلمين – بحكم ولايتهم – كالآباء والأزواج مما يستدل به في تقرير الضرب فيدخل دخولا ضمنيا كضرب الزوجة الناشز وضرب الصبي على الصلاة في سن العاشرة .

ومن الأمثلة على الضرب مما هو من الحدود الضرب في حد الزنا غير المحصن قال الله تعالى : { الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ(٢) } [النور]

وفي حد القذف وهو اتهام المسلم أو المسلمة بالفاحشة الجلد ثمانين جلدة قال تعالى : { وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ(٤)} [النور]

وفي حد السكر كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : (أتي النبي صلى الله عليه وسلم برجل قد شرب قال : اضربوه قال فمنا الضارب بيده والضارب بنعله والضارب بثوبه) [خ : الحدود (٦٧٧٧) ، د : (٤٤٧٧)]

وروى عقبة بن الحارث رضي الله عنه قال : (جئ بالنعيمان أو ابن النعيمان شاربا فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان في البيت أن يضربوه ، قال فكنت أنا فيمن ضربه فضربناه بالنعال والجريد) [خ : الوكالة (٢٣١٦) ، أحمد : المدنين (٢٣١٦)]

وضرب في حد السكر أربعين على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وثمانين على عهد عمر رضي الله عنه وكل سنة .

ومن النصوص المقررة للضرب تعزيرا مما هو من اختصاصات الحكام وولاة الأمر قول النبي صلى الله عليه وسلم كما في رواية أبي بردة رضي الله عنه : (لا يجلد فوق عشر جلدات إلا في حد من حدود الله) [متفق عليه : خ : الحدود (٦٨٤٨) واللفظ له ، م : الحدود (١٧٠٨)]

وقد أورده الإمام البخاري في باب (كم التعزير والأدب) قال الحافظ ابن حجر : التعزير مصدر عزره وهو مأخوذ من العزر وهو الرد والمنع واستعمل في الدفع عن الشخص كدفع أعدائه عنه ومنعهم من إضراره ، ثم ذكر الأقوال في تحديد العدد بالعشر وأن الإجماع على أن للحاكم التعزير بأكثر من ذلك [ابن حجر : الفتح ١٢ / ١٧٨]

وروى ابن سعد أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله كتب إلى عامله بمصر : (لا تبلغ في العقوبة أكثر من ثلاثين سوطاً إلا في حد من حدود الله تعالى) [الطبقات الكبرى ٥ / ٣٠٠]

وللعلماء تفصيل في مقدار التعزير وحده يراجع في مظانه [أنظر الطرق الحكمية لابن القيم : ص ١٥٦– ١٥٨]

ومن الأمثلة على وسيلة الضرب تعزيرا مما هو للحاكم وولي أمر المسلمين قول سالم رضي الله عنه : (رأيت الذين يشترون الطعام مجازفة يضربون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعوه حتى يؤوه إلى رحالهم) [متفق عليه : خ : البيوع (٢١٣١) ، م : البيوع (١٥٢٧)]

ومن الأمثلة من العهد الراشدي اشتهار عمر بالحسبة وكان من صفاته كما تقول الشفا بنت عبد الله : أنه إذا تكلم أسمع ، وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب أوجع ! [الطبري : تاريخ الأمم ٥ / ٢٤]

وما رواه مختار بن فلفل قال : سألت أنس بن مالك رضي الله عنه عن التطوع بعد العصر فقال : (كان عمر يضرب بالأيدي على صلاة بعد العصر) [م : صلاة المسافرين (٨٣٦)] وفي رواية البخاري : (نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ركعتين بعد العصر) وقال ابن عباس : وكنت أضرب الناس مع عمر بن الخطاب عنها [خ : الجمعة (١٢٣٣)]

وفي منكر النياحة وأن الميت يعذب ببكاء أهله عليه ، (كان عمر رضي الله عنه يضرب فيه بالعصا ويرمي بالحجارة ويحثي بالتراب) [خ : الجنائز (١٣٠٤)]

وضرب جمّالا وقال لم حملت على جملك مالا يطيق ؟ [الأمر بالمعروف للخلال ص ٧٨ ، وانظر قصص أخرى من سيرة عمر في ذلك : تاريخ الأمم ٥ / ٣٢]

المرتبة السابعة – القتال والاستعانة بالجنود :

وأدلة مشروعيته كثيرة متضافرة منها آية الحرابة وهي قول الله جل ذكره : { إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنْ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٣٣)} [المائدة]

ومن السنة ورود الأمر بقتل المرتد وفيه قوله صلى الله عليه وسلم : (من بدل دينه فاقتلوه) [خ : الجهاد (٣٠١٧)]

وأيضا حديث سَعِيد بْنُ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ لما بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَدَّهُ أَبَا مُوسَى وَمُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ .. فَجَعَلَا يَتَزَاوَرَانِ فَزَارَ مُعَاذٌ أَبَا مُوسَى فَإِذَا رَجُلٌ مُوثَقٌ فَقَالَ مَا هَذَا فَقَالَ أَبُو مُوسَى يَهُودِيٌّ أَسْلَمَ ثُمَّ ارْتَدَّ فَقَالَ مُعَاذٌ لَأَضْرِبَنَّ عُنُقَهُ) [خ : المغازي (٤٣٤٥)]

وفي حروب الردة الذين منعوا الزكاة قال أبو بكر رضي الله عنه قولته المشهورة : (والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها ! [متفق عليه : خ : الزكاة (١٤٠٠) ، م : الإيمان (٢٠)]

وفي حد القتل قصاصا قول الباري جل ذكره : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ } الآية [البقرة : ١٧٨]

وفي حد الزنا في حالة الإحصان القتل رجما ، ودليله حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال عمر بن الخطاب ﷺ وهو جالس على منبر رسول الله ﷺ : (إن الله قد بعث محمدا ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان مما أنزل عليه آية الرجم قرأناها ووعيناها وعقلناها فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل ما نجد الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله وإن الرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف) [متفق عليه : خ: الحدود (٦٨٢٩) ، م : الحدود (١٦٩١) واللفظ له]

وفي حد القصاص في الأطراف قول الله تعالى : { وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ(٤٥)} [المائدة]

ويكون التعزيز بالضرب وقد يكون بالقتل ، وقد يكون بتغريم المال ومنه الغرامات التي يضعها الإمام على مخالفي أنظمة المرور في عصرنا كما يقطعون إشارة المرور فيتسببون في ازهاق الأرواح .

ومما سبق يتبين :-

١- أن القتال إنما شرع من أجل أن تتحقق عبادة الله وحده ، فإذا شهد الناس شهادة الحق وأقاموا شعائر الإسلام ولم يأتوا ما يناقض ذلك حرمت دماؤهم وأموالهم إلا بحق الإسلام.

٢- أن تغيير المنكر بالقوة وقمع المفسدين في الأرض الذين لا يندفع شرهم إلا بالقتال من واجبات الحكام كي يستتب الأمن وتتحقق المصالح بعد استنفاد الوسائل الأخرى .

٣- أن القوة في الإسلام ليست للقهر ولا للاستبداد والجور وإنما لهي للحق ولاعلاء كلمة الله وإزاحة العقبات التي تعترض طريق الدعوة الى الله وتحقيق الأمن والسلام وقمع الفساد والمفسدين .

والقتال على الجملة يستهدف أربعة أصناف من الناس ، قال الإمام علي رضي الله عنه : بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربعة أسياف : سيف للمشركين وذلك في قوله تعالى : { فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٥)} [التوبة]

وسيف لكفار أهل الكتاب وذلك في قوله تعالى : { قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ } [التوبة : ٢٩] وسيف للمنافقين وذلك في قوله تعالى : { يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدْ الْكُفَّارَ

وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } [التحريم : ٩] وسيف للبغاة وذلك في قوله تعالى : { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } [الحجرات : ٩] ، [ابن كثير – تفسير القرآن العظيم ٢ / ٣٧١ وانظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٢ / ٥١]

ولا يخفى ضرورة مراعاة التدرج في هذه المراتب ، ولا يخفى كذلك الحاجة إلى إذن الإمام في المراتب الثلاث الأخيرة لتغيير المنكر أعني التهديد ، والضرب من غير سلاح ، والقتال ، إستتبابا للأمن ومنعا للفوضى والفساد من أن يستشري بين الناس ووفاء بحق الطاعة والولاء لولاة الأمر ما أقاموا الصلاة .

شروط المنكر الموجب للاحتساب :

الشروط المعتبرة لوجوب تغيير المنكر أربعة :

١– كونه منكرا .

٢– وقوعه أو ظهور العزيمة على وقوعه .

٣– كونه منكرا بإجماع أهل العلم .

٤– ألا يترتب على إنكار المنكر منكر أكبر أو مفسدة أعظم .

وهي مستقاة من جملة النصوص الشرعية المتضافرة من الكتاب والسنة ، وتمثل مجتمعة منهج أهل السنة والجماعة في تغيير المنكرات خلافا للمبتدعة كالخوارج والمعتزلة وغيرهم ممن يجوزون الخروج على الأئمة بدعوى تغيير المنكر .

أولا – أن يكون منكرا :

فلا يغير ما ليس بمنكر وإلا صار من العبث ، وهذا يستدعي أن يكون الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر عالما بمراتب المعروف ومراتب المنكرات ، فيعرف المباح والواجب والمسنون ، ويعرف المحرم والمكروه والكبائر والصغائر والمختلف فيه ، حتى إذا أمر بمعروف أو نهى عن منكر كان على بصيرة وعلم وإلاّ ضلّ وأضلّ وقال على الله بغير علم ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: (ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا) [خ : العلم (٢٦٧٤) ، ت : العلم (٢٦٧٤) ، د : السنة (٤٦٠٩) ، أحمد : المكثرين (٨٧٩٥)]

وليس من شرط الداعي والمحتسب العلم بالأدلة الشرعية وأوجه الاستدلال بها على وجه التفصيل إذ ذاك من مهام الفقهاء وطلبة العلم ولا يتهيأ لكل مسلم ، بل المقصود ما كان معلوما من الدين

بالضرورة كتحريم الشرك والزنا والخمر والربا والسرقة والظلم وعقوق الوالدين وأكل أموال النـــاس بالباطل ، ووجوب الصلاة والزكاة وصوم رمضان وبر الوالدين وما جرى مجرى ذلك مما لا يعـــذر المسلم بجهله .

ثانيا – وقوع المنكر أو ظهور العزيمة على وقوعه :

يفرق بعض العلماء بين (النهي عن المنكر) ويكون في الأغلب قبل وقوعه، وبين (تغـــيير المنكـــر) ويكون بعد الوقوع وهو المعني هنا ، والأصل في هذا الشرط أن المؤاخذة مرتفعة عن الإنسان مـــا لم يعمل وهي قاعدة مستقاة من قول النبي صلى الله عليه وسلم كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه : (إن الله تجاوز عن أمتي ما وسوست به صدورها ما لم تعمل أو تتكلم) [متفق عليـــه : خ : العتـــق (٢٥٢٨) واللفظ له ، م : الإيمان (١٢٧)]

ووقوع المنكر لا يخلو من حالين : إما أن يقع على وجه العلن والمجاهرة ، وإما أن يقع علـــى وجـــه الستر والخفاء والسر ، فإن وقع على وجه العلن كوقوعه في الطرقات العامة والمنتـــديات والأســـواق ونحوها كمن يحمل زجاجة خمر على ملأ من الناس ومن يلعب الميسر والنرد أمام الناس ومـــن تتـــبرج وتكشف عما أمر الله بستره فهذا المنكر ينهى عنه بالحكمة إذ الإنكار في هذه الصورة العلنية جلي لا إشكال فيه على مراتب تغيير المنكر المتقدم ذكرها .

الحالة الثانية : وقوع المنكر على وجه الخفاء والسر ، وهذه الحال لا تخلو من صورتين :

الصورة الأولى وقوع المنكر سراً دون أن تظهر بوادره ولا آثاره كمن يسكر في داره وقـــد أغلـــق بابه فهذا في حيز المستور ولم نؤمر عن تفتيش البيوت ولا تتبع العورات والسقطات والعثـــرات ، ولا التجسس على البيوت لأن للبيوت حرمتها المصونة وعوراتها المستورة والله عز وجل أمر بالاســـتئذان حين دخول بيوت الغير فقال : { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُـــوتِكُمْ حَتَّـــى تَسْتَأْنِسُـــوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(٢٧)فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّـــى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ(٢٨) } [النـــور] وقال في النهي عن التجسس : { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَـــوَّابٌ رَحِيمٌ(١٢) } [الحجرات]

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – : يقول تعالى ناهيا عباده المؤمنين عن كثير من الظن وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله لأن بعض ذلك يكون إثما محضا فليجتنب كثيراً منه احتياطا [ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٤ / ٢٢٤]

ومن السنة حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم (إياكم والظن فان الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تباغضوا وكونوا إخوانا) [متفق عليه : خ : النكاح (٥١٤٤) واللفظ له ، م : البر والصلة (٢٥٦٣)]

وفيه النهي عن التجسس وهو البحث عن العورة ، والتحسس وهو تطلب الخبر وتبحثه ، وقال الحافظ ابن حجر قوله (فإن الظن أكذب الحديث) وصف بأكذب الحديث للإشارة إلى أن الظن المنهي عنه هو الذي لا يستند الى شئ يجوز الاعتماد عليه ويجعل أصلا ويجزم به فيكون الجازم به كاذبا وإنما صار أشد من الكاذب لأن الكذب في أصله مستقبح مستغنى عن ذمه بخلاف هذا فان صاحبه بزعمه مستند الى شئ ، فوصف بكونه أشد الكذب مبالغة في ذمه والتنفير منه [ابن حجر : الفتح ٤٨٢/١٠]

الصورة الثانية : المنكر المستتر الخفي الذي بدت علاماته وظهرت أماراته وآثاره كرائحة خمر تفوح من دار وصراخ سكران ، وصوت مزامير تسمع من وراء الأبواب أو استغاثة امرأة يراد بها سوء ، فما ظهرت آثاره وبدت أماراته فهو في حيز العلن لكن الأصل فيه أن يستأذن ثم ينكر وفق ما يخوله ولي الأمر من صلاحيات ، إلا إذا غلب على الظن فوات أوان النهي عن المنكر أو فوات أوان تغيير المنكر الذي تعظم به الجريرة كالقتل والزنا ونحوه فيجوز الإقتحام عند بعض الفقهاء ، وهذا مرتبط بدرجة المنكر وبفوات الأوان وبمكانة المحتسب وعدالته فبعض المنكرات أشد خطراً من بعض ، وبعضها أوسع دائرة في التبعات من بعض ، والأمر متروك لاجتهاد المحتسب وتقديره .

والأخذ بالقرائن في التثبت والتحري معتبر في الشرع كما في قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام : { إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنْ الْكَاذِبِينَ . وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنْ الصَّادِقِينَ . فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ }[يوسف : ٢٦-٢٨]

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية تفصيلا قيما لمسألة الأخذ بالقرائن في تتبع واثبات المنكرات يجدر بطالب العلم مطالعته على طوله لنفاسته [راجع مجموع الفتاوى ١٥ / ٣٠٦]

ثالثا – أن يكون منكرا بإجماع العلماء :

الإجماع المعني هنا هو ما كان في الفروع ، لأن الأئمة المهديين مجمعون في الأصول وهي مسائل الاعتقاد ولم يختلفوا فيها البتة لأن الحق في العقيدة واحد متعين لا يحتمل غيره فيجب الإنكار على من خالفه من المبتدعة وغيرهم .

أما الفروع فقد حصل فيها الخلاف بين العلماء منذ القديم ولم يقدح في علمهم وفقههم ومن ذلك اختلاف الصحابة رضوان الله عليهم مثل اختلافهم في قول النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن عمر رضي الله عنهما : (لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة) [متفق عليه : خ : المغازي (٤١١٩) ، م : الجهاد (١٧٧٠)]

فأدركتهم صلاة العصر في الطريق فقال بعضهم لا نصلي إلا في بني قريظة وقال بعضهم لم يرد منا هذا فصلوا في الطريق فلم يعب واحدة من الطائفتين وهكذا من جاء بعدهم من التابعين والفقهاء ومنهم الأئمة الأربعة الذين اشتهرت مذاهبهم وانتشرت في الآفاق ، فمتى حصل خلاف في مسألة من مسائل الفروع لم تجب فيها الحسبة وإنما تجوز من باب ذكر الدليل وبيان الراجح فإذا تمسك المنكر عليه برأيه المبني على دليل شرعي تُرك وشأنه لأنه ليس لأحد إلزام الناس بمذهب فقهي معين ، والعمدة في هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه : (إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر) [متفق عليه : خ : الإعتصام (٧٣٥٢) ، م : الأقضية (١٧١٦)]

وقد ذكر غير واحد من أهل العلم أنه لا يجب الإنكار في المسائل الاجتهادية :

– قال الماوردي : (وأما ما اختلف الفقهاء في حظره وإباحته فلا مدخل له في إنكاره إلا أن يكون مما ضعف الخلاف فيه وكان ذريعة الى محظور متفق عليه كربا النقد فالخلاف فيه ضعيف وهو ذريعة إلى ربا النساء المتفق على تحريمه) [الماوردي : الأحكام السلطانية ص ٢٥٣]

– وقال النووي : (ثم العلماء إنما ينكرون ما أجمع عليه أما المختلف فيه فلا إنكار فيه لأن أحد المذهبين : كل مجتهد نصيب وهذا هو المختار عند الكثيرين من المحققين أو أكثرهم وعلى المذهب الآخر : المصيب واحد والمخطئ غير متعين لنا والإثم مرفوع عنه لكن إن ندبه على جهة النصيحة إلى الخروج من الخلاف فهو حسن محبوب مندوب إلى فعله برفق ، فان العلماء متفقون على الحث على الخروج من الخلاف إذا لم يلزم منه إخلال بسنة أو وقوع في خلاف آخر) [النووي : المنهاج ٢ / ٢٣ موضع حديث (من رأى منكم منكرا ...)]

– وأما العلّامة ابن القيم فإنه فصل الحديث فلم يسوّغ الإنكار فيما لا نص فيه ولا إجماع ، بل هو موضع اجتهاد ، قال – رحمه الله – : (وقولهم إن مسائل الخلاف لا إنكار فيه ليس بصحيح ! فإن

الإنكار إما أن يتوجه إلى القول والفتوى أو العمل ، أما الأول فإذا كان القول يخالف سنة أو إجماعا شائعا وجب إنكاره اتفاقا وإن لم يكن كذلك فان بيان ضعفه ومخالفته للدليل إنكار مثله ، وأما العمل فإذا كان على خلاف سنة أو إجماع وجب إنكاره بحسب درجات الإنكار) [ابن القيم : إعلام الموقعين ٣ / ٢٨٨]

فهو يرى وجوب الإنكار في حالة مخالفة النص والإجماع ويرى جواز الإنكار فيما لا إجماع فيه وهي المسائل الخلافية ، أما المسائل الاجتهادية وهي التي لا نص فيها ولا إجماع فلا يرى الإنكار فيها ، قال : (وأما إذا لم يكن في المسألة سنة ولا إجماع وللاجتهاد فيها مساغ لم تنكر على من عمل بها مجتهدا أو مقلدا وإنما دخل هذا اللبس من جهة أن القائل يعتقد أن مسائل الخلاف هي مسائل الاجتهاد كما اعتقد ذلك طوائف من الناس ممن ليس لهم تحقيق في العلم) [المرجع السابق]

وهذا الشرط في وجوب تغيير المنكر يتعلق بمسألتين : الأولى الاجتهاد ومواضعه ولوازمه وما يفضي إليه ، الثانية : لا يصح إلزام الناس بمذهب معين .

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية هل كل مجتهد مصيب أم المصيب واحد والباقي مخطئون ؟ ففصل فيه الحديث وبين إطلاق (الخطأ) في الشرع ، ومجاري الاجتهاد في المسائل الخبرية والعلمية بما لا مزيد عليه ، كما بين – رحمه الله – أن المسائل الاجتهادية لا تنكر باليد وليس لأحد أن يلزم الناس بإتباعه فيها ولكن يتكلم فيها بالحجج العلمية فمن تبين له صحة أحد القولين تبعه ، ومن قلد أهل القول الآخر فلا إنكار عليه ، كما أوضح وبين أنه لا يجوز إلزام الناس بمذهب بعينه ولا قاله أحد من الأئمة الأربعة ولا غيرهم [انظر مجموع الفتاوى ٢٠ / ١٥ وما بعدها ، و ٣٠ / ٨٠ وما بعدها ، و٢٧ / ٢٩٨]

وخلاصة ما تقدم : ١– وجوب الإنكار فيما هو موضع اتفاق .

٢ – جواز الإنكار فيما هو موضع خلاف مع بيان الدليل .

٣ – عدم جواز الإنكار فيما هو موضع اجتهاد .

هذا ، وإذا تبنّى الإمام مذهباً من المذاهب الفقهية المعتبرة في المسائل الخلافية مما لا يصادم نصا من الكتاب والسنة والإجماع وجب الإنكار على من خالفه في محل ولايته خروجا من الخلاف ولأن طاعة الإمام حينئذ واجبة وقد قال الله تعالى : { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ } [النساء : ٥٩]

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله – : (.. فإن كانت المسألة إجماعا فلا كلام – أي في تغيير المنكر بحكمة – وإن كانت المسألة اجتهاد فمعلومكم أنه لا إنكار في مسائل الاجتهاد ، فمن عمل بمذهبه في محل ولايته لا ينكر عليه) [حسين بن غنام : تاريخ نجد ١ / ١٧٤]

رابعا – ألا يترتب على إنكار المنكر منكر أعظم أو مفسدة أكبر

وهذا مبناه القاعدة الأصولية : درء المفاسد مقدم على جلب المصالح ، وأصلها من القرآن العظيم والسنة النبوية المطهرة ، أما القرآن العظيم فقول الباري جل ذكره : { وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ } [الأنعام : ١٠٨] قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – : يقول الله تعالى ناهيا رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عن سب آلهة المشركين وإن كان فيه مصلحة إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها وهي مقابلة المشركين بسب إله المؤمنين وهو (الله لا اله إلا هو) كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهم في هذه الآية ، قالوا : يا محمد لتنتهين عن سبك آلهتنا أو لنهجون ربك ! فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم [تفسير القرآن العظيم ٢ / ١٦٤]

وأما السنة ففعله صلىالله عليه وسلم إذ لم يمس الأصنام بشيء من التكسير والتحطيم في مكة قبل الهجرة طيلة ثلاثة عشر عاما لأنه لم يؤذن له إبانئذ بالقتال وإنما كان أمر بالصبر، فلما فتح الله عليه مكة ومكّن له كسرها ، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :(دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمئة نصب فجعل يطعنها بعود في يده وجعل يقول { وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا } [الإسراء : ٨١] ، [متفق عليه : خ : المظالم (٢٤٧٨) ، م : الجهاد (١٧٨١)]

وقد ذكر العلماء رحمهم الله هذه القاعدة في فقه النهي عن المنكر ونوهوا بأهميتها فمن ذلك :

– ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية حين نبه إلى ضرورة التفطن إلى (المصلحة الشرعية) و (القدرة على التغيير) فقال : (يغلط فريقان من الناس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : فريق يترك ما يجب من الأمر والنهي تأويلا لهذه الآية كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في خطبته : إنكم تقرأون هذه الآية : { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } [المائدة : ١٠٥] ، وإنكم تضعونها في غير موضعها وإني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه) [د : الملاحم (٤٣٣٧) ، ت : الفتن (٢١٦٨) وقال : حديث صحيح ، ما : الفتن (٤٠٠٥) ، أحمد : العشرة المبشرين بالجنة (٢٩)]

والفريق الثاني : من يريد أن يأمر وينهى إما بلسانه وإما بيده مطلقا من غير فقه وحلم وصبر ونظر فما يصلح من ذلك ومالا يصلح ، وما يقدر عليه ومالا يقدر كما في حديث أبي ثعلبة الخشني قال : سألت عنها [أي الآية] رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن

المنكر حتى إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه ورأيت أمرا لا يدان لك به فعليك بنفسك ودع عنك أمر العوام فان من ورائك أيام ، الصبر فيهن على مثل قبض على الجمر ، للعامل فيهن كأجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله) وفي رواية أبي داود قيل يا رسول الله أجر خمسين منهم ؟ قال : (أجر خمسين منكم) [د : الملاحم (٤٣٤١) ، ت : التعبير (٣٠٥٨) وقال حسن غريب ، ما : الفتن (٤٠١٤) واللفظ له ، صحيح ابن حبان : ١٠٩/٢ (٣٨٥) ، والبيهقي في شعب الإيمان ١٢٧/٧ (٩٧٣١) ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧ / ٢٨٢ :رواه الطبراني في الكبير والأوسط عن شيخه بكر بن سهل عن عبدالله بن يوسف وكلاهما قد وثق وفيهما خلاف ، وقال ابن حجر في الفتح ٧ / ٧ : على أن حديث للعامل منهم أجر خمسين منكم لا يدل على أفضلية غير الصحابة على الصحابة لان مجرد زيادة الأجر لا يستلزم ثبوت الأفضلية وأيضا فالأجر إنما يقع تفاضله بالنسبة إلى ما يماثله في ذلك العمل فاما ما فاز به من شاهد النبي صلى الله عليه وسلم من زيادة فضيلة المشاهدة فلا يعدله فيها أحد فبهذه الطريق يمكن تأويل الأحاديث المتقدمة]

فيأتي بالأمر والنهي معتقدا أنه مطيع في ذلك لله ورسوله وهو معتد في حدوده ! كما انتصب كثير من أهل البدع والأهواء كالخوارج والمعتزلة والرافضة وغيرهم ممن غلط فيما أتاه من الأمر والنهي والجهاد على ذلك ، وكان فساده أعظم من صلاحه ، ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر على جور الأئمة ونهى عن قتالهم ما أقاموا الصلاة وقال (أدوا إليهم حقوقهم وسلوا الله حقوقكم) وفي حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم : (إنها ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها) قالوا يارسول الله كيف تأمر من أدرك ذلك قال (تؤدون الحق الذي عليكم وتسألون الله الذي لكم) [متفق عليه : خ : المناقب (٣٦٠٣) ، م : الإمارة (١٨٤٣)]

وقد بسطنا القول في ذلك في غير هذا الموضع . ولهذا كان من أصول أهل السنة والجماعة لزوم الجماعة وترك قتال الأئمة وترك القتال في الفتنة) [مجموع الفتاوى ٢٨ / ١٢٧ – ١٣١ وانظر ٢٠ / ٥٧ – ٥٩]

وعوداً على بدء فإن ابن القيم – رحمه الله – يرسخ القاعدة في اشتراط ألا يترتب على تغيير المنكر منكر أكبر فيقول : (شرع النبي صلى الله عليه وسلم لأمته إيجاب إنكار المنكر ليحصل – بإنكاره – من المعروف ما يحبه الله ورسوله فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله فإنه لا يسوغ إنكاره وان كان الله يبغضه ويمقت أهله ، وهذا كالإنكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم فانه أساس كل شر وفتنة الى آخر الدهر ، وقد استأذن الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتال الأمراء الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها وقالوا : أفلا نقاتلهم فقال : (لا . ما أقاموا الصلاة) رواه عوف بن مالك رضي الله عنه [م : الإمارة (١٨٥٥) ، أحمد : الأنصار (٢٢٨٥٦) ، دا : الرقاق (٢٦٧٧)]

وقال : (من رأى من أميره ما يكرهه فليصبر ولا ينزعن يداً من طاعته) رواه أبو رجاء العطاردي [متفق عليه : خ : الفتن (٧٠٥٤) ، م : الإمارة (١٨٤٩) ولفظهما : (من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر عليه فانه من فارق الجماعة شبرا فمات إلا مات ميتة جاهلية)]

ومن تأمل ما جرى على الإسلام من الفتن الكبار والصغار رآها من إضاعة هذا الأصل وعدم الصبر على منكر ، فطلب إزالته فتولد منه ما هو أكبر منه ، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يرى بمكة أكبر المنكرات ولا يستطيع تغييرها ، بل لما فتح الله مكة وصارت دار إسلام عزم على تغيير البيت ورده على قواعد إبراهيم ومنعه من ذلك مع قدرته عليه خشية وقوع ما هو أعظم منه من عدم احتمال قريش لذلك لقرب عهدهم بالإسلام وكونهم حديثي عهد بكفر ، ولهذا لم يأذن في الإنكار على الأمراء باليد ، لما يترتب عليه من وقوع ما هو أعظم منه كما وجد سواء !

وإنكار المنكر أربع درجات :

الأولى : أن يزول ويخلف ضده .

الثانية : أن يقِلّ وإن لم يزل بجملته .

الثالثة : أن يخلفه ما هو مثله .

الرابعة : أن يخلفه ما هو شر منه .

فالدرجتان الأوليان مشروعتان ، والثالثة موضع اجتهاد ، والرابعة محرمة) .

ثم تحدث – رحمه الله – عن ضرورة إيجاد البدائل عن المنكرات ونقل العصاة من منكر إلى معروف بحكمة وحنكة [انظر إعلام الموقعين ٣ / ٤ – ٥]

الأضرار الناجمة عن ترك الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الأضرار المترتبة على ترك الدعوة والحسبة نوعان دنيوية وأخروية :

فمن الأضرار الدنيوية :

١– انتفاء الأمن النفسي والأمن الاجتماعي : لأن الدعوة إلى الله إنما هي دعوة إلى صيانة حرمات المسلم التي تتحقق بالإيمان بالله وبيوم البعث والجزاء وإقامة كافة مناحي الحياة على هذه القاعدة الإيمانية الراسخة ، وبغير الإيمان والتقوى والآداب والمثل يتحول البشر إلى حيوانات شرسة محمومة تسعى إلى شهواتها وملذاتها ويصبح ذلك غايتها في الحياة ، قال الله تعالى : { فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى(١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

أَعْمَى(١٢٤)قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا(١٢٥)قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى(١٢٦) } [طه]

قال الإمام ابن سعدي في تفسيره : { فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ } إتباع الهدى بتصديق الخبر وعدم معارضته بالشبه وامتثال الأمر بأن لا يعارضه بشهوة ! { وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي } أي كتابي الذي يتذكر به جميع المطالب العالية وأن يتركه على وجه الإعراض عنه ، أو ما هو أعظم من ذلك بأن يكون على وجه الإنكار له والكفر به [تيسير الكريم الرحمن ٥ / ٩٨]

وإذا تأملت هذين الواقعين وجدت أحوالهما متباينة في كثير من الآيات القرآنية الجليلة مثل قوله تعالى { أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(٣٥)مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(٣٦)} [القلم] وقوله تعالى { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(٢١) } [الجاثية]

٢ – انتشار الفساد واستشراؤه : إذا تركت المنكرات فلم ينهى عنها ولم تغير بالحكمة والأسلوب الأمثل ، وأهمل المعروف فلم يؤمر به ولم يتداعى له انتشر الفساد في المجتمع وطال الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية وتفكك المجتمع إلى أحزاب يسوم بعضها بعضا سوء العذاب !

ولقد ضرب لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا لهذا الفساد المهلك بأصحاب سفينة فقال : (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو خرقنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ! فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا) [خ : الشركة (٢٤٩٣) ، ت : الفتن (٢١٧٣) وقال حسن صحيح ، أحمد : الكوفيين (١٧٦٣٨)]

قال ابن حجر : قوله (نجوا ونجوا جميعا) أي : كل من الآخذين والمأخوذين ، وهكذا إقامة الحدود يحصل بها النجاة لمن أقامها وأقيمت عليه وإلا هلك العاصي بالمعصية والساكت بالرضا بها قال :.وفيه استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف [الفتح ٥ / ٢٩٦]

٣ – القحط والجدب ونزع البركات في الأرزاق والثمرات : ذلك لأن للمعاصي وتفشي المنكرات أثرا في نقص الثمرات ، والذنب حينما يكون مستورا فإن ضرره يكون مقتصرا على صاحبه ، فإذا أظهر واستعلن وتجاهروا به ولم ينكر صار ضرره عاما وصار في ظهوره تحريك غيره إليه !! فلا يحصل رضاه عز وجل إلا بطاعته واتقاء محارمه وتلك سنة ربانية ماضية لا تتخلف ولا تتبدل ، قال الله تعالى : { وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا

فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ(٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ(٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) } [الأعراف]

٤- استحقاق العذاب : ذلك لأن المصائب والكوارث والبلايا في الدنيا سببها الذنوب والمعاصي وكذلك العذاب الأخروي وقد قال الله تعالى : { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ } [الشورى : ٣٠]

وقال تعالى { وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [الأنفال : ٢٥] وكم من فتنة يعاني منها المسلمون اليوم وسببها تعطيل شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٦- استحقاق اللعن : وهو الطرد والإبعاد عن رحمة الله وقد تقدم الحديث النبوي : (إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول يا هذا اتقي الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض) ثم قال : { لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ(٧٨)كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ(٧٩)تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ(٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ(٨١) } [المائدة] ثم قال : (كلا والله ! لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يدي الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا ولتقصرنه على الحق قصرا أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعننكم كما لعنهم) [د : الملاحم (٤٣٣٦) ، ت : تفسير القرآن (٣٠٤٧) وقال حسن غريب ، ماجة : الفتن (٤٠٠٦) ، والبيهقي في الشعب ٨٠/٦ (٧٥٤٥) ، قال الهيثمي : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح مجمع الزوائد ٢٦٩/٧]

٧ - اندراس شرائع الإسلام ومعالم الهدى : وهذا من أخطر الآثار المترتبة على تعطيل فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما الغربة التي عاشها كثير من المسلمين في أحقاب مختلفة من تاريخهم إلا بسبب بعدهم عن نهج الدين القويم وهو من آثار ترك الدعوة إلى الله تعالى ، وفي حديث فيروز الديلمي عن أبيه رضي الله عنه مرفوعا : (لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة كما ينقض الحبل قوة قوة) [أحمد : مسند الشاميين (١٧٣٤٧) ، والبيهقي في شعب الإيمان ٣٢٦/٤ (٥٢٧٧) ، والبخاري في التاريخ الكبير ٣٣٣/٨ (٣٢١٤) ، قال الحاكم في المستدرك ٥١٦/٤ (٨٤٤٨) هذا الحديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : ٢٨١/٧ : رواه أحمد والطبراني ورجاله رجال الصحيح]

فبالتقاعس عن الدعوة إلى الله وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو التهاون فيه والسكوت عن المنكرات والمحظورات الشرعية يستعلن بها ويجاهر بارتكابها تقوى شوكة أرباب المنكرات والعتاة وتصلب قناتهم ثم بمرور الوقت تضيع معالم الدين وتضمحل سنن الهدى رويدا رويداً .

إن إقامة شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما أنها سبب لحياة القلوب والأبدان هي أيضا معيار دقيق لصلاح المجتمع ، ويوم تعطل هذه الشعيرة الجليلة في كل بقاع الأرض تقوم الساعة ! لفشو الخراب وفي هذا حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم : (لا تقوم الساعة حتى يأخذ الله شريطته من أهل الأرض – يعني أهل الدين والصلاح – فيبقى فيها عجاجة لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكراً) [م : الفتن (٢٩٤٠) ، وأحمد : المكثرين الصحابة (٦٦٧٠) واللفظ له]

ومن الأضرار الأخروية :

التعرض للمساءلة والمؤاخذة ومن نوقش الحساب فقد عُذّب قال الله تعالى { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ الْمُرْسَلِينَ(٦٥)فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمْ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ(٦٦)فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنْ الْمُفْلِحِينَ(٦٧) } [القصص] وقال : { وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ(٢٤)مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ(٢٥)بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ(٢٦)} [الصافات] وهذا السؤال إنما هو للحساب والجزاء وياله من سؤال !

والناس يومئذ بين مؤمن ومجرم ، فمن استجاب لدعوة الله وأتمر بأمره تعالى وانتهى عن محارمه ودعا الى الله على قدر وسعه فهو المؤمن السعيد ، ومن لم يستجب بل صد عن الحق وصدف عن سماعه وتلهى بالفانية عن الباقية فهو المجرم الشقي قال تعالى : { إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا(٧٤)وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا(٧٥)جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى(٧٦) } [طه]

وقال تعالى : { أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ(١٨)أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٩)وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمْ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ(٢٠) } [السجدة]

إن العذاب الأخروي أشد وأنكى وقد ذكر تعالى في عشرات الآيات حال أهل النار وأن إعراضهم عن دعوة الحق وتكذيبهم وصدودهم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب دخولهم النار وبئس المهاد قال الله تعالى عن أهل النار : { وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(٦)إِذَا أُلْقُوا

فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ(٧)تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنْ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ(٨)قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ(٩)وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ(١٠)فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ(١١) } [الملك] فلم يكن لديهم سماع تدبر واتعاظ ولا عقل يعي الحق ويؤثره على الأهواء ولذا تردوا في عذاب السعير .

العلاقة بين الدعوة والعلوم الشرعية الأخرى

الدعوة علم له قواعده ومناهجه ومصادره وميادينه ، فلا يؤدى واجب الدعوة إلا بعلم وعلى بصيرة ، علم بالمناهج والأساليب وعلم بالطرائق والوسائل ، وعلم بحقائق الدين وثوابته ومقاصد الشرع وغاياته ، وعلم بوقائع العصر المتجددة وبأحوال المدعوين وأصنافهم ومداركهم وكيفية دعوتهم ، فعلم الدعوة علم مستل من علوم الشريعة ، ولنضرب بعض الأمثلة على أوجه العلاقة بين علم الدعوة وغيرها من العلوم الشرعية الأخرى :

أ) الدعوة والعقيدة :

لا تصح الدعوة بغير عقيدة ، كما لا تنتشر عقيدة إلا بدعوة ، فبينهما تلازم وتداخل ، والعقيدة الإسلامية تستلزم الدعوة وتقتضيها ، لأن الإسلام دين دعوة ، والدعوة الإسلامية دعوة عالمية ، قال تعالى : { كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله } [آل عمران :١١٠]

وهذه الخيرية سببها أمران : الإيمان بالله تعالى والدعوة إليه ، فالإيمان به تعالى يقتضي توحيده في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته فلا إله غيره ولا رب سواه ويقتضي أيضا الإيمان بباقي الأركان أي الإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ، ويستتبع ذلك الإسلام الذي هو المرتبة الثانية من مراتب الدين ويتضمن الشهادتين شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت مع الاستطاعة ، ثم القيام بباقي الفروض والسنن والمستحبات التي أمر بها الدين . وتجنب المحرمات والمكروهات وسائر المنهيات التي حذر منها الدين الحنيف ، وكذلك مرتبة الإحسان .

والأمر الثاني : الدعوة إليه ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بكل طريق مشروع كالتربية والتعليم والتبصير والتذكير والوعظ والنصح .

ولقد بعث الله الرسل مبشرين ومنذرين ، وكلهم دعوا إلى دين الإسلام وعقيدة التوحيد وقال كل واحد منهم كما قص الله علينا أخبارهم : { يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(٥٩) } [الأعراف : ٥٩ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥]

لقد دعوا إلى عقيدة التوحيد يقيمون عليها البراهين والحجج ويصححون المفاهيم الخاطئة المنحرفة عن هذا المبدأ العظيم ، ويبطلون العقائد الضالة المضادة لعقيدة الإسلام الصحيحة البينة التي تتجاوب لها نواميس الكون وتترع إليها الفطر السليمة ، قال تعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِي(٢٥)} [الأنبياء] ، وقال في موضع آخر : { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ(٣٦) } [النحل]

وما زالوا كذلك سائر حياتهم وعلى هذا الأصل أوصوا من بعدهم كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل إلى أهل اليمن قال له : (إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحّدوا الله تعالى ، فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم) [متفق عليه :خ : التوحيد (٧٣٧٢) واللفظ له ، م : الإيمان (١٩)]

ومن هذا يتبين أن الدعوة إلى العقيدة لاسيما توحيد الله تعالى في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته من أولويات ما يجب على الدعاة السعي إليه والقيام به لأن العقيدة هي أساس الدين ولا يقوم بنيانه على غير أساس صحيح فلا دعوة إلا بعقيدة قويمة وازعة ، ولا عقيدة صحيحة إلا بدعوة راشدة مستبصرة .

وانظر كيف كان النبي صلى الله عليه وسلم يبعث الدعاة إلى الأمصار يدعون إلى الله تعالى مبتدئين بتوحيد الله تعالى بطريق بيان الحق تارة كما تقدم في حديث معاذ ، وبطريق الجهاد تارة وبإزالة أسباب الشرك ومظاهره تارة كما في حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : كان في الجاهلية بيت يقال له ذو الخلصة ، وكان يقال له الكعبة اليمانية أو الكعبة الشامية ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : (هل أنت مريحي من ذي الخلصة) ؟ قال : فنفرت إليه في خمسين من أحمس فكسرنا وقتلنا من وجدنا عنده ، فأتيناه فأخبرناه فدعا لنا ولأحمس . [متفق عليه : خ : المناقب (٣٨٢٣) ، م : فضائل الصحابة (٢٤٧٦)]

ب) الدعوة والفقه :

لا تصح الدعوة ولا يستقيم سبيلها بغير فقه في الدين وفهم لمراميه ومقاصده وسبيل الدعوة إليه واستمالة الناس نحوه ، ولا ينتفع الناس بالفقه بغير تعلمه وتعليمه وتبصير الناس بأحكام دينهم وحقوقهم وواجباتهم وتعريفهم بالحلال والحرام والواجب والمحرم ، فالتلازم بين الدعوة والفقه في الدين أمر مطرد فالداعية كما أنه معلّم ومرشد هو أيضا مفتٍ وفقيه .

ومن الأدلة على ذلك قول الباري جل ذكره : { وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢)} [التوبة] فذكر ها هنا الفقه في الدين وهو معرفة الحلال والحرام والمعروف والمنكر ومعرفة الأحكام الشرعية وأدلتها ووجوه دلالتها وكيفية استنباطها .

ثم ذكر تعالى إن التفقه في الدين إنما يكون من أجل (إنذار) الناس مواضع سخط الرب ليجتنبوها ومواقع رضاه ليلزموها وهذه هي الدعوة في صورة الترغيب والترهيب ، فالتفقه في شرع الله يقتضي دعوة الناس إليه وحملهم ترغيبا وترهيبا على الالتزام به ، وانظر كيف أن الله حينما أوجب أن تكون أمة تتفرغ للدعوة إليه جعل من مؤهلاتها وشروطها التفقه في الدين ومنه فهم الأحكام الشرعية وفق الأسس والضوابط الأصولية المقررة في علم أصول الفقه ومن ذلك : معرفة الأدلة الشرعية وأوجه الاستدلال ومعرفة المقاصد والمحكم والمتشابه والمطلق و المقيد والعام والخاص والمكي والمدني والناسخ والمنسوخ .. الخ

وهذا سبيله علم الفقه وأصوله وعلم التفسير وأصوله وعلم الحديث وشروحه ومصطلحاته ، وعلم السيرة ومواعظها وعلم اللغة ودلالاتها ، وكل هذه العلوم وغيرها ضرورية للداعية وللفقيه ولطالب العلم الشرعي .

على أن الإنذار المذكور في الآية الشريفة هو القيام بواجب الدعوة لأن التبشير والإنذار جناحا الدعوة وكل منهما يقتضي الآخر ، وتأمل الترابط الوارد في السياق القرآني الجليل (ليتفقهوا... ولينذروا) فلا إنذار ولا دعوة بغير فقه وتبصر ، وهذا ملحظ تربوي جدير بالعناية والاهتمام خاصة من قبل الدعاة المبتدئين .

جـــ) الدعوة والسيرة والسُنّة :

يستمد الدعاة جزءاً كبيرًا من مادة الدعوة من السنة والسيرة والتاريخ الإسلامي لاسيما قصص النبيين والمرسلين ، لأن السنة والسيرة وقصص النبيين هي النماذج التطبيقية والأمثلة الميدانية لمناهج الدعوة ومراحلها ومراتبها ومقاصدها .

ولقد ذكر تعالى في سورة الأنعام ثمانية عشر نبيا ورسولا ، وقال عقب ذلك : { أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمْ اقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ(٩٠)} [الأنعام] وقال في مختتم سورة يوسف وقصته المليئة بالعبر والدروس : { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(١١١)} [يوسف]

وسير النبي صلى الله عليه وسلم المثل الحافل بالتفاصيل الدقيقة للنوازل والحوادث ، لقد حفلت السنة النبوية والسيرة بالكثير من الوقائع والأحداث إبان العهد المكي ثم العهد المدني ثم العهد الراشدي الذي يعد امتدادا للعهد النبوي ، وهذه العهود الثلاثة هي ميدان الدعوة التطبيقي ، ودراية الداعية بملابسات تلك الوقائع والأحداث يثري لديه فقه الدعوة ويوقفه على المنهاج النبوي الذي لا يصح منهاج غيره في مختلف جوانب الدعوة وقال في وصف دقيق لطبيعة رسالته السمحة ودعوته الحكيمة : (إن الله لم يبعثني متعنّتاً ولكن بعثني معلماً ميسرًا) [م: الطلاق (١٤٧٨) ، ت : التفسير (٣٣١٨) وقال حسن صحيح غريب]

ومصداقه من كتاب الله تعالى : { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ(١٢٨)} [التوبة]

وهكذا تتداخل وشائج السيرة والسنة في علم الدعوة لتشكل مادة علمية تطبيقية على النحو الأمثل

هذا والعلاقة بين الدعوة والعلوم الشرعية أخرى كالتفسير والتاريخ والعربية وغيرها علاقة استمداد وتناسق وكلها تستقى من معين الكتاب و السنة وتهدف إلى معرفة العبد ربه ودينه ونبيه صلى الله عليه وسلم والعمل للحياة الآخرة . ولم يشطط من قال أن الدعوة باعتبارها تخصصا علميا من أوسع التخصصات مضمونا وأشملها منهاجا ، فلا يستقيم عمل الداعية ولا يرشد إلا إذا أخذ من كل علم نافع بطرف بعد التوسع في علوم الشريعة وهذا من البصيرة المشروطة لصحة الدعوة واستقامتها كما قال تعالى : { قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ(١٠٨)} [يوسف]

وخلاصة القول :

إن بين الدعوة وعلوم الشريعة الأخرى تداخلا وتناسقا ، فلا دعوة من غير عقيدة وشريعة ، وعلوم الشرع وحدة واحدة لا تتجزأ ولا تنفصم ، فالدعوة محيية وازعة ، تحيي بإذن الله ما اندثر من معالم الدين وسنن الهدى ، والعقيدة والشريعة حاكمة ضابطة تحدد أنماط الحياة الفاضلة والسلوك السوي ، وبذلك يكون لحياة الإنسان معنى وهدف .

مصادر الدعوة

١- القرآن الكريم :

كلام الله تعالى غير مخلوق لا يأتيته الباطل من بين يديه ولا من خلفه إنه مصدر الدعوة الأول ، ومعجزة نبينا صلى الله عليه وسلم الخالدة الباقية إلى يوم القيامة ، ومن خصائص القرآن الكريم السلامة من التحريف فلقد تكفل الله تعالى بحفظه من التحريف والتبديل والزيادة والنقص ، فلا يعتريه شيء من ذلك البتة ، قال تعالى : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(٩)} [الحجر] وقال : { لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ(٤٢) } [فصلت] ، وقال في موضع آخر : { بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ(٢١)فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ(٢٢)} [البروج] على قراءة { محفوظٌ } بالرفع صفة للقرآن .

وتستمد هذه الخاصية من الكتاب العزيز الذي تكفل الله بحفظه ورعايته فلا زالت وستظل طائفة من أمة النبي صلى الله عليه وسلم ظاهرة على الحق منصورة إلى قيام الساعة تمثل الإسلام الصحيح الخالي من الشوائب من العقائد المنحرفة والتأويلات الفاسدة والتوجهات المدخلة ، قال صلى الله عليه وسلم كما في رواية معاوية رضي الله عنه : (ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله) [متفق عليه : خ : العلم (٧١) واللفظ له ، م : الإمارة (١٠٣٧)]

ومن مستلزمات حفظ الله لكتابه ودينه من التحريف والزيغ : أن يعتز المسلم به ويسلم له ويتحاكم إليه ويؤثره على الأهـــواء وبغير ذلك لا يصـــح إسلام المرء ولا يكمل إيمانه ولا يستقيم أمره ولا يهنأ عيشه ، وكيف وقد قال الله تعالى : { يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا(١٧٤) } [النساء]

ولقد كان السلف يعون هذا المبدأ العظيم ويذكّرون به الناس قال عبد الله بن العباس رضي الله عنهما : (كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدث تقرأونه محضا لم يُشب ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه وكتبوا

بأيديهم الكتاب وقالوا : هو من عند الله ! ليشتروا به ثمنا قليلا ، إلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم ؟ لا والله ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذي أنزل عليكم) [خ : الاعتصام (٧٣٦٣)]

فديننا هو الدين الحق وكتاب ربنا هو الكتاب المحفوظ في الصدور وعلى السطور وهو الميزان الصحيح والمعيار القويم لمعرفة الصحيح من السقيم مما يعتنقه الناس من مذاهب وآراء ونظريات وإبطال الباطل منها وتفنيده {إِنَّ هَـــذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا(٩)} [الاسراء]

٢- السنة النبوية :

وهي المصدر الثاني والمفسرة لجمل القرآن المبينة لمعانيه قال تعالى : {وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤)} [النحل]

ثم هي التطبيق العملي للدعوة ووسائلها ومناهجها وغاياتها ومراحلها ، بدء من تنزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة وما كان فيها من أحداث ، ثم الهجرة النبوية إلى المدينة وما تلاها من وقائع الدعوة .. والدعاة يقتدون به صلى الله عيه وسلم في كل شؤونهم لا سيما في أساليب الدعوة ووسائلها قال تعالى {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا(٢١)} [الأحزاب]

ولا بد من التنويه بفهم السلف الصالح ومنهم الرعيل الأول من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين عاصروا التنزيل وفقهوا التأويل ، ثم من تبعهم ومن جاء بعدهم في القرون الثلاثة المفضلة ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ..

٣- فهم السلف الصالح رضوان الله عليهم :

هو المصدر الثالث فلا يكفي مجرد دعوى التمسك بالكتاب والسنة لأنها دعوى كل الإسلاميين المنتسبين للدين ، ولا تتميز الطائفة الناجية إلا بالتمسك بما كان الرعيل الأول ، ويتجلى ذلك من خلال الفقرات الآتية :

- أهمية فهم السلف :

السلف في اللغة من تقدم ومضى ، وفي التنزيل الحكيم { فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ } [الزخرف : ٥٦] أي : سلفا متقدمين ليتعظ بهم الآخرون [لسان العرب مادة سلف ٩ / ١٥٨]

ولعل أصح الأقوال في تحديد مفهوم السلف اصطلاحا أنهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلفاء الراشدون ، وبقية العشرة المبشرة ، ثم البدريون ، ثم أصحاب بيعة الرضوان ، ثم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، ثم عامة الصحابة الذين تشرفوا بصحبة النبي صلى الله عليه وسلم فلقد كانوا أشرف الأجيال وأكملها ، ثم التابعون وتابعوهم ، ويتشبه بهم كل من مات على منهجهم ممن تبعهم بإحسان واتبعهم بإيمان وسار على طريقتهم ممن لم يغيروا ولم يبدلوا ولم يبتدعوا في الدين شيئا إلى يوم الدين .

إن لفهم السلف ومنهجهم أعمية قصوى في منهج الدعوة ، وفي فضل السلف على الخلف نصوص عديدة منها قول الباري جل ذكره : { لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنْ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠)} [الحديد]

وقوله {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠)} [التوبة]

ثم خلفت من بعدهم خلوف استنوا بسنتهم واهتدوا بهديهم لم يغيروا ولم يبدلوا لذا كان لهم السبق والفضل خاصة في القرون الثلاثة المفضلة ، وقد ورد في حديث عمران بن حصين مرفوعا : (خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) [متق عيه : خ : الشهادات (٢٦٥١) ، م : فضائل الصحابة (٢٥٣٥)] فالقرون الثلاثة المفضلة خير القرون وقد يلحق بها القرن الرابع أخذا ببعض روايات الحديث كما بينه علماء الإسلام [انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٠ / ٢٩٥]

ومما يدل على أهمية التمسك بما كان عليه السلف من الاتباع ونبذ الابتداع حديث عائشة رضي الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) وفى لفظ فى الصحيح : (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) [متفق عليه : خ : الصلح (٢٦٩٧) ، م : الأقضية (١٧١٨)]

وهذا الحديث أحد الثلاثة الأحاديث العظام التي عليها مدار الإسلام كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله [راجع مجموع الفتاوى ١٨ / ٢٤٩]

ومن فوائد اتباع السلف :

أنه بالسير على منهجهم تحصل العصمة من الزلل والشطط . فهم لا يصدرون إلا عن الكتاب والسنة ، وهم أبعد الناس عن الأهواء التي وقع فيها غيرهم قال ابن القيم : (فصل من بلّغ بعد الرسول : ثم قام بالفتوى بعده برك الإسلام وعصابة الإيمان وعسكر القرآن وجند الرحمن أولئك

أصحابه رضي الله عنهم ألين الأمة قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا وأحسنها بيانا وأصدقها إيمانا وأعمها نصيحة وأقربها إلى الله وسيلة وكانوا بين مكثر منها ومقل ومتوسط) [اعلام الموقعين ١١/١]

وبالاقتداء بهم في منهج الدعوة يتحقق التمكين للدعوة في القلوب والعقول لأنهم يجمعون خصائص المنهج النبوي في الدعوة والفتوى والحسبة وفي كل الوسائل والأساليب ..

الأصل الثاني : الداعية .

(تعريفه ، أخلاقه وآدابه ، علمه وثقافته)

تعريف الداعية :

(هو كل مسلم مكلف) رجلا كان أو امرأة عالما أو عاميا ، فالعالم يدعو على بصيرة بما نور الله به بصيرته ، والعامي يدعو إلى ما علمه مما لا يعذر المسلم بجهله كالصلوات الخمس والزكاة وصوم رمضان . على أن الدعوة مقامها مقام شريف فلا يتصدى لها إلا شريف النفس قوي العزيمة .

مكانته :

ومن أحسن قولا ....

الرسل والأنبياء (وداعيا إلى الله بإذنه وسراج منيرا)

واجبات الداعي :

١) التعلم { ليتفقهوا في الدين }

ادعو إلى الله على بصيرة

٢) العمل والاستقامة

٣) التمسك بالكتاب والسنة وفهم السلف :

٤) التخلق بأخلاق المسلمين .

أخلاق الدعاة وآدابهم :

ورد في القرآن العظيم التنويه بأخلاق الدعاة وصفات المتقين قال تعالى :{ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا(٣٩) } [الأحزاب]

وقال في وصف المتقين { الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ(١٧) } [آل عمران]

وقال تعالى عن عباده المؤمنين : {التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنْ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ(١١٢) } [التوبة]

وقال : { إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا(٣٥) } [الأحزاب]

إن حلية الدعاة وأخلاقهم وصفاتهم هي مفتاح الدعوة الراشدة وبرهانها العملي الماثل ! وأخلاق الدعاة وسمتهم ليست بمثابة السلاح للجندي فحسب ، بل هي أشرف قدراً وأعز مكاناً ، لأنها هي وجودهم وكيانهم الذي من أجله يدعون ولتحقيقه في واقع الناس يسعون ! فالدعوة إنما تكون بالعمل والسلوك قبل أن تكون بالأقوال والخطب وسائر ضروب البيان والتبيين ! والناس في عصرنا أحوج ما يكونون إلى الجانب العملي التطبيقي ، وحاجتهم إلى هذا الجانب أكثر من حاجتهم إلى الجانب البياني التعبيري أو الخطابي ، وأقتصر على الأخلاق الأمهات وهي :

١ – الإخلاص لله تعالى في الدعوة .

٢– الاستقامة .

٣ – التأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم .

٤ – أن يكون الداعي على بصيرة .

٥ – الصبر وتحمل المشاق في سبيل الله .

٦ – الصدق .

وهذا أوان الحديث عن كل واحدة من هذه الصفات الجليلة :

١– الإخلاص لله تعالى في الدعوة : (معنى الإخلاص ، فضله وأهميته ، أنواعه ومظاهره في حياة الدعاة ، آفات ترك الإخلاص)

الإخلاص لغة : ترد مادة (خلـــص) في اللغة بعدة معان منها : الوصول ، يقال خلص إلى الشيء أي وصل إليه ، ومنها : النجاة ، يقال خلّصه تخليصا أي نجاه ، ومنها : الصفاء والخلوص بحيث لا خلط فيه ولا شوب [انظر مختار الصحاح ص ١٨٤ مادة : خلص]

الإخلاص اصطلاحا : قال ابن القيم – رحمه الله – الإخلاص : (إفراد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة) [مدارج السالكين ٦٦/٢] وينوّه في هذا التعريف بمكان الإخلاص ومحله وهو القلب والنية التي عليها مدار الحساب والجزاء . وقال في تعريف آخر الإخلاص : (تصفية العمل من كل شوب) [

مدارج السالكين ٢/٦٦] أي تنقيته من كل ما يشوبه ويكدره ويذهب بصفائه كاتّباع الهوى أو طلب الرياء والسمعة أو نحو ذلك . وقال الرّاغب : (حقيقة الإخلاص التبرّي عن كل ما دون الله تعالى) [مفردات القرآن مادة (خلص) ص ١٥٥]

ومما تقدم يتبين أن الإخلاص هو (أن يريد بالطاعات التقرب إلى الله دون أي شئ آخر) والإخلاص إذا أطلق قصد به كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) وهي كلمة الإخلاص . والإخلاص في حياة الدعاة : أن يقصدوا بعلمهم وعملهم من الأقوال والمواعظ والمساعي الخيّرة وجه الله تعالى ، لا رياء ولا سمعة ولا مصانعة ولا مداهنة ولا طلبا لعرض زائل ولا توخيا لمصالح ومنافع شخصية ولا مطالب دنيوية.

فضل الإخلاص وأهميته في حياة الدعاة : لا يخفى ما للإخلاص من فضل ومكانة وأهمية ، يتبين ذلك من خلال الفقرات الآتية :

أمر الله عز وجل جميع الرسل بالإخلاص له والدعوة إلى ذلك فقال : { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ(٥) } [سورة البينة]

وقال : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِي(٢٥) } [الأنبياء] فالإخلاص في عبادة الله تعالى أساس الدين الحنيف ولب الرسالات السماوية وأساسها ومقصدها بل هو أصل الأصول وقاعدة القواعد .

ولقد أُمر النبي صلى الله عليه وسلم بالإخلاص كإخوانه من الأنبياء والمرسلين ، كما قال تعالى : { إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدْ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ(٢)أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ(٣) } [الزمر]

وقال : { قُلْ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي(١٤)فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ(١٥)} [الزمر] والأمر له صلى الله عليه وسلم أمر لأمته من بعده لاسيما الدعاة الذين اجتباهم الله عز وجل لميراث النبوة والدعوة إلى الهدي القويم والصراط المستقيم .

والإخلاص هو الفارق بين الإيمان والنفاق ، وهو سبيل التخلص من وباء النفاق وبلاء الشقاق ، وهو شرط صحة الإيمان واستقامة العمل ولهذا قال تعالى : { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا(١٤٥)إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا(١٤٦) } [النساء] فالإخلاص وصدق الإيمان قرينان .

وحسبنا دلالة على أهمية الإخلاص وأنافة مكانة ، أنه عليه يتوقف قبول العمل فإن الله عز وجل لا يقبل من الأعمال إلا ما كان لوجهه خالصا ؛ وما كان مع ذلك موافقاً لهدى النبي صلى الله عليه وسلم ، فمتى تحقق الإخلاص والإتباع حصلت السعادة .

ومن الأحاديث المنوهة بقيمة الإخلاص ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ) [م : الإمارة (١٩٠٥) ، ت : الزهد (٢٣٨٢) ، س : الجهاد (٣١٣٧) ، أحمد : المكثرين (٧٩٢٨)] والمتأمل في هذا الحديث النبوي الجليل يجد أن الدعاة لا ينهضون بواجب الدعوة على الوجه الأتم إلا بهذه الأعمال الثلاثة الجليلة : الجهاد ، وتعلم القرآن وتعليمه ، والبذل والإنفاق . فمتى حصل الإخلاص في هذه العُمد الثلاثة حصل القبول .

إن من الإخلاص أن يكون الدعاة في منأى عن التعصب المذهبي أو التحزب أو مناصرة فكرة أو توجه بغير علم ولا هدى بل لمجرد التعصب ، فإن هذا لا يتخلص منه إلا المخلص التقي النقي الذي لا يؤثر شيئا على الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح ، فبذلك يستمسك وعليه يقيم الولاء والبراء .

إن من آفات ترك الإخلاص في حياة الدعاة : طلب العوض من الخلق . وطلب رضا المخلوقين . والرياء وهو إما طلب نفع أو درء ضر . والداعية الأريب يحذر هذا كله ويسمو بدعوته فوق هذه الخسائس .

٤- الاستقامة أي (تطابق القول والعمل) :

(معنى الاستقامة ، فضائلها وأهميتها ، سماتها ، أثرها في نجاح الدعاة)

تعريف الاستقامة : الاستقامة من إقامة الدين أي تطبيقه ، ومعناه : (أن يطابق قول الداعي عمله وأن يتمثل ما يقوله عملاً وسلوكاً ومنهاج حياة دون انقطاع) والاستقامة : (أن لا يخالف الداعي ما يقوله بلسانه عمله بالجوارح والمقاصد) . فالاستقامة الصادقة هي التي تجتمع فيها ثلاثة عناصر رئيسة

: الديانة ، والاستطاعة ، والمداومة ، وعليه فالاستقامة تتناول كافة العبادات والمعاملات والأخلاق ، وكل ما ينضوي تحت مسمى العقيدة والشريعة .

وقد ذكرت الاستقامة في القرآن العظيم والسنة النبوية الشريفة في عدة آيات :

منها النص على لفظ (الاستقامة) قال تعالى : { فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(١١٢) } [هود] وقال : { وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(١٦) } [الجن] ومنها (التمسك) بالقرآن والسنة ، قال تعالى : { وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ(١٧٠) } [الأعراف]

ومنها (الاستمساك) قال تعالى : { فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(٤٣) } [الزخرف] ومنها (الإتباع) قال تعالى : { اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ(١٠٦) } [الأنعام] وكل واحدة من هذه المعاني ورد في السنة النبوية ما يفسرها ويوضحها ، مثل حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين عضوا عليها بالنواجذ) [ت : العلم (٢٦٧٦) وقال حسن صحيح ، ماجة : المقدمة (٤٢) ، د : السنة (٤٦٠٧) ، أحمد : الشاميين (١٦٥١٩)]

والمسلمون أحد رجلين إما متدين متمسك بأحكام الدين وإما متهاون ، والمستقيمون على الدين هم المتمسكون به المؤتمرون بأمر الشرع المنتهون عما نهى عنه ، والاستقامة على الدين في حق الدعاة إلى الله أوجب وألزم ، ينبغي أن يكونوا أشد الناس محاسبة للنفس ومراجعتها وأطرها على الحق أطرا ، فهم الموقعون عن الله المبلغون شرع الله .

فضل الاستقامة : من فضائل استقامة الدعاة على ما يدعون إليه : أن الله جل ذكره أثنى على الذين تطابق أقوالهم أفعالهم إذ مدحهم ورفع من قدرهم ، قال تعالى :(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ(٣٣)) [فصلت] فالدعوة إلى الله صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن بعده صالح المؤمنين كالدعاة والمنادين للصلاة والمعلمين والمصلحين ونحوهم [النكت والعيون للماوردي ٥ / ١٨١ و الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٥ / ٣٥٩]

لقد انتظم المدح والتنويه في الآية الشريفة الأفعال الثلاثة الجليلة المذكورة في الآية وهى :

١- الدعوة إلى الله جل ثنائه . ٢- العمل وفق هذه الدعوة وهو العمل الصالح الذي تحقق فيه الإخلاص لله والإتباع لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ٣- ولزوم جماعة المسلمين بترك الاختلاف والتفرق والتشرذم والتنازع على الترتيب المذكور في الآية هكذا : (دعا ، وعمل ، وقال) ومتى ترك الداعي شيئاً منها فقد قصر في حق نفسه وفى حق من يدعوه إلى الله .

والله عز وجل كما مدح من يلتزمون بما يدعون إليه من الخير والإسلام ، فقد ذم من تخالف أقوالهم أعمالهم وشنع عليهم قبح هذا العمل ، قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ(٢)كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ(٣) } [الصف]

وقال في موضوع آخر { أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ(٤٤) } [البقرة]

وقال نبي الله شعيب عليه الصلاة والسلام لقومه : (وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ(٨٨) } [سورة هود]

ومن فضائل الاستقامة النجاة من العذاب يوم التناد فعن أسامة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه [أي أمعاؤه] في النار فيدور كما يدور الحمار برحاه ، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون أي فلان ما شأنك ؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ قال : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه) [متفق عليه : خ : بدء الخلق (٣٢٦٧) واللفظ له ، م : الزهد (٢٩٨٩)]

ففي الحديث أن المؤاخذة على الداعية والمحتسب أشد من غيره لالتباسه بشرف الدعوة انتسابا وتخليه عن ذلك امتثالا ..

سمات الاستقامة :

أولا – سمة الديمومة :

قال تعالى : { إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(١٩)إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا(٢٠)وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا(٢١)إِلَّا الْمُصَلِّينَ(٢٢)الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ(٢٣) } الآيات [المعارج] ثم نوه مرة أخرى بأهمية الصلاة وأثرها بعد أن ذكر الصدقة والإيمان بالبعث والخشية من الحساب وحفظ الفروج وأداء الأمانات والقيام بالشهادات فقال : { وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ(٣٤)أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ(٣٥) } [المعارج] والمتأمل في كتاب الله تعالى يجد مدحا وثناء للمداومين على العبادة المرابطين في حياضها مثل قوله تعالى: { فَإِذَا قَضَيْتُمْ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا(١٠٣) } [النساء]

وقوله في مدح عباده المتقين { الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(١٩١) } [آل عمران] وقال

في صفات المتقين : { إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ } الآيات [الأحزاب : ٣٥] والقانتون هم المداومون على العبادة والطاعة

وقال تعالى{ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ(٩٩) } [الحجر] واليقين هنا الموت كما ذكره جمهور المفسرين ومنهم ابن عباس والمعنى : اعبد ربك حتى يأتيك الموت ، وفيه دلالة على أن منهج الدوامة والاستمرار في الالتزام بالدين الحنيف هو منهج الأنبياء الذي لا يصح منهج غيره .

ومن السنة حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (أكلفوا من العمل ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا وإن أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل) قالت : (وكان صلى الله عليه وسلم إذا عمل عملا أثبته) [متفق عليه : خ : الإيمان حديث (٤٣) ، م : صلاة المسافرين (٧٨١) واللفظ له] أي داوم عليه .

وفي رواية أخرى لها رضي الله عنها : (كان فراشه صلى الله عليه وسلم حصيرا وكان يحجره من الليل [أي يتخذ منه حجرة] فيصلي فيه فجعل الناس يصلون بصلاته ! ويبسطه في النهار فثابوا [أي اجتمعوا] ذات ليلة فقال : (يا أيها الناس عليكم من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا وإن أحب العمل إلى الله ما دووم عليه وإن قل) قالت : (وكان آل محمد صلى الله عليه وسلم إذا عملوا عملا أثبتوه) [متفق عليه : خ : (٤٣) ، م : صلاة المسافرين (٧٨٢)] [أي داوموا على فعله] . وهذه روايات يوضح بعضها بعضا ، وفي رواية أخرى أنها سئلت : أي العمل كان أحب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : (الدائم) قال الراوي قلت فمتى كان يقوم ؟ قالت : إذا سمع الصارخ . [صحيح البخاري مع الفتح ١ / ٤٥]

ثانيا – سمة الشمول :

لقد أكمل الله عز وجل هذا الدين وارتضاه لعباده فهو كامل شامل ، قال تعالى : { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة : ٣] وقال تعالى : { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ(٨٩) } [النحل] وقال { وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا(١٢) } [الإسراء] وقد مضى سلف الأمة الصالح رضوان الله عليهم على هذا ، ومما يؤثر في هذا عن عمر بن عبد العزيز – رحمه الله – فيما أخرجه البخاري في أول كتاب الإيمان من صحيحه أنه كتب إلى عدي بن عدي : (إن للإيمان فرائض وشرائع وحدودا وسننا ، فمن استكملها استكمل الإيمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان ، فان أعش فسأبينها لكم حتى تعملوا بها ، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص) [صحيح البخاري ١/٤٥ ط فتح الباري المطبعة السلفية]

وأقل ما يجب على المسلم الاستقامة عليه الإيمان بأركان الإيمان الستة كما في حديث جبريل المشهور حين سأل النبي صلى الله عليه وسلم : ما الإيمان ؟ قال : (أن تؤمن بالله وبملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث) وعند مسلم : (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه) وعنده – أيضا – (وتؤمن بالبعث وتؤمن بالقدر كله) [متفق عليه : خ : الإيمان (٥٠) ، م : الإيمان (٩ – ١٠)]

والاستقامة بعد ذلك على أركان الإسلام ، وفي حديث طلحة بن عبيد الله قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم من أهل نجد ثائر الرأس ، يسمع دوي صوته ولا يفقه ما يقول حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : { خمس صلوات في اليوم والليلة } قال هل على غيرها؟ فقال :{ لا إلا أن تطوع } قال رسول الله صلى الله عليه وسلم { وصيام رمضان } فقال : هل على غيره ؟ فقال : (لا. إلا أن تطوع) قال وذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم الزكاة قال هل على غيرها ؟ قال : (لا . إلا أن تطوع) قال: فأدبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد على هذا ولا انقص قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أفلح إن صدق) [متفق عليه : خ : الإيمان (٤٦) ، م : الإيمان (١١)]

فلا يعذر المسلم بجهله أركان إلا سلام وهي خمسة معلومة كما وردت في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(بني الإسلام على خمس شهادة إلا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان) [متفق عليه : خ : الإيمان (٨) ، م : الإيمان (١٦)]

ثم يتحرى المسلم في استقامته التمسك بتعاليم الدين على ضوء ما بينه الله عز وجل وبينه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأقوال والأعمال والمقاصد ، ثم يترقى المسلم في مدارج الإيمان ومراتب الإحسان ، وكان تمسكه صلى الله عليه وسلم بالدين في أسنى مراتبه وأرقى درجاته وعلى أشمل منهج ، ولقد وصفت ذلك أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بقولها :(كان خلقه القرآن) [م : صلاة المسافرين (٧٤٦) ، ن : قيام الليل (١٦٠١) ، أحمد : الأنصار (٢٣٤٦٠)] ومعناه كما يقول الإمام النووي : العمل به والوقوف عند حدوده والتأدب بآدابه والاعتبار بأمثاله وقصصه وتدبره وحسن تأويله [المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٦ / ٢٦]

ومعلوم أن آداب القرآن وأمثاله وقصصه وحدوده تحوي خيري الدنيا والآخرة والعمل وفق هدى القرآن العظيم لا يدع مجالا لمسألة أو قضية أو تصرف أو عمل إلا وله فيها حكم ، علمه من علمه وجهله من جهله .

ثالثا ــ سمة الوسطية والاعتدال : من خصائص الدين الحنيف أنه دين وسط وصراط مستقيم لا عوج فيه يهدي إلى الحق وإلى التي هي أقوم ، ومن خصائص الأمة المحمدية أنها أمة وسط بين الأمم رفع الله عنها الإصر والأغلال التي كانت على من سبقتها من الأمم ، قال تعـــالى : { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا } [البقرة : ١٤٣] وقال عن خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم : { يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ } [الأعراف : ١٥٧]

فالإسلام منهج وسط بين الإفراط والتفريط ، نهى عن الطرفين المتناقضين كليهما ، ونوه بالمنهج الأوسط والصراط الأقوم ، ولنتأمل كيف حذر الإسلام من طرفي النقيض التهاون والتنطع ، وكلاهما من التطرف .

فالتشدد في الدين والتنطع والتعمق منهي عنه كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : (إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشئ من الدلجة) [خ : الإيمان (٣٩) ، س : الإيمان وشرائعه (٥٠٣٤) والدلجة : المشي آخر الليل للعبادة]

والمشادة في الدين كما يقول ابن حجر : المغالبة يقال شادّه يشادّه مشادّة إذا قاواه ، والمعنى : لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيغلب ، قال : وليس المراد طلب الأكمل في العبادة فانه من الأمور المحمودة ، بل منع الإفراط المؤدي إلى الملل والمبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل ، وأهل اللغة قالوا : السداد التوسط في العمل ، وقوله (وقاربوا) أي إن لم تستطيعوا الأخذ بالأكمل فاعملوا بما يقرب منه [الفتح ملخصا ١ / ٩٤ – ٩٥]

رابعا – سمة المسارعة والمبادرة : قال الله تعالى : { سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ(٢١) } [الحديد]

وقال : { وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١٤٨) } [البقرة]

وقال : { وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(١٠٠)} [التوبة] فذكر خيار الأمة بسمة المسارعة إلى الخير والسبق إلى الخيرات ، وهم من هم في الفضل وأنافة

الفضل المشهود لهم بنص القرآن بهذه السمة الجليلة . وقال عن الأنبياء عليهم السلام : { أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ(٦١) } [المؤمنون]

وقد لفت الإمام السعدي إلى معنى بديع في الآية فقال : أولئك يسارعون في الخيرات أي في ميدان التسارع في أفعال الخير همهم ما يقربهم الى الله وإرادتهم مصروفة فيما ينجي من عذابه فكل خير سمعوا به أو سنحت لهم الفرصة انتهزوه وبادروه ، قد نظروا إلى أولياء الله وأصفيائه أمامهم ويمنة ويسرة يسارعون في كل خير وينافسون في الزلفى عند ربهم فنافسوهم [تيسير الكريم الرحمن ٥/ ١٧٨] وقال : { وفي ذلك فليتنافس المتنافسون } [المطففين : ٢٦]

وقال النبي صلى الله عليه وسلم :(بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا ، أو يمسي مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا) [م : الإيمان (١١٨) ، د : الفتن والملاحم (٤٢٥٩) ، ت : الفتن (٢١٩٥) ، أحمد : المكثرين (٧٦٨٧) ، واللفظ لمسلم والترمذي]

فالاستباق والمسارعة والتنافس في الخير بروح الجماعة والمبادرة إلى الطاعة ، كل ذلك لما ينبغي أن يكون عليه المسلم قبل أن تأتيه المنية أو يداهمه مرض أو عجز وشغل ، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : (بادروا بالأعمال سبعا هل تنتظرون إلا فقرا منسيا أو غنى مطغيا أو مرضا مفسدا أو هرما مفندا أو موتا مجهزا أو الدجال فشر غائب ينتظر أو الساعة فالساعة أدهى وأمر) [ت : الزهد (٢٣٠٦) وقال حسن غريب ، أحمد : المكثرين (٧٩٥٢)]

إن من الأدواء التي تردي بالناس فتوقعهم في الخسران الأماني وطول الأمل والتسويف فمن ابتلي به ابتلي بالوهم والسراب ومخادعة النفس !

خامسا – سمة الخوف والرجاء : ومقتضاه ترك الاعتداد بالنفس أو الاغترار بالعمل مهما عظم أو كثر ، فان العبرة بالقبول وانما يتقبل الله من المتقين ، والمسلم لا يزكي نفسه ولا يأمن مكر الله ، بل يكون بين الخوف والرجاء كما قال تعالى : { أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ(٩) } [الزمر] فذكر الحذر من عذاب الآخرة ورجاء رحمة الله وجعله من العلم واللب وهو حصافة العقل قال ابن كثير : أي في حال عبادته خائف راج ولابد في العبادة من هذا وهذا وأن يكون الخوف في مدة الحياة هو الغالب ولهذا قال { يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه } فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه [تفسير ابن كثير ٤ / ٥١]

ومن ثمرات الخوف والرجاء اجتناب الإصرار على المعاصي قال تعالى : { وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا

وَهُمْ يَعْلَمُونَ(١٣٥) } [آل عمران] بل تجنب الوقوع فيها أصلا ، فإنه لا يقع في معصية الخالق البارئ إلا ضعيف الإيمان خوار العزيمة .

وتأمل حديث أبي هريرة وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (لن ينجي أحداً منكم عملُه) قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : (ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته ، سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيء من الدلجة والقصد القصد تبلغوا) [متفق عليه : خ : الرقاق (٦٤٦٣) واللفظ له ، م : صفة القيامة (٢٨١٦)]

ومما يذكر من سيرة السلف في الرجاء والخوف أن أحدهم كان دائم المحاسبة للنفس والإزراء عليها والخوف من الوقوع في بلاء النفاق ! ولهذا عنون الإمام البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان فقال : باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر ، ونقل عن أبي مليكة قوله : أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه ما منهم أحد يقول أنه على إيمان جبريل وميكائيل ، ويذكر عن الحسن : ما خافه إلا مؤمن ولا أمنه إلا منافق ، وما يحذر من الإصرار على النفاق والعصيان من غير توبة لقول الله تعالى : { وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ(١٣٥) } [آل عمران] [خ : ١ / ١٠٩ باب ٣٦]

أثر استقامة الداعي في نجاح الدعوة :

ما من شك أن الاستقامة الصادقة التي يتحقق فيها الإخلاص واقتفاء الشرع وهديه تثمر توفيقا وسدادا في حياة الدعاة، ويكلل سعيهم بسمة الصلاح والإصلاح ، وفي ما يلي أبرز المؤثرات التي تنجم عن استقامة الداعي على ما يدعو إليه :

١- في استقامته دلالة بينة وإلماعة جلية على صدقه في دعوته ، ولئن كانت استقامة الداعي من أمارات صدقه وبواعث الاستجابة له فهو كذلك من دواعي توقيره وتبجيله ، والناس منذ كانوا مفطورون على احترام الصادقين الجادين الذين تطابق أقوالهم أفعالهم ، فمتى وقّروا شخصا وجل مكانه في أعينهم تفتحت له القلوب وأصغت إليه الأسماع ونال ببركة الاستقامة القبول !

٢- والاستقامة أسلوب في الدعوة ، وهو أسلوب الدعوة العملية أو الدعوة بالأفعال وهو ما يسمى بأسلوب القدوة ، ولا تقل أهمية عن الدعوة القولية ، بل الناس في عصرنا أحوج ما يكونون إلى الدعوة العملية لأنهم لا يتأثرون بالأقوال بقدر ما يتأثرون بالأفعال ، وهذا يتناسق والمبدأ الاجتماعي المقرر لقوة التأثر والتأثير ، ودوافع المحاكاة والتقليد .

٣- تستجلب استقامة الدعاة ثقة الناس ، فيرون في تصرفات الداعي أو العالم أو المفتي صورة مثلى لما يدعو إليه وينادي به دون أن يسألوا عن صحة عمل الداعي أو تصرفه بعد اعتقاد الصلاح فيه ،

وهم يحسبون أن الدعاة إذ يدعون إلى الصواب والرشد فلا يفعلون إلا الصواب والرشد ! وهذا الاستنتاج العامي هو مكمن الخطر ، ومن هنا ورد التشديد في زلة العالم ، والدعاة إلى الله تعالى من موقع مسؤلياتهم الشرعية والأدبية مؤاخذون في باب الاستقامة بما لا يؤاخذ بمثله غيرهم ..

٣ – التأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم : (معناه ، أهم مستلزماته)

التعريف : التأسي الأسوة والأسوة – بضم الهمزة وكسرها – الحالة التي يكون عليها الإنسان في إتباع غيره إن حسنا وان قبيحا ،وان سارا وان ضارا ، ولهذا قال الله تعالى : { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ (٢١)} [الأحزاب] فخصها بالحسنة [مفردات القرآن ص ١٨ مادة : أسا]

فالتأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم معناه : تجريد المتابعة له في كل دقيق وجليل من أمور الدين ، وإذا كان هذا مطلب عامة المسلمين لا يسعهم إلا ذلك كما قال تعالى :{ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ } [الأحزاب : ٣٦] فهو في حق الدعاة ألزم وأوجب .

والنبي صلى الله عليه وسلم هو المثل الأعلى للدعاة وعموم المسلمين في حياتهم الخاصة والعامة ، والله جل وعز جعل نبيه صلى الله عليه وسلم الهادي والمبلغ ، والسراج المنير للناس كافة قال تعالى :{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا(٤٥)وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا(٤٦) } [الأحزاب] فهو صلى الله عليه وسلم كما يقول أبو السعود في تفسيره : يستضاء به في ظلمات الجهل والغواية ، ويهتدى بأنواره إلى مناهج الرشد والهداية ، فبحسب متابعته صلى الله عليه وسلم تكون العزة والنصر والسؤدد . اهـ

إن من أهم مستلزمات التأسي به صلى الله عليه وسلم التسليم له والصيرورة إلى هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم والإذعان لأمره ، وقد اقسم رب العزة والجلال بأن من لم يرض بحكمه فليس بمؤمن حتى يسلّم ، قال تعالى : { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا(٦٥)} [النساء]

وقد يبتلى بعض الدعاة بالتعصب لحزب أو شيخ أو مقصد دون نظر إلى منهج النبي صلى الله عليه وسلم ولا تبصر فيه ، ولا تبصر بمقررات الدين وثوابه ومبادئه ، وهذا بلاء عظيم يفرق الكلمة ويشتت الصفوف ويبذر العداوة والبغضاء بين الدعاة ويجعل الأمة الواحدة القوية المرهوبة أوزاعا وفرقا متناحرة متعادية ! إن الانحياز إلى غير المنهج النبوي ليس من سمات المؤمنين ، وان تعظيم المشايخ على جهة التحزب لهم والتعصب لآرائهم ينافي التأسي بإمام الدعاة صلوات الله عليه ، إن تلاحم الصف ولم الشمل ووحدة الكلمة لهو من آكد ما ينبغي أن يكون عليه الدعاة ، ويغير ذلك لن تخطو

الدعوة خطوات مباركات كما كان الحال في القرون المفضلة ، فالولاء ينبغي أن لا يكون إلا لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ولصالحي المؤمنين .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : (ليس لأحد أن ينصب للأمة شخصا يدعو إلى طريقته ويوالي ويعادي عليها غير النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا ينصب لهم كلاما يوالي عليه ويعادي غير كلام الله ورسوله ، وما اجتمعت عليه الأمة ، بل هذا من فعل أهل البدع الذين ينصبون له شخصا أو كلاما يفرقون به بين الأمة ، يوالون على ذلك الكلام أو تلك النسبة ويعادون) [مجموع الفتاوى ٢ / ١٦٤]

وما أحوج الدعاة إلى تبصر هذا الأمر العظيم والمقصد الجليل في عصرنا هذا خاصة حيث كثرت الفرق والأحزاب وتعصب لها الدعاة حتى كاد بعضهم يشتغل بها عن الدعوة ، فلا يرى الإسلام ولا يرى الدعوة إليه إلا من خلال المنظور الحزبي والتفسير المذهبي ، فأنى يكون مثل هذا من الدعاة المصلحين ! يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : (ومن نصب شخصا كائنا من كان فوالى وعادى على موافقته في القول والفعل فهو من { الّذِينَ فَرّقُوا دِينهُمْ وَكَانُوا شِيعاً } [الأنعام : ١٥٩] وإذا تفقه الرجل وتأدب بطريقة قوم من المؤمنين مثل إتباع الأئمة والمشايخ فليس له أن يجعل قدوته وأصحابه هم المعيار فيوالي من وافقهم ويعادي من خالفهم ، فينبغي للإنسان أن يعود نفسه التفقه الباطن في قلبه والعمل به فهذا زاجر وكمائن القلوب تظهر عند المحن ، وليس لأحد أن يدعو إلى مقالة أو يعتقدها لكونها قول أصحابه ولا يناجز عليها بل لأجل أنها مما أمر الله به ورسوله أو أخبر الله به ورسوله لكون ذلك طاعة لله ورسوله ، وينبغي للداعي أن يقدم فيما استدلوا به من القرآن فانه نور وهدى ، ثم يجعل إمام الأئمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم كلام الأئمة) [مجموع الفتاوى ٢٠ / ٨ – ٩]

٤– أن يكون على بصيرة : (تعريف البصيرة ، مجالاتها ، أهم مظاهرها)

البصيرة في اللغة عقيدة القلب وتحقق اليقين والعبرة [انظر لسان العرب مادة (بصر) ٤ / ٥٤]

والبصيرة في مجال الدعوة : تتضمن أمرين (العلم والإيمان) فمن كان عالماً بالشرع مؤمنا بالله تعالى متمسكا بما كان عليه صحابة النبي صلى الله عليه وسلم كان على بصيرة ، ومَن جمع العلم والإيمان نال منزلة عالية قال تعالى : { يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(١١)} [المجادلة] والمعنى : يرفع الله الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم درجات في دينهم إذا فعلوا ما أمروا به [تفسير القرطبي ١٧ / ٢٩٩] ، والبصيرة بعد ذلك هي اليقين

والفطنة وسعة الإدراك والكياسة والبرهان وقال الحافظ ابن كثير في قوله تعالى { قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ(١٠٨) } [يوسف] هي الدعوة إلى شهادة ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، يدعو بها إلى الله على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان هو وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم على بصيرة وبرهان عقلي ونقلي [تفسير ابن كثير ٢ / ٤٩٦]

مجالات التبصر في الدعوة :

١- التبصر بموضوع الدعوة : وهو الدين بمراتبه الثلاث : الإحسان والإيمان والإسلام كما في حديث جبريل المشهور ، إن التبصر بموضوع الدعوة ومقصودها من أعظم ما يجب أن يتبصره الدعاة لأن من جهل ما يدعو إليه تنكب الصراط فدعا إلى غير الدين واشتغل بأغراض أخرى ضلّ وأضلّ ، والدين الذي ارتضاه الله إنما هو الإسلام كما قال تعالى : { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ } [آل عمران : ١٩] وقال { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ(٨٥) } [آل عمران]

٢- التبصر بأساليب الدعوة وطرائقها : والتبصر بمناهج الإصلاح ومقاصده ، ومنه العلم بظروف الزمان والمكان والحال البيئية وأحوال الناس فلكل مقام مقال ولكل حال مآل ، والحكيم من الدعاة من يضع أقواله وأعماله مواضعها الحسنة بالأسلوب الأمثل والمنهج الاعدل والطريق الاقوم ، وأصول أساليب الدعوة جمعها قول الباري جل ذكره : { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ(١٢٥) } [النحل] والحكمة هي وضع الشيء في موضعه والحكمة مما يغبط عليها من يعطاها ، وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : (ورجل آتاه الله الحكمة يقضي بها ويعلمها) [متفق عليه : خ : العلم (٧٣) ، م : صلاة المسافرين (٨١٦)]

ومن أوسع أبواب الأساليب والوسائل الترغيب والترهيب ، ووصف الله الرسل عليهم السلام فقال : { رسلا مبشرين ومنذرين } [النساء : ١٦٥] ومن صفات الدعاة المستبصرين التيسير والرفق وفي التوجيه النبوي الكريم للدعاة : (إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين) رواه أبو هريرة رضي الله عنه [خ : الوضوء (٢٢٠) ، ت : الطهارة (١٤٧) ، د : الطهارة (٣٨٠) ، س : الطهارة (٥٦) ، ماجة : الطهارة وسننها (٥٢٩)]

٣-التبصر بأحوال المدعوين : وأخلاقهم وعوائدهم وطباعهم وأعرافهم وما يصلح لهم وما يقبلون عليه ويتقبلونه وما ينفرون عنه ، فيعطى لكل الأحوال ما يلائمها من أساليب الخطاب ، ويصف لكل ذي سقم دواءه في حكمة وروية من غير أن يكلف نفسه أو غيره الشطط والعنت ، ومن تأمل هدي

النبي صلى الله عليه وسلم في مثل هذا وجده أكمل هدي وأعدله ، فلقد كان يخاطب كل إنسان بحسب فهمه ومقامه وما يصلح حاله ، وكان عارفا بطبائع الناس على اختلاف أعراقهم ودرجاتهم وفي حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم : (أنزلوا الناس منازلهم) [د : الأدب (٤٨٤٢) قال كشف الخفاء ٢٤١/١ : رواه مسلم وأبو داود] وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم : (إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه) [ماجة : الأدب (٣٧١٢) ، والبيهقي في شعب الإيمان ٤٦١/٧ ، قال الحاكم في المستدرك ٣٢٤/٤ (٧٧٩١) : هذا حديث صحيح ولم يخرجاه بهذه السياقة ، وقد ضعفه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٦/٨ ، ورواه الهمذاني من مأثورات عدي بن حاتم انظر الفردوس بمأثور الخطاب ٣٣٩/١ (١٣٥٠)] وقال ابن مسعود رضي الله عنه في مراعاة الفروق الفردية في المخاطبين : (ما أنت بمحدث قوما حديثاً لم تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة) [م : المقدمة ١١/١]

وقال صلى الله عليه وسلم عن الشباب مبينا طبيعة هذه المرحلة من عمر الإنسان وأنهم تغلب عليهم الشهوات: (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء) رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه [متفق عليه : خ : النكاح (٥٠٦٦) ، م : النكاح (١٤٠٠)]

وفي الشيوخ حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا : (لا يزال قلب الكبير شابا على حب الدنيا وطول الأمل) [متفق عليه : خ : الرقاق (٦٤٢٠) واللفظ له ، م : الزكاة (١٠٤٦)]

وفي النساء وأخلاقهن حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : (استوصوا بالنساء خيرا فإنهن خلقن من ضلع وان أعوج شئ في الضلع أعلاه فان ذهبت تقيمه كسرته وان تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيرا) [متفق عليه : خ : النكاح (٥١٨٦) واللفظ له ، م : الرضاع (١٤٦٨)]

وجاء في أخلاق كثير من أهل الأمصار والقبائل ما لا يتسع له المقام كما في أهل اليمن ووصف طبائعهم حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : (جاء أهل اليمن أرق أفئدة وأضعف قلوبا الإيمان يمان والحكمة يمانية السكينة في أهل اليمن والفخر والخيلاء في الفدادين أهل الوبر) [متفق عليه : خ : بدء الخلق (٣٣٠١) ، م : الإيمان (٥٢) واللفظ له] والفدادون من تعلو أصواتهم في إبلهم وخيلهم وحرثهم من الفديد وهو الصوت الشديد ..

ومن البصيرة البحث عن بيئة جديدة وتربة صالحة للدعوة إن لم يجد في بيئته استجابة ولا قبولا فإن أرض الله واسعة ، ورسالة الإسلام عامة للناس كافة ، فهذه النصوص وغيرها كثير تعطي دلالات على أن الداعية ينبغي أن يكون مطلعا على عوائد الناس وطبائعهم ، وأن يكون حكيما في دعوة كل صنف من الناس بحيث ييسر ولا يعسر ويجمع ولا يفرق ويحبب ولا ينفر .

٤- التبصر بأخلاق الدعاة : وما ينبغي أن يتحلوا به مما تشمله الأخلاق الإسلامية الرفق والحلم والأناة والصبر وسعة البال ولين الجانب وطول النفس وإدامة المودة والبشاشة وإفشاء السلام .. إلى غير ذلك من حميد الأخلاق وكريم الخصال .

٥- التبصر بأهداف الدعوة الإسلامية : وبمقاصدها العليا ومراميها النبيلة ، وهي على الجملة إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العالمين ، ومن حمأة الشهوات والأهواء وضيقها إلى سعة الحرية والتقوى والصلاح والإصلاح ، إخراج الناس من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان والتوحيد ، ومن دركة الجهل إلى درجات العلم ونوره ، ومن حضيض المعاصي إلى رفعة الطاعة ، قال تعالى : { الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(١)}[إبراهيم]

أهم مظاهر البصيرة :

من أبرز مظاهر التبصر في حياة المسلم عامة في حياة الدعاة خاصة :

١ – عدم الاغترار بالدنيا : فالمؤمن على يقين ورشد ، يعرف عدداً من الحقائق والثوابت ويؤمن بها ، منها : حقيقة الدنيا وأنها بالنسبة للآخرة شيء يسير ومتاع حقير ، قال تعالى { أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ(٣٨)} [التوبة] وأن مآل الدنيا إلى الزوال والاضمحلال والفناء ، وأما الآخرة فباقية دائمة ، قال تعالى : { مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٩٦) } [النحل] ، وأن الاشتغال والتلهي بالدنيا عن الآخرة أول طريق الضياع ، قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ(٩) } [المنافقون]

وعلى الجملة فالدنيا معبر لا مستقر يؤخذ منها بقدر الحاجة وبقدر البلاغ ، فهي مطية للآخرة وليست مقاما ، وهذه الحقيقة الماثلة كثيراً ما يقررها القرآن العظيم ويؤكدها ويلفت الأنظار إليها وينبغي أن لا تغيب عن بصيرة الدعاة .

وفي حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إني لست أخشى عليكم أن تشركوا ببعدي ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها وتقتتلوا فتهلكوا كما هلك من كان قبلكم) [متفق عليه : خ : الجنائز (١٣٤٤) ، م : الفضائل (٢٢٩٦) واللفظ له]

وهذا دأب خيار الأمة من سلفها الصالح ، ودونك لمحة من سيرة الإمام علي رضي الله عنه من رواية ضرار بن حمزة قال : (.. وأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سجوفه وغارت نجومه وقد مثل في محرابه قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين ، وكأني أسمعه

وهو يقول : يا دنيا يا دنيا ! أبي تعرضتِ أم لي تشوفت ؟ هيهات هيهات غُرّي غَيْرِي ، قد بَتَتُّكِ ثلاثاً لا رجعة لي فيك ، فعمرك قصير ، وعيشك حقير ، وخطرك كبير ، آه من قلة الزاد ، وبُعد السفر ووحشة الطريق . [صفة الصفوة ١ / ٣١٦]

٢ – الاشتغال الدائب بيوم القيامة : وهو من لوازم التبصر بحقيقة الدنيا فمن عرف مآلها وحقيقتها لم يغتر بها بل اشتغل بالذي هو خير وأبقى ، اشتغل بيوم الدين وأهواله وكروبه ، وعمل دائبا على وقاية نفسه وغيره يوما كان شره مستطيرا قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(١٨)} [الحشر] وقال في مدح من يعمل لآخرته : { أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ(٩) } [الزمر]

٣– اللباقة والكياسة والفطنة وسعة الإدراك ونفاذ البصيرة : وهذه من لوازم البصيرة ومظاهرها ، ومن ذلك تجنب ما يسوء المدعو ويصرفه عن الحق واعتناقه ، وتقدير العواقب التي تعود على الدعوة وحملتها بالضرر ، وتوخي الحكمة في الأسلوب وتجنيب الدعوة عدوان المعتدين وصلف المعاندين المكايدين . ومن كياسة الدعاة وفطنتهم اللباقة في الخطاب ، وحسن التصرف في دقائق المواقف ، وألا ييأس ولا يقنط إذا لم يجد استجابة فإنما عليه البلاغ وعلى الله الحساب ، ومن كياسة الدعاة تجنب الخوض في أعراض الدعاة والعلماء وولاة الأمر ، فإن للمسلم حرمة عظيمة فكيف إذا انضافت إليها حرمة العلم وحرمة الولاية ، وما يجب للولاة من طاعة ونصح وإن جاروا ؟! وإذا رأى الدعاة منكراً فعليهم النصح في لطف ومحبة مع الدعاء بظهر الغيب ، فهذا هو منهج السلف في هذه المسألة المهمة . قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : وليس لأحد أن يتبع زلات العلماء كما ليس له أن يتكلم في أهل العلم والإيـــمان إلا بما هم له أهل فإن الله تعالى عفا للمؤمنين عما أخطؤوا كما قال تعالى : { رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } [البقرة : ٢٨٦] (قال الله : فعلت) [م : الإيمان (١٢٦) ، ت : تفسير القرآن (٢٩٩٢) ، أحمد : مسند بني هاشم (١٩٦٦)]

وأمرنا أن نتبع ما أنزل إلينا من ربنا ولا نتبع من دونه أولياء ، وأمرنا ألا نطيع مخلوقاً في معصية الخالق ونستغفر لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان فنقول : { رَبَّنَا اغفْر لنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ } [الحشر : ١٠] وهذا أمر واجب على المسلمين في كل ما كان يشبه هذا من الأمور ، ونعظم أمره تعالى بالطاعة لله ورسوله ، ونرعى حقوق المسلمين لا سيما أهل العلم منهم كما أمر الله ورسوله ، ومن عدل عن هذه الطريق فقد عدل عن اتباع الحجة إلى إتباع الهوى والتقليد وآذى المؤمنين

والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فهو من الظالمين ، ومن عظّم حرمات الله وأحســـن إلى عباد الله كان من أولياء الله المتقين ، والله سبحانه أعلم [مجموع الفتاوى ٣٢ / ٢٣٩]

٥ ــ الصبر : (تعريفه ، فضله وأهميته ، أنواعه ، لوازمه)

الصبر في اللغة : الحبس ، وفي الحديث : (نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن تصبر البهائم) [متفق عليه : خ : الذبائح (٥٥١٣) ، م : الصيد (١٩٥٦) وانظر الفتح ٩ / ٦٤٤] أي تحبس حتى تموت ، أو تحبس وهي حية لتقتل بالرمي ونحوه كما يقول النووي ، والصبر : التجلد وحسن الاحتمال [المعجم الوسيط مادة (صبر) ١ / ٥٠٨] .

وفي الاصطلاح : (حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع أو عما يقتضيانه حبسهما عنه) قاله الراغب [مفردات القرآن مادة (صبر) ص ٢٧٤] وقال الإمام ابن القيم : (الصبر التباعد عن المخالفات ، والسكوت عن تجرع غصص البلية وإظهار الغنى عند حلول الفقر بساحة المعيشة) [مدارج السالكين ٢ / ١١٧] وأوضح ذلك بقوله : (الصبر حبس النفس عن الجزع والتسخط وحبس اللسان عن الشكوى وحبس الجوارح عن التشويش) [المرجع السابق ٢ / ١١٥]

وبتأمل هذه التعريفات المتنوعة التي كشفت جوانب من الصبر يمكن صوغ تعريف فيقال : الصبر (إيثار المأمور وترك المحظور والصبر على المقدور) فيكون في هذا التعريف جمع لأنواع الصبر الثلاثة .

فضل الصبر وأهميته : لا يخفى ما للصبر من أهمية بالغة في حياة المسلم عامة وفي مسيرة الدعوة والدعاة خاصة ، وقد ذكر الإمام ابن القيم – رحمه الله – في مكانة الصبر ستة عشر وجها ننقل طرفا منها لأهميتها ، قال : (الصبر مذكور في القرآن العظيم على ستة عشر وجها الأول : الأمر به نحو قوله تعالى : { يَا أَيّهَا الّذينَ آمنُوا اسْتعِينُوا بِالصّبْرِ وَالصّلاَةِ } [البقرة : ١٥٣]. الثاني : النهي عن ضده كقوله تعالى : { فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ } [الأحقاف : ٣٥] الثالث : الثناء على أهله كقوله تعالى : { ... وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـــئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوآ وَأُولَـــئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } [البقرة : ١٧٧] وهو كثير في القرآن العظيم . الرابع : إيجابه سبحانه محبته لهم كقوله : { وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ } [آل عمران : ١٤٦] الخامس : إيجابه معيته لهم وهي معية خاصة تتضمن حفظهم ونصرهم وتأييدهم وليست معية عامة وهي معية العلم والإحاطة كقوله : { وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ } [البقرة : ٢٤٩] السادس : إخباره بأن الصبر خير لأصحابه كقوله : { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ(١٢٦) } [النحل] السابع : إيجابه الجزاء لهم بأحسن أعمالهم كقوله تعالى : { وَلَنَجْزِيَنَّ

الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُون (٩٦) } [النحل] .. الخ كلامه) [مدارج السالكين ٢ / ١١٣ – ١١٥ ملخصا ، وانظر الصبر في القرآن الكريم ليوسف القرضاوي]

أنواع الصبر :

للصبر ثلاثة أنواع ذكرها أهل العلم ، وهي :

١– الصبر على طاعة الله تعالى . ٢– والصبر عن المعصية . ٣– والصبر على الأقدار .

وأكمل هذه الأنواع الصبر على الطاعة كما قال الإمام ابن القيم – رحمه الله – قال : والصبر على أداء الطاعات من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل ، فإن مصلحة فعل الطاعات أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية ، ومفسدة عدم الطاعة أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية [مدارج السالكين ٢ / ١١٦]

والصبر في مجال الدعوة وفي حياة الدعاة يشمل هذه الأنواع الثلاثة فهو يصبر على طاعة الله عز وجل ، ويصبر عن المعصية ، كما يصبر على الأقدار والمصائب التي تصيبه جراء الدعوة كما قال تعالى في وصية لقمان : { يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ(١٧) } [لقمان]

والصبر على الابتلاء سنة في حياة المسلم وفي حياة الدعاة على الأخص ، قال تعالى : { الم(١)أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ(٢)وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ(٣)} [العنكبوت]

إن الصبر كما أنه من عوامل نجاح الدعاة هو – أيضا – زادهم وعدتهم ، فبه تزكو نفوسهم وتطهر أفئدتهم ، والصبر مع ملازمة التسبيح والاستغفار – وهي مفاتيح الرزق – عبادة جليلة ، قال تعالى : { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ(٥٥) } [غافر]

لوازم الصبر في مجال الدعوة : للصبر في ميدان الدعوة لوازم نختار منها ما يناسب المقام :

١– عدم الانتقام للنفس : والتسامي بذلك فوق حظوظ النفس ، ومن وفق إلى هذا فقد أوتي حظاً عظيما ، قال ابن تيمية – رحمه الله – : (والناس في الصبر على أقسام ، فأعلاهم من كان على حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه أن يصبروا على أذى الناس لهم باليد واللسان ، ويجاهدون في سبيل الله فيعاقبون ويغضبون وينتقمون لله لا لنفوسهم يعاقبون ! لأن الله يأمر بعقوبة ذلك الشخص ، ويحب الانتقام منه كما في جهاد الكفار وإقادة الحدود ، وأدناهم عكس هؤلاء يغضبون وينتقمون ويعاقبون لنفوسهم لا لربهم ، فإذا أوذي أحدهم أو خولف في هواه غضب وانتقم وعاقب ، ولو

انتهكت محارم الله أو ضيعت حقوقه لم يهمه ذلك ، وهذا حال الكفار والمنافقين ، وبين هذين وهذين قسمان : قسم يغضبون لربهم ولنفوسهم ، وقسم يميلون إلى العفو في حق الله وحقوقهم ، فموسى في غضبه على قومه لما عبدوا العجل كان غضبه لله ، وقد مثل النبي صلى الله عليه وسلم في حقوق الله تعالى أبا بكر بإبراهيم وعيسي وعمر بنوح وموسى فقال : (إن الله يلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ويشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجر ، ومثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم وعيسى ، ومثلك يا عمر كمثل نوح وموسى) [أحمد : المكثرين (٣٤٥٢) وله شاهد عند الترمذي : الجهاد (١٧١٤)]

وأما عفو الإنسان عن حقوقه فهذا أفضل وإن كان الاقتصاص جائزاً ، وكذلك غضبه لنفسه تركه الأفضل وإن كان الاقتصاص جائزا ، وأما ما كان من باب المصائب الحاصلة بقدر الله ولم يبق فيها مذنب يعاقب فليس فيها إلا الصبر والتسليم للقدر) [مجموع الفتاوى ٨ / ٣٣٢]

وفي حديث عائشة رضي الله عنها (وما انتقم رسول الله صلى الله ليه وسلم لنفسه في شئ قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم بها لله) [متفق عليه : خ : الأدب (٦١٢٦) ، م : الفضائل (٢٣٢٧)]

ومن التطبيق العملي قوله صلى الله عليه وسلم : (أَلَا تَعْجَبُونَ كَيْفَ يَصْرِفُ اللَّهُ عَنِّي شَتْمَ قُرَيْشٍ وَلَعْنَهُمْ يَشْتِمُونَ مُذَمَّمًا وَيَلْعَنُونَ مُذَمَّمًا وَأَنَا مُحَمَّدٌ) [خ : المناقب (٣٥٣٣) واللفظ له ، ن : الطلاق (٣٤٣٨) ، أحمد : المكثرين (٧٠٢٩)]

وفرقٌ لطيف بين الانتقام للنفس وبين الاعتزاز بالدين وحمايته والذود عنه ، يتجلى ذلك مما رواه ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحابه جلوس ، إذ قال بعضهم لبعض : أيكم يجئ بسلي جزور بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد ؟ فانبعث أشقى القوم فجاء به فنظر حتى سجد النبي صلى الله عليه وسلم فوضعه على ظهره بين كتفيه وأنا أنظر لا أغني شيئا لو كان لي منعة ! قال فجعلوا يضحكون ويميل بعضهم على بعض ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساجد لا يرفع رأسه حتى جاءته فاطمة فطرحت عن ظهره فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه ثم قال : (اللهم عليك بأبي جهل وعليك بعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن ربيعة وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط ، وعد السابع فلم يحفظ) قال : فو الذي نفسي بيده لقد رأيت الذين عد رسول الله صلى الله عليه وسلم صرعى في القليب قليب بدر ! [متفق عليه : خ : الوضوء (٢٤٠) ، م : الجهاد (١٧٩٤)] قال ابن مسعود : (لم أره دعا عليهم إلا يومئذ ، وإنما استحقوا الدعاء حينئذ لما أقدموا عليه من الاستخفاف به حال عبادة ربه) [الفتح ١ / ٣٥٢]

٢- تجنب العجلة في الوصول إلى ثمار الدعوة :

وتجنب الحماس الزائد المفضي إلى التسرع والطيش ، وهذا ما يتورط فيه الكثير من المبتدئين من الدعاة ، والاستعجال من طبيعة البشر كما في قوله تعالى : { وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً} [الإسراء : ١١] وقوله : { خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧)} [الأنبياء]

ومن الثوابت في مسائل الدعوة وشجونها مما ينبغي أن لا يغفل عنه أن الدعوة إنما تقوم بالحجة والبرهان والبلاغ والكلمة الطيبة والموقف الحكيم وبالأسلوب الهادي الهادئ الرصين وبالإقناع ، مع اليقين بأن الهداية بعد هذا كله بيد الله الكبير المتعال ، قال تعالى : { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ(٩٩) } [يونس] وقال : { إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ } [الشورى : ٤٨] وقال : { فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ } [فاطر : ٨]

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو الناس في مكة وكان ذلك دأبه مع قلة المؤمنين يومئذ ، وكانوا كما قال عـــمار رضي الله عنه : (رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وما معـــه إلا خمسة أعـــبد وامرأتـــان وأبو بكر) [خ : المناقب (٣٦٦٠)]

ومما يدل على أن تجنب الاستعجال من لوازم الصبر حديث خباب بن الأرت قال : شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا : ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا فَقَالَ : (قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ) [خ : الإكراه (٦٩٤٣) ، د : الجهاد (٢٦٤٩) واللفظ له ، وأحمد : البصريين (٢٠١٤٨)]

وفي هذا الحديث الشريف أن لله عز وجل سننا نافذة لا تتخلف ولا تتبدل ، وما على الدعاة إلا إبلاغ الحق والخير للناس لتكون لهم المعذرة إلى ربهم ، والله يهدي ببركة هذه الدعوة من يشاء ..

٣- الاستمرار في الدعوة : لقد كان النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ينال منه عتاة المشركين وغلاظ الأكباد منهم ومع ذلك كان يمضي في دعوته قدما ، مثابرا محتسبا صابرا ، قال عبد الله كأني أنظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم يحكي نبيا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون) [متفق عليه : خ : الأنبياء (٣٤٧٧) ، م : الجهاد والسير (١٧٩٢)]

ولما سئلت عائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما النبي صلى الله عليه وسلم : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ قال : (لقد لقيت من قومك ما لقيت وكان أشد ما لقيت يوم العقبة اذ عرضت نفسي على عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم

على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي ، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال : يا محمد ، فقال ذلك فيما شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا) [متفق عليه : خ : بدء الخلق (٣٢٣١) ، م : الجهاد والسير (١٧٩٥)]

ومما يذكر أيضا من السيرة النبوية من أصناف البلاء الذي تعرض له النبي الكريم صلى الله عليه وسلم حديث عروة بن الزبير قال : سالت عمرو بن العاص : أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال : بينا النبي صلى الله عليه وسلم يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقا شديدا ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : { أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله } [غافر : ٢٨] [خ : المناقب (٣٦٧٨) ، أحمد : مسند المكثرين (٦٦١٤)]

٤- تجنب التعرض للبلاء : فإنه ليس مما يحمد التعرض للفتن فضلا عن السعي إليها وإيقاظها وبثها بين المسلمين ، وقد قال الله تعالى : { وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ } [البقرة : ١٩٥] وقال { وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنْ الْقَتْلِ } [البقرة : ٢١٧] والمقصود من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إحقاق الحق وإبطال الباطل ، فإذا تحقق ذلك بأيسر سبيل لم يجز العدول عنه ، وإذا ترتب عليه شر عظيم ومنكر أكبر حرم الأمر والنهي ، حفظا لبيضة الإسلام من أن تنثلم ووقاية للدعاة من شرور لا قبل لهم بها . ومن حديث النبي صلى الله عليه وسلم : (لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه) قالوا : وكيف يذل نفسه ؟ قال : (يتعرض من البلاء لما لا يطيق) رواه أبو حذيفة رضي الله عنه [ت : الفتن (٢٢٥٤) وقال حسن غريب ، ماجة : الفتن (٤٠١٦) ، أحمد : الأنصار (٢٢٣٤٧) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٧٤/٧ : رجاله رجال الصحيح غير زكريا بن يحيا ولم يتكلم فيه أحد]

وفي رواية معاذ رضي الله عنه قال : سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يقول : اللهم إني أسألك الصبر ! فقال : (سألت الله البلاء فسله العافية) [ت : الدعوات (٣٥٢٧) وقال حديث حسن .]

والعافية من خير ما يعطى المؤمن بعد اليقين كما في حديث أبي بكر رضي الله عنه أنه قام على المنبر ثم بكى فقال : قام رسول الله عام الأول على المنبر ثم بكى فقال : (اسألوا الله العفو والعافية ، فإن أحدا لم يعط بعد اليقين خيرا من العافية) [ت : الدعوات (٣٥٥٨) وقال حسن غريب ، أحمد : العشرة المبشرين بالجنة (٦) ، قال الحاكم في المستدرك ٧١١/١ (١٩٣٨) : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه] ومما يدل أيضا على أن

العافية مطلوبة محمودة قوله صلى الله عليه وسلم : (لا تمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية) رواه عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه [متفق عليه : خ : التمني (٧٢٣٧) ، م : الجهاد (١٧٤٢)]

٦ – الصدق : (تعريفه ، أهميته وفضله ، مجالاته ، أثره في نجاح الدعاة)

تعريف الصدق : الصدق في اللغة : الإخبار بالواقع ، يقال صدق فلان في الحديث صدقا : أخبر بالواقع ، وفي القتال أقبل عليه في قوة ، وفي النصيحة : أخلصها له ، وفي الوعد أوفى به [المعجم الوسيط مادة صدق ١ / ٥١٣] وعند الجرجاني : الصدق ضد الكذب وهو الإبانة عما يخبر به على ما كان [التعريفات مادة (صدق) ص ١٧٤]

وفي الاصطلاح : عند الراغب : مطابقة القول الضمير والمخبر عنه معا قال : ومتى انخرم شرط من ذلك لم يكن صدقا تاما ، ويقصد بالضمير ما يكون في النفس ، وأوضح أن الأصل في الصدق أن يكون في القول ماضيا كان أو مستقبلا [مفردات القرآن كتاب الصاد ص ٢٧٧]

– وعند ابن القيم : حصول الشيء وتمامه وكمال قوته واجتماع أجزائه [مدراج السالكين / ٢٠٨]

وبتأمل هذين التعريفين يتبين أن تعريف ابن القيم أدق وأشمل فهو يبرز المعالم الأساسية وهي : أولا حصول الشيء وهو ما يعبر عنه بمطابقة الحكم للواقع . ثانيا : تمامه فالصدق قد يكون عند تحققه مطابقا للواقع وقد يزاد فيه وقد ينقص منه بحسب أغراض الناقل ، وهو مع اشتماله على بعض الصدق يخرج عن كونه صدقا محضا تاما ، أما حصوله بالدقة بلا تحريف فهو أعلى مراتب الصدق وهو تمامه ، بل هو الصدق حقيقة . ثالثا : مطابقته للحق ، والحق هو الوحي المنزل على خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم وهو المعيار لمعرفة الحق من الباطل والصدق من الكذب والثابت من الزائل والخير من الشر ، فإليه الاحتكام في كل حال .

فضل الصدق وأهميته : لا يخفى ما للصدق من فضل عظيم وثواب جزيل ومقام كريم ، ومما يدل على فضل الصدق وأنافة محله وسمو الصادق وعلو كعبه ما يتلخص في الفقرات التالية :

أ– أنه من خصائص أهل الإيمان والتقوى ، قال تعالى : { إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا(٣٥) } [الأحزاب] فمن اتصف بهذه الصفات العظام وكانت لباسه وحليته فقد فاز ، إذ اتصف بصفات المؤمنين ، وخصه الله تعالى بخصائص المتقين المخبتين .

بـــ- مدح الملازمين الصدق في كل الأحوال ، فذلك سبب النجاة من خزي الدنيا وعذاب الآخرة كما في صدق الثلاثة الذين خلد القرآن قصتهم قال تعالى : { وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ(١١٩) } [التوبة] [أنظر قصتهم في الصحيحين : خ : المغازي (٤٤١٨) ، م : التوبة (٢٧٦٩)]

جـــ – والصدق طريق البر والجنة ، والعكس الكذب المؤدي إلى الفجور والنار عياذا بالله ، وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : (إن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكون عند الله صديقا وإن الكذب يهدي إلى الفجـــور وإن الفجـــور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا) [متفق عليه : خ : الأدب (٦٠٩٤) ، م : البر والصلة (٢٦٠٧)]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (والحسنات والسيئات قد تتلازم ويدعو بعضها إلى بعض ... فالصدق مفتاح كل خير كما أن الكذب مفتاح كل شر ولهذا يقولون عن بعض المشايخ إنه قال لبعض من استتابه من أصحابه أنا لا أوصيك إلا بالصدق فتأملوا فوجدوا الصدق يدعوه إلى كل خير . ولهذا فرق الله سبحانه بين أهل السعادة وأهل الشقاوة بذلك فقال: { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ(٣٢) وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } [الزمر] ، [انظر الاستقامة ١ / ٤٦٧]

د – ومما يدل على قيمة الصدق كما قال ابن القيم أن عليه مدار الولايات كلها وعلى العدل وهما قريبان في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم قال تعالى : { وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ } [الأنعام : ١١٥] ... وقال تعالى : { هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ(٢٢١)تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ(٢٢٢) } [الشعراء] ، [انظر الطرق الحكمية – ص ٣٤٦]

مجالات الصدق في حياة الدعاة : تقدم أن الأصل في الصدق أن يكون في الحديث والكلام وجرى بذلك العرف ، ثم إن الصدق يسري بعد ذلك في اللهجة والسمت والعمل والسلوك والمقصد وكل التصرفات ، وعلى هذا فالصدق يكون :

١- في القصد بمعنى خلوص النية وصدق العزيمة وثبات الإرادة . ٢- في القول بالأخذ بالحق ونبذ الباطل واللهو والمحرم واللغو . ٣- في العمل بموافقة القول العمل ، وموافقتهما هدي الكتاب والسنة . وفيما يلي إيضاح هذه المجالات ببعض تفصيل :

– فالصدق في المقاصد يستلزم إخلاص النية لله تعالى في الدعوة ، وفي كل طاعة وقربى ، فلا يدعو لطلب جاه ولا محمدة ولا لسمعة ولا رياء ولا ليرى مكانه ونحو ذلك من الخسائس .

ومن هذا المنطلق وهو صدق المقصد أبيح الكذب لتحقيق ثلاث مصالح فعن أم كلثوم بنت عقبة رضي الله عنها قال : ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (لا أعده كاذبا الرجل يصلح بين الناس يقول القول ويريد الإصلاح ، والرجل يقول في الحرب ، والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها) [م : البر والصلة (٢٦٠٥) ، د : الأدب (٤٩٢١) ، وأحمد : القبائل (٢٦٠١٥) واللفظ لهما ، وللحديث شاهد عند البخاري : الصلح (٢٦٩٢)] ومن هذا الباب ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه مرفوعا : (لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات : ثنتين في ذات الله عز وجل ، قوله { إني سقيم } [الصافات : ٨٩] وقوله :{ بل فعله كبيرهم هذا} [الأنبياء : ٦٣] وقوله : هذه أختي لزوجته) [متفق عليه : خ : أحاديث الأنبياء (٣٣٥٨) ، م : الفضائل (٢٣٧١)]

قال ابن حجر : وأما إطلاقه الكذب على الأمور الثلاثة فلكونه قال قولا يعتقده السامع كذبا ، لكنه إذا حقق لم يكن كذبا لأنه من باب المعاريض المحتملة للأمرين فليس بكذب محض اهـ

– والصدق في الأقوال يستلزم أن لا ينطق الداعي بالباطل أيا كانت صورته كذبا أو شتما أو سبا أو لعنا أو فحشا أو غيبة أو قول زور ، وتأمل حديث معاذ لما قال للنبي صلى الله عليه وسلم وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ قال له (ثكلتك أمك يا معاذ ! وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم) [ت : الإيمان (٢٦١٦) وقال حسن صحيح ، ماجة : الفتن (٣٩٧٣) ، أحمد : الأنصار (٢١٠٠٧)] فالداعية أبعد الناس عن آفات اللسان .

وتأمل تلك الدقة التي ينبغي أن يحاسب بها المسلم نفسه في باب التوقي من الكذب لا سيما إن كان في مقام التربية والإصلاح والدعوة إلى الله تعالى ، ففي حديث عبد الله بن عامر رضي الله عنه قال : دعتني أمي يوما ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد في بيتنا فقالت : ها ! تعال أعطيك . فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وما أردت أن تعطيه) ؟ قالت : أعطيه تمرا . قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أما إنك لو لم تعطه كتبت عليك كذبة) [د : الأدب (٤٩٩١) ، م : المقدمة ، وأحمد : المكيين (١٥١٤٧) وهو على الراجح حديث مرسل ، ولم أجد من تكلم عليه في كتب السنة]

لقد كانوا يتفقدون أنفسهم في التوقي من داء الكذب مهما كان في أعين الناس رقيقا دقيقا ، وينصحون بذلك غيرهم ، روى ابن الجوزي عن الإمام الأوزاعي أنه كان خارجا من المسجد فسمع بائع البقول يقول : يا بصل أحلى من العسل ! فقال : أو يظن هذا أن شيئا من الكذب يحل ؟! [صفة الصفوة]

– الصدق في الأعمال ومنها مجال الدعوة : الاستقامة بتطابق الأقوال والأعمال فلا يدعو إلا على بصيرة ، ولا يعظ إلا بصحيح القصص والأمثال ، لا دجل فيه ولا منامات لأنها ليست من مصادر التشريع . والشر أطم إذا لم يعرف مصدر المنامات والقصص غير الموثوقة ولا صدقها ولا عدالة صاحبها ولا ثبوتها عنه .. فدين الله عز وجل أجلّ من أن يتقول فيه متقول بلا علم .

أثر الصدق في نجاح الدعاة :

لا يخفى أن للصدق أثره البالغ في سيرة الداعية ، إذ يظهر في قوله ولهجته وسمته وحرارة عاطفته ، فيؤثر في المدعوين ويترك فيهم انطباعا عميقا بمصداقية ما يدعو إليه ويؤمن به ..

ولقد كان النبي الكريم صلى الله عليه وسلم يحدث الذين يلقونه ويرونه أول مرة فيقولون : والله ما هذا بوجه كذاب ولا كلام كذاب !! كما في حديث عبد الله بن سلام قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة انجفل الناس إليه [أي ذهبوا مسرعين] فجئت في الناس لأنظر إليه فلما استثبت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفت أن وجهه ليس لوجه كذاب ، وكان أول شيئ تكلم به : (أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام) [ت : صفة القيامة (٢٤٨٥) وقال حديث حسن صحيح ، ابن ماجه : اقامة الصلاة (١٣٣٤) ، أحمد : الأنصار (٢٢٦٦٨) ، دارمي : الصلاة (١٤٢٤)]

وأيضا قصة أبي ذر كما يرويها ابن عباس رضي الله عنهم جميعا قال : لما بلغ أبا ذر مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأخيه : اركب إلى هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء واسمع من قوله ثم ائتني ، فانطلق الأخ حتى قدمه وسمع من قوله ثم رجع إلى أبي ذر فقال له : رأيته يأمر بمكارم الأخلاق وكلاما ما هو بالشعر ... الحديث [متفق عليه : خ : المناقب (٣٨٦١) ، م : فضائل الصحابة (٢٤٧٤)]

وانظر كيف كان الناس يتفقدون فيه الصدق كما وقع لهرقل عظيم الروم في زمانه ، لما سأل أبا سفيان بن حرب وهو بأرض الشام ، قال له تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : قلت : لا . ثم أجابه هرقل في آخر سؤالاته فقال : وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا فقد عرفت أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله تعالى [متفق عليه : خ : بدء الوحي (٧) ، م : الجهاد (١٧٧٣)] إن هذه الانطباعات العفوية الآنية التي حملها هؤلاء وهم يقابلونه عليه الصلاة والتسليم أول مرة ذات دلالات موحيات بأن الصدق من سمات النبي صلى الله عليه وسلم يظهر في كل جوارحه ، وكيف لا وهو داعية الصدق وهو الصادق المصدوق ألم تكن دعوته في صميمها إلى الصدق مع الله ومع النفس ومع الناس ؟!

– ومن آثار الصدق أيضا شيوع الثقة والمودة والألفة بين أفراد المجتمع ، فإذا القلوب متقاربة ، والنفوس متصافية والمودة والإيثار مبذول مشاع ! وبهذا تصبح الحياة مبهجة مؤنسة ، على عكس الكذب الذي يبذر في النفوس الضغائن ويرفع الثقة ويورث الريبة ، فترى الناس في تلون وتغير وعدم ثبات ، تتفشى فيهم آفات اللسان المنبعثة من الكذب وسوء الطوية وخبث النفس .

– ومن آثار الصدق تتابع التوفيق والسداد ، إذ الصدق حسنة والحسنة تجلب حسنة ، كما أن الكذب سيئة تجب سيئة إن لم يتب منها العبد قبل الموت .

ثقافة الداعية :

(مفهوم الثقافة وأهميتها ، مصادر ثقافة الدعاة ، مجالات ثقافة الدعاة وميادينها)

مفهوم الثقافة وأهميتها :

تعريف الثقافة : الثقافة في اللغة : الحذق وسرعة التعلم والظفر بالشيء ، قال : ثقف الشيء ثقفا وثقافة وثقوفة : حذقه ، ورجل ثَقْف وثَقِفٌ وثُقُفٌ : حاذق فهم . ويقال : ثقف الشيء وهو سرعة التعلم ، قال ابن دريد : ثقف الشيء حذقه ، وثقفه إذا ظفر به [لسان العرب : ابن منظور ، مادة (ثقف) ٩ / ١٩]

والثقافة أيضا : (الفطنة والخفة في التعلم والإدراك) قال : ثقف ثقفاً وثقافة : صار حاذقاً خفيفاً فطناً ، وثَقِفَهُ : كَسَمِعَهُ : صادفه أو ظفر به أو أدركه [القاموس المحيط : الفيروز آبادي ، مادة (باب الفاء) ٣ / ١٢١] وعليه فالثقافة ضرب من التعلم يستلزم أن يكون المثقف فيه من حيث القدرة الفكرية وسرعة الاستيعاب والفطنة وقوة الملاحظة الصائبة على درجة تؤهله لدقة الفهم وشموله وعمقه ، مع دوام التطلع إلى كل مفيد ، والإطلاع على كل جديد . والثقافة : سرعة التعلم ، وتلقف المعلومة بسرعة مع الإتقان وعمق الإدراك ودقة الاستيعاب .

الثقافة في الاصطلاح : تعددت أقوال الباحثين المعاصرين في الثقافة **Culture** حتى توصل بعضهم بعد طول بحث إلى إشكالية التعريف الاصطلاحي للثقافة كمصطلح له مفهومه ومدلوله [انظر لمحات في الثقافة الإسلامية : عمر الخطيب ص ٢٢]

ويقصد بثقافة الدعاة : (العلوم والمعارف والفنون والمهارات التي تخدم الدعاة وتسهل مهمتهم ، وكل ما ينبغي لهم تعلّمه وفقهه والدراية به والإطلاع عليه) وهذا يشمل الثقافة الشرعية التي محورها الدين الحنيف ، كما يشمل الثقافة العامة التي تتناول مختلف العلوم والمعارف والفنون التي تثري في

الداعية الجانب المعرفي ، وتجعله حكيما في أسلوبه ، دقيقا في موقفه ، واعيا مدركا لأبعاد مسئوليته وظروف عصره ، مستشعرا لواجبه يعرف ماذا يقول ومتى يتصرف وكيف يخاطب ومتى وأين ؟!

ومن مصادر ثقافة الداعي بعد القرآن الكريم وكتب التفسير ، كتب السنة وأبرزها الصحاح الستة وهي :

(١) صحيح البخاري : وهو أصح كتب السنة ، وجامعه هو الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري (١٩٤ هـ – ٢٥٦ هـ)

ومما يميّز صحيح البخاري دقته في التوثيق فإن شرطه في صحيحه تبعا لشيخه علي بن المديني : تحقق اتصال السند بين راويين حتى يثبت اللقاء والسماع بينهما ولو مرة ، قال الإمام النووي : (اتفق العلماء رحمهم الله على أن أصح الكتب بعد القرآن العزيز الصحيحان : البخاري ومسلم ، وتلقتهما الأمة بالقبول ، وكتاب البخاري أصحهما وأكثرهما فوائد ومعارف ظاهرة وغامضة) [المنهاج ١ / ١٢٠]

وقال الذهبي : (قال ابن عدي : سمعت البخاري يقول : صنفت الصحيح في ست عشرة سنة وجعلته حجة فيما بيني وبين الله تعالى) [سير أعلام النبلاء ١٢ / ٤٠٥]

من شروح الصحيح : (عمدة القاري) لمحمود بن أحمد العيني المتوفى سنة (٨٥٥هـ) ، و(إرشاد الساري) لأحمد بن محمد القسطلاني المتوفى سنة (٩٢٣هـ) ، و(فتح الباري) لابن رجب المتوفى سنة (٧٩٥هـ) ، و (فتح الباري) لابن حجر المتوفى سنة (٨٥٢ هـ) وهو أجمع هذه الشروح وأوفاها وهو الذي قال فيه الإمام الشوكاني : لا هجرة بعد الفتح .

(٢) صحيح مسلم : وهو أصح كتب السنة وأعظمها قدرا بعد صحيح البخاري ، وجامعه هو الإمام مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري (٢٠٦– ٢٦١ هـ) من شيوخه : الإمام البخاري ، ويحيى بن يحيى التميمي ، وإسحاق بن راهويه ، وأحمد بن حنبل ، وأبو بكر بن أبي شيبة ، وغيرهم كثير .

شرطه في صحيحه : أن يخرج الحديث الذي اتصل سنده برواية الثقة عن مثله إلى منتهاه ، ولا يكون شاذا ولا معللا ، وهذا هو الصحيح الذي جرى عليه علماء الحديث . ومسلم رحمه الله على هذا لا يشترط اللقيا كالبخاري بل اتصال السند فقط ، واهتمامه كشيخه البخاري بالإسناد وهو شأن كل المحدّثين الذين دونوا السنة النبوية من أصحاب الصحاح والسنن والمسانيد فانفردوا بهذه الخاصّية التي تميزت بها الأمة الإسلامية عن سائر الأمم ، قال الإمام مسلم في مقدمة صحيحه : باب بيان أن الإسناد من الـــدين : [وذكر سنده عن] ابن سيرين قال : لم يكونوا يسألون عن الإسناد ، فلما

وقعت الفتنة قالوا : ســـموا لنا رجالكم فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم) [م : المقدمة ١ / ٢٠٠]

لصحيح مسلم عدة شروح منها : شرح الأُبيّ محمد بن خليفة (٨٢٧)هـــ وهو (إكمال المعلم لفوائد كتاب مسلم) ٧ أجزاء جمع فيه بين شروح كل من المازري وعياض والقرطبي والنووي مع زيادات من كلام شيخه ابن عرفة ، ومنها شرح السنوسي ، والمنهاج للنووي المتوفى سنة (٦٧٦هـــ) والديباج على صحيح مسلم بن الحجاج : لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٨٤٩-٩١١هـــ)

(٣) سنن أبي داود : جامعها هو الإمام سليمان بن الأشعث بن شداد السجستاني (٢٠٢ هـــ – ٢٧٥ هـــ) ولد بالبصرة وبها توفي ، من شيوخه الإمام أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وقتيبة بن سعيد الثقفي وغيرهم كثير ، ومن تلاميذه الإمام الترمذي صاحب السنن والإمام النسائي صاحب السنن أيضا ، ومحمد بن أبي بكر بن عبد الرزاق التمار ، وأبو علي محمد بن أحمد اللؤلؤي وهما اللذان يرويان عنه كتاب السنن .

من شروح سنن أبي داود : (معالم السنن) : لحمد بن محمد الخطابي المتوفى سنة (٣٨٨ هـــ) . و(تهذيب السنن) للإمام الهمام بن القيم المتوفى سنة (٧٥١هـــ) وقد سار فيه على منوال الإمام المنذري الذي سبقه إلى تهذيب السنن وأكمل ما فاته ، و(عون المعبود) لمحمد العظيم آبادي ، وهو تتمة لشرح السنن الذي ابتدأه أخوه وسماه (غاية المقصود في حل سنن أبي داود) ، وأيضا بذل المجهود في حلّ أبي داود لخليل بن أحمد السهارنفوري ، المتوفي سنة (١٣٤٦ هـــ)

(٤) سنن الترمذي : جامعه هو الإمام محمد بن عيسى بن سورة بن موسى الترمذي نسبة إلى ترمذ شمال إيران (٢٠٩هـــ – ٢٧٩ هـــ) من مميزاته : أنه يحكم على الحديث صحة أو ضعفا كما يذكر في أكثر الأحيان بعض الأحكام الفقهية الاستنباطية عقب سوق الحديث ، قال ابن الصلاح : (كتاب أبي عيسى الترمذي رحمه الله أصل في معرفة الحديث الحسن وهو الذي نوه باسمه وأكثر من ذكره في جامعه ...) [علوم الحديث ص ٣٦]

من شروح سنن الترمذي : (عارضة الأحوذي) للقاضي ابن العربي (٥٤٢)هـــ من علماء المالكية ، و(تحفة الأحوذي) : للشيخ محمد عبد الرحمن عبد الرحيم المباركفوري من علماء الهند المتوفى نحو سنة (١٣٥٣ هـــ) طبع في دهلي بالهند سنة ١٣٤١- ١٣٥٣هـــ

(٥) سنن النسائي : جامعه هو الإمام أحمد بن شعيب بن علي (٢١٥ هـ – ٣٠٣ هـ) ، ولد بـ(نساء) بلدة مشهورة في خراسان ، وتوفي في فلسطين وقيل بمكة ، من شيوخ النسائي : إسحاق بن راهويه وسليمان بن الأشعث .

شرط النسائي في سننه : تخريج أحاديث أقوام لم يجمعوا على تركهم إذا صح الحديث باتصال الأسناد من غير قطع ولا إرسال ، ومع ذلك فكم من رجل أخرج له أبو داود والترمذي ، تجنب النسائي إخراج حديثه بل تجنب النسائي إخراج حديث جماعة من رجال الصحيحين ! ولذلك قيل إن للنسائي شرطا في الرجال أشد من شرط البخاري ومسلم ، نقل السبكي عن شيخه الحافظ الذهبي أن الإمام النسائي أحفظ من الإمام مسلم وأن سننه أقل السنن حديثا ضعيفا بعد الصحيحين ، ألف النسائي أولا السنن الكبرى ثم استخلص منه الأحاديث الصحيحة فقط وسماه (كتاب المجتبى) أو (المجتنى) ، واشتهر بالسنن الصغرى فإذا أطلق المحدثون وقالوا : رواه النسائي فمرادهم هذا المختصر المسمى بالمجتبى الذي هو أحد الكتب الستة لا السنن الكبرى ، وكذا لو قالوا رواه الخمسة لم يكن مرادهم سوى : البخاري ومسلم وسنن أبي داود وجامع الترمذي ومجتبى النسائي .

رقّم أحاديث هذا الكتاب ووضع فهارسه الشيخ عبد الفتاح أبو غدة عفا الله عنه ، في طبعة تضمنت شرح الحافظ السيوطي والإمام السندي .

من شروح سنن النسائي : (تعليقات السيوطي والسندي) على السنن الصغرى ، و(شروق أنوار المنن الإلهية بشرح أسرار السنن الصغرى النَّسائية) للشيخ محمد المختار الشنقيطي (١٣٣٧ – ١٤٠٥هـ) المدرس بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية ، قال الأستاذ محمد المجذوب رحمه الله في وصفه لهذا الكتاب : (ولقد سلك في شرحه منهجا مميزا من شأنه أن يستوفي كل ما يتعلق بنصوصه الشريفة ، فهو يعرض الحديث ثم يعقبه بالكلام عن رواته من رجال السلف فيحدد رتبته حسب ما يترجح له من حالهم ، ثم يتحدث عن لغته وإعرابه ، ويذكر اختلاف العلماء في التوجيه وفق اختلافهم في الإعراب ، ويرجح ما يراه الأقوى من تلك الوجوه ، ويقف أثناء ذلك على ألفاظه الغريبة ومدلولاتها ويوضح مشكلها ، ومن ثم يأخذ في بيان الأحكام والفوائد المستنبطة من الحديث ، مع سرد أقوال العلماء واختلافهم في مسائله وأدلة كل منهم .) [علماء ومفكرون عرفتهم : محمد المجذوب ٣ / ٢٥٩]

(٦) سنن ابن ماجه : جامعه هو الإمام محمد بن زيد بن ماجه (٢٠٩ هـ – ٢٧٣ هـ) وقيل (٢٠٧ – ٢٧٥ هـ) وفي المكتبات الآن نسخة من هذا الكتاب الجليل بترقيم الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي رحمه الله .

هذا ومن الكتب الجليلة في السنة النبوية الشريفة سوى ما تقدم :

موطأ الإمام مالك بن أنس (٩٣ – ١٧٩ هـ) الإمام المرجع في الفتوى والعلم حتى ضُرب به المثل فقيل (لا يُفتى ومالك في المدينة) ! يعد الموطأ أول مصنف جمع بين الحديث والفقه بحسب المواضيع والمسائل .

من شروح الموطأ : (التمهيد) لابن عبد البر المتوفى سنة (٤٦٣هـ) ، و (المنتقى) للباجي المتوفى سنة (٤٧٤ هـ) . و(القبس) لابن العربي المتوفى سنة (٥٤٢ هـ) وقيل (٥٤٦ هـ) وقد حققه الدكتور محمد عبد الله ولد كريم ونال به درجة الدكتوراه عام ١٤٠٦هـ من جامعة أم القرى بمكة المكرمة .. و(تنوير الحوالك) لجلال الدين السيوطي المتوفى سنة (٩١١هـ) وله أيضا (كشف المغطا في شرح الموطا) ، وشرح محمد بن عبد الباقي الزرقاني المتوفى سنة (١١٢٢هـ) .

ومن كتب السنة أيضا المسانيد وتأتي رتبتها بعد كتب الصحاح فالسنن ، ومن كتب المسانيد مسند أبي داود الطيالسي ، ومسند عبيد الله بن موسى ، ومسند أحمد بن حنبل ، ومسند إسحاق بن راهويه ، ومسند عَبد بن حُميد ، ومسند الدارمي ، ومسند أبي يعلى الموصلي ، ومسند الحسن بن سفيان ، ومسند البزّار أبي بكر ، قال ابن الصلاح معللا تأخر رتبة المسانيد عن الصحاح فالسنن : (عادتهم فيها أن يخرّجوا في مسند كل صحابي ما رووه من حديثه غير مقيدين بأن يكون حديثا محتجا به فلهذا تأخّرت مرتبتها – وإن جلّت لجلالة مؤلفيها – عن مرتبة الكتب الخمسة وما التحق بها من الكتب المصنفة على الأبواب) [علوم الحديث ص ٣٨]

من أجلّ كتب المسانيد مسند الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ هـ – ٢٤١ هـ) جمع فيه زهاء ثلاثين ألف حديث رويت عن أكثر من سبعمئة صحابي ، رتبه على حسب سابقة الصحابي فبدأ بالخلفاء الأربعة ثم بقية العشرة المبشرين ، ثم أهل بدر ثم من بعدهم ..

وبين أيدينا أربعة كتب تضمنت دراسة دقيقة عن المسند وهي : خصائص المسند للحافظ المديني (٥٨١هـ) ، والمصعد الأحمد في ختم مسند الإمام أحمد للإمام الجزري المقرئ (٨٣٣هـ) ، والقول المسدد في الذب عن المسند لابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) ، ذيل القول المسدد لمحمد المدراسي الهندي (١٣٠٠هـ)

وقد طبع المسند محققا وصدرت منه مذ عام ١٤١٦هـ بتحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي خمسون جزءً ويمتاز هذا التحقيق العملي بالترقيم والدقة في تخريج كل حديث ، ممن رتب المسند الشيخ أحمد البنا رحمه الله ، وسماه (الفتح الرباني في ترتيب مسند أحمد بن حنبل الشيباني) وله كذلك شرح للمسند سماه (بلوغ الأماني) طبع على حاشية الفتح الرباني ، ومن شروح المسند تعليقات الشيخ أحمد شاكر على الأجزاء التي صدرت من المسند بترقيمه رحمه الله .

وقد صنفت كتب في الأحاديث الصحيحة والضعيفة منها :

كتاب (الموضوعات) للإمام ابن الجوزي (٥٩٧)هـ ، ومنها (المنار المنيف في الصحيح والضعيف) لابن القيم (٧٥١ هـ) ، وكتاب (الأحاديث التي لا أصل لها في كتاب الإحياء) للسبكي (٧٧١هـ) ، و(المقاصد الحسنة) لمحمد السخاوي (٩٠٢) هـ وأيضا (سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة) للألباني رحمه الله .

ومن الكتب الباحثة في علوم الحديث المختلفة :

(ناسخ الحديث ومنسوخه) لأبي حفص عمر بن أحمد شاهين المتوفى سنة (٣٨٥ هـ) ، و(معرفة علوم الحديث) لمحمد الحاكم النيسابوري (٤٠٥)هـ ، و(شروط الأئمة) لابن منده (٤٧٠)هـ ، و(علوم الحديث) لأبي عمرو بن الصلاح المتوفى سنة (٦٤٣ هـ) وهو الكتاب الشهير بمقدمة ابن الصلاح ، ، و(مختصر علوم الحديث) لابن كثير و(نصب الراية) للزيلعي (٧٦٢)هـ .

من الكتب الباحثة في غريب الحديث :

(غريب الحديث) لأبي عبيد الهروي (٤٠١)هـ ، و(الفائق في غريب الحديث) للزمخشري (٥٣٨)هـ ، و(مشارق الأنوار) للقاضي عياض (٥٤٤)هـ ، و(النهاية في غريب الحديث والأثر) لابن الأثير(٦٣٠)هـ

الثقافة العامة

يقصد بالثقافة العامة كل ما لا يندرج في الثقافة الشرعية ، أو كل ما له صلة بالحياة العامة وعوائدها والاتجاهات العامة السائدة في مجتمع ما ، والثقافة العامة في عصرنا وهو عصر الثقافة والإعلام تأخذ أبعاداً كثيرة ، ولعله من المناسب هنا إيراد أهم مصادر الثقافة العامة مما هو متاح للدعاة على تفاوت بينهم بحسب المواقع الجغرافية والاجتماعية .

ومن أهم مصادر الثقافة العامة

- الموسوعات العامة القديمة منها والحديثة ، أما ما دون في القديم فمنها لسان العرب لابن منظور (٦٣٠)هـ ، ونهاية الأرب في فنون الأدب للنويري (٦٦٠)هـ ، وصبح الأعشى للقلقشندي (٧٥٦)هـ ، وأما الحديث فمثل الموسوعة العربية الميسرة لمجموعة من المؤلفين ، ودائرة معارف القرن العشرين لفريد وجدي ، وأيضا دوائر المعارف كدائرة المعارف البريطانية ودائرة المعارف الأمريكية والفرنسية وغيرها .

- الموسوعات المتخصصة في كل علم وفن ، ومنها دائرة المعارف الإسلامية التي كتبها لفيف من المستشرقين وخلطوا فيها السم بالعسل وينبغي أن تقرأ بحذر وقد ترجمت إلى معظم لغات العالم الإسلامي .
- وسائل الإعلام التي تحمل بين طياتها بين الحين والحين كل جديد ، سواء منها المقروءة والمرئية والمسموعة والموثقة ، ولقد شهد هذا العصر ما يسمونه بالثورة الإعلامية المؤثرة والموجهة لكثير من أنماط الحياة . وإن الاستفادة منها في تكوين الثقافة العامة مطلب حضاري وفق الضوابط الشرعية التي لا مندوحة عنها .
- وسائل الاتصال المتعددة المرئي منها والمقروء والمسموع ، ولعل أهمها شبكة المعلومات المعروفة بـــ (الانترنت) تُعد مصدرا عصريا من مصادر الثقافة والمعرفة لا سيما ثقافة الشعوب والأمم وتاريخها وعاداتها واتجاهاتها ، مع الأخذ بالضوابط الشرعية في التعامل مع هذا الشبكة . والداعية الأريب كالأديب وهو من يأخذ من كل علم بطرف ، ويقتبس من كل بحر قطرة ، ويتمتع بذوق رفيع في تمييز الصالح من الطالح مما يقرؤه ويسمعه ويشاهده ، فإذا تناهى إلى سمعه شئ من المعارف العصرية كان له بها سابق عهد ، كذلك مجالسة العلماء المتخصصين في العلوم العصرية والتخصصات المعرفية مصدر من مصادر الثقافة العامة مما ينبغي ألا تتقاصر همته عنه .
- مجالسة الأدباء والعلماء والدعاة الذين تزدان مجالسهم بالعلوم النافعة والمناقشات الماتعة التي لا تخلو من فوائد .

الركن الثالث : المدعو وكيفية دعوته :

(التعريف به ، أمة الاستجابة وأمة الدعوة ، أهل الكتاب ، المشركون ، الملحدون ، كيفية الدعوة في المجتمعات غير الاسلامية)

تعريف المدعو :

أ / (هو الإنسان العاقل المخاطب بدعوة الإسلام) [أصناف المدعوين : حمود الرحيلي ص ٤٩]

ب/ ويمكن أن يقال هو (كل مدرك مكلف) وهو أدق مما سبق إذ يدخل فيه الجن والإنس والبالغ والمميّز والذكر والأنثى والمسلم والكافر .

والدعوة تتوجه لكل مكلف مهما كان جنسه ولسانه وبلده ولونه لأن الرسالة الخاتمة تخاطب العالمين جميعا قال تعالى : { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا } [الأعراف : ١٥٨] وقال : { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(٢٨)} [سبأ]

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (وكان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة) هذا لفظ البخاري وعند مسلم : (وبُعثت إلى كل أحمر وأسود) [متفق عليه : خ : التيمم (٣٣٥) ، م : المساجد (٥٢١)]

أمة الاستجابة وأمة الدعوة :

المخاطبون بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم ورسالته إما أمة استجابة وهو المسلمون ، سموا بذلك لأنهم استجابوا للحق وآمنوا به ودافعوا عنه ودعوا إليه ، وإما أمة الدعوة وهم غير المسلمين على اختلاف مللهم وعقائدهم ..

دعوة المسلمين :

المسلمون هم : (أهل لا اله إلا الله محمد رسول الله) العاملون بمقتضاها المقيمون لحدودها ، وثمة فرق بين الإسلام والإيمان ولأهل العلم فيه أقوال ليس هنا موضع بسطها [أنظر مجموع الفتاوى ٧ / ٣٦٩]

وينبغي للداعية أن يعرف للمسلم حرمته وحقه وأخُوّته الإيمانية أيا كان بلده أو لغته أو جنسيته ، والمسلمون على ثلاث درجات كما في قوله تعالى : { ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ(٣٢) } [فاطر] قال ابن تيمية (قسم سبحانه الأمة التي أورثها الكتاب واصطفاها ثلاثة أصناف : ظالم لنفسه ، ومقتصد، وسابق بالخيرات ، وهؤلاء الثلاثة ينطبقون على الطبقات الثلاث المذكورة في حديث جبريل (الإسلام ، والإيمان ، والإحسان) [مجموع الفتاوى ٧ / ٤٨٥]

وعلى هذا فالمدعوُّون في المجتمع الإسلامي أنواع ثلاثة : السابقون بالخيرات ، والمقتصدون في الطاعات ، والظالمون لأنفسهم ، وهم من حيث التمادي في المعصية يرجعون إلى نوعين :

النوع الأول : أهل الاستقامة :

وهم أهل الصلاح والإصلاح صالحون في أنفسهم مصلحون لغيرهم ، وهم أهل الاستقامة والرشد ، من سماتهم الطاعة المطلقة والانقياد لله قال تعالى : { وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ

عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا(٦٩)ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنْ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا(٧٠)} [النساء]

وهم قلّة في المسلمين كقلّة المسلمين في عامة الناس كما قال تعالى : { وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ(١٠٣) } [يوسف] { وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ(١٣)} [سبأ] وروى عبدا لله بن عمر رضي الله عنهما قال سمعت النبي ﷺ يقول : (إِنَّمَا النَّاسُ كَالْإِبِلِ الْمِائَةِ لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً) [متفق عليه : خ : الرقاق (٦٤٩٨) ، م : فضائل الصحابة (٢٥٤٧)]

إلى ماذا يُدعى أهل الاستقامة ؟

يُدعون إلى المحافظة على استقامتهم وإصلاح غيرهم ، يُسعى في سبيل ذلك إلى تحقيق أربعة مبتغيات :

المبتغى الأول – الثبات على الحق :

يدل عليه قوله تعالى { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ } [الأحزاب : ١] أي اثبت على التقوى والزمها ، والأمر له ﷺ أمر لأمته من بعده ، وقوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا(١٣٦)} [النساء]

المبتغى الثاني – الحذر من الانتكاس :

وهو مطلب شرعي أيضا ، قال الله تعالى : { أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ(٢٦٦)} [البقرة] قال عمر رضي الله عنه ضربت مثلا لرجل غني يعمل بطاعة الله عز وجل ، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله [خ : التفسير (٤٥٣٨)]

وقال تعالى { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ(١٧٥)وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } [الأعراف : ١٧٥ – ١٧٦]

المبتغى الثالث – الترقي في مكارم الأخلاق :

ببذل الندى وكف الأذى يجمع ذلك ما رواه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ : (الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ) [متفق عليه : خ: الرقاق (٦٤٨٤) ، م : الإيمان (٤٠)] وهو باب واسع من وفق إليه هدي إلى سواء السبيل .

المبتغى الرابع – السعي إلى إصلاح الغير :

بأن يقوم بواجب الدعوة ، بالكلمة الطيبة والقدوة الحسنة والموقف الكريم ، لأن فضائل النفس لا تكتمل إلا بإصلاح الآخرين بعد إصلاح النفس ومجاهدتها قال الإمام ابن القيم : (جهاد النفس أربع مراتب أيضا : إحداها أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به ومتى فاتها عمله شقيت في الدارين . الثانية : أن يجاهدها على العمل به بعد عمله وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها . الثالثة : أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات ولا ينفعه علمه ولا ينجيه من عذاب الله . الرابعة أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق ويتحمل ذلك كله لله فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانيا حتى يعرف الحق ويعمل به ويعلّمه فمن علم وعمل وعلّم فذاك يدعى عظيما في ملكوت السماوات [زاد المعاد ١٠/٣]

النوع الثاني – العصاة :

المعصية والعصيان ضد الطاعة ، وضد التقوى والاستقامة لذا كان الورع : الكف عن المعاصي [انظر مختار الصحاح ١٨٤/١ مادة (ع ص و)]

والعصاة هم المفّرطون ، والمسيئون ، والمذنبون ، والفساق ، والذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، والمرجون لأمر الله ، وكل ذلك من الأوصاف التي وردت في القرآن الكريم .

ومهما فرط العصاة في جنب الله فهم مسلمون ما لم تصل معصيتهم إلى كبيرة الشرك بالله تعالى ومالم يرتكبوا كفرًا بواحاً . ومع ذلك فليس العصاة كالأتقياء بل هم دونهم رتبة قال تعالى { وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ(٥٨) } [غافر]

أساليب دعوة العصاة :

١– أسلوب التأليف والستر : هذا الأسلوب ذو شقين ، الشق الأول التأليف والثاني الستر ، أما تأليف القلوب فإنه أسلوب يخاطب العاطفة ويحرك الشجون ويزع في الإنسان وازع الخير إن كان

من ذوي الضمائر الحية ، والدين الحنيف دين تأليف القلوب ، يرغّب في الألفة ويدعو إليها ، بل جعل المؤلفة قلوبهم أحد مصارف الزكاة الثمانية قال الله تعالى : { وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ } [التوبة : ٦٠]

وضرب رسول الله ﷺ بسيرته القولية والعملية أروع الأمثلة في هذا الأسلوب اللطيف الرقيق يستميل به قلوب الناس ولقد كان عليه الصلاة والسلام كما تواترت به السنة : (ما سئل ﷺ على الإسلام شيئا إلا أعطاه ، وقد جاءه رجل فأعطاه غنما بين جبلين فرجع إلى قومه فقال : يا قوم أسلموا ! فإن محمدا يعطي عطاء لا يخشى الفاقة) [م : الفضائل (٢٣١٢) واللفظ له ، أحمد : المكثرين (١٣٢٣٣)]

وأسلوب التأليف يتغلغل في أغوار النفس البشرية فيعالج فيها الاعوجاج ويشبع فيها النهمة ويصحح لها تصور حقيقة المادة ، لتوقن أنها بلغة لا غاية ، ولقد قال رسول الله ﷺ لسعد (يا سعد إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه خشية أن يكبه الله في النار) [متفق عليه : خ : الإيمان (٢٧) واللفظ له ، م : الإيمان (١٥٠)]

وكان هذا منهاجا نبويا يسري على كل من يستحق التأليف والترغيب في الخير بالأسلوب الرفيق ، يشهد لذلك قول أنس ﷺ : فلقد (كان الرجل يأتي النبي ﷺ فيسلم لشيء يعطاه من الدنيا فلا يمسي حتى يكون الإسلام أحب إليه وأعز عليه من الدنيا وما فيها) [أحمد : المكثرين (١١٦٠٨)]

أما الستر : فهو كذلك أسلوب في دعوة العصاة واستمالتهم إلى حياض الطاعة والخير ، ومن الأمثلة عليه حديث أنس ﷺ قال : كنت عند النبي ﷺ فجاءه رجل فقال : يا رسول الله إني أصبت حدا فأقمه عليّ . قال ولم يسأله عنه ، قال وحضرت الصلاة فصلى مع النبي ﷺ فلما قضى النبي ﷺ الصلاة قام إليه فقال : يا رسول الله إني أصبت حدا فأقم فيّ كتاب الله ، قال : (أليس قد صليت معنا) ؟ قال : نعم . قال : (فإن الله قد غفر لك ذنبك) أو قال (حدك) [متفق عليه : خ : الحدود (٦٨٢٣) ، م : التوبة (٢٧٦٤)] قال ابن حجر قال الخطابي : في هذا الحديث أنه لا يكشف عن الحدود بل يدفع مهما أمكن ، وهذا الرجل لم يفصح بأمر يلزمه به إقامة الحد عليه فلعله أصاب صغيرة ظنها كبيرة توجب الحد فلم يكشفه النبي ﷺ عن ذلك ، لأن موجب الحد لا يثبت بالاحتمال .. [الفتح ١٢ / ١٣٤] وإذا كان مرتكب المعصية ما ليس فيه حد من ذوي الجاه والمكانة الاجتماعية وكان في سترهم تأليف لقلوبهم على سبيل إرجاء نهيهم عن المنكر إلى حين أو على سبيل ترك مؤاخذتهم لحين فلا مانع منه من غير ضعف ولا مداهنة وفي مثل هذا حديث النبي ﷺ : (أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم) [خ : الأدب المفرد ١/ ١٦٥ (٤٦٥) ، د : الحدود (٤٣٧٥) ، شعب الإيمان ٦/٣٢١ (٨٣٣٥) ، أحمد : الأنصار (٢٤٣٠٠) ، قال في مجمع الزوائد ٦/٢٨٢ رجاله ثقات]

هذا وللستر ضوابط تستنبط من جملة النصوص الواردة فيه ، ملخصها : أ/ أن يترجح إقلاعه عن المعصية ولو بعد حين . بـــ / أن لا يترتب على الستر مفسدة شرعية راجحة . جـــ/ أن لا يكون قد وصل الأمر إلى الحاكم الشرعي ، فإن وصل إلى الحاكم الشرعي فلا يجوز الستر حينئذ لا سيما الحدود الشرعية . لما فيها من الحق العام الذي لا يملك الأفراد التنازل عنه .

٢ – أسلوب حفز العاطفة وإثارة الشعور والحميّة والغيرة :

كقولك للعاصي : ألا تتقي الله ؟ ألا تستحي ؟ ألست بمسلم ؟ ألا تغار على دينك ؟ ألست أهلا للمروءة ؟ أين شهامتك أين دينك وغيرتك على محارم الله ؟ ألا تخشى الموت والحساب ؟ ونحو ذلك .. والغيرة في الإنسان أمر جبلي ، ولعلها أجلى مظاهر العاطفة التي يتميز بها الإنسان ، والغيرة في المسلم فوق ذلك أمر شرعي ، فمن لا غيرة له على محارمه لا دين له ، والمسلم يغار على عرضه وحريمه ويعمل جاهدا على صون كل ما يمس ذلك .

من الأمثلة قول الباري جل ذكره : { أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ الْحَقِّ} [الحديد : ١٦] وقوله {مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا(١٤٧)} [النساء] وحديث المغيرة قال قال سعد بن عبادة لو رأيت رجلا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : (أتعجبون من غيرة سعد والله لأنا أغير منه والله أغير مني ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين ، ولا أحد أحب إليه المدحة من الله ومن أجل ذلك وعد الله الجنة) [متفق عليه : خ : الحدود (٧٤١٦) ، م : اللعان (١٤٩٩) وانظر الفتح ١٣ / ٤٠٠]

وأمثل من يصلح لهم هذا الأسلوب الشباب الذين تتأجج لديهم الشهوة وتتحفز لديهم كذلك الغيرة على العرض والمحارم ، ومثال هذا الأسلوب ما رواه أبو أمامة رضي الله عنه أن فتى شابا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله : إئذن لي في الزنا ! فأقبل القوم عليه فزجروه قالوا : مه مه ؟! قال : (أدن) فدنا منه قريبا ، قال فجلس . قال : (أتحبه لأمك) ؟ قال : لا والله جعلني الله فداءك . قال : (ولا الناس يحبونه لأمهاتهم) . قال : (أفتحبه لابنتك) قال : لا والله جعلني الله فداءك . قال : (ولا الناس يحبونه لبناتهم) ! قال : أفتحبه لأختك ؟ قال : (لا والله جعلني الله فداءك). قال : (ولا الناس يحبونه لأخواتهم) [وذكر العمة والخالة] قال : فوضع يده عليه وقال : (اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه) . فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء [أحمد : الأنصار (٢١١٨٥) ، والهيثمي في مجمع الزوائد ١٢٩/١ وقال " رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح] ولعل من أوفق ما يدعى إليه

الشباب من خلال هذا الأسلوب تبصيرهم بحقائق دينهم القويم ، وأنه دين الطهر والعفة فما لا يرضاه المسلم لنفسه كيف يرضاه لغيره ، ولا بد من التحذير من التقليد الأعمى للكفار وعواقبه وآثاره ، وإعلامهم بأن الكافرين لا يريدون للمسلمين خيرا قط قال تعالى : { مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ } [البقرة]

٣- أسلوب الاستتابة :

المعاصي مهما تعاظمت فإن الله يغفرها حتى الشرك إذا تاب العبد منه قبل الموت { وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى(٨٢)}[طه] ولا يكفِّر بالكبائر إلا أصحاب الأهواء والبدعة كالخوارج ونحوهم .

ويقصد (بالاستتابة) في الأصل حمل العصاة على التوبة بالقهر والقوة والغلبة ، وعليه فهي من مراتب تغيير المنكر ، ولا مانع أن يقصد بها الترغيب في التوبة والإنابة بإيجاد القناعة الذاتية لدى العصاة بأن يتوبوا ويقلعوا عما هم فيه من المعصية والإثم والعدوان ، لتكون توبتهم بدافع من ذات أنفسهم ، وثمة نصوص كثيرة في التوبة بهذا المعنى منها قول الله تعالى :{ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ(١٣٥)أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦)} [آل عمران : ١٣٦] وقوله : { وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرْ اللَّهَ يَجِدْ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا(١١٠)} [النساء : ١١٠] وقوله : { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(٥٣)وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ(٥٤)وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ(٥٥)أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَاحَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ(٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ(٥٧)أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ(٥٨)بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ(٥٩) } [الزمر]

ومن السنة النبوية حديث أبي هريرة ﷺ قال : قال النبي ﷺ : (والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم) [م : التوبة (٢٧٤٩)] وحديث أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : (كان في بني اسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنسانا ، ثم خرج يسأل فأتى راهبا فسأله فقال له : هل من توبة ؟ قال لا . فقتله ! فجعل يسأل فقال له رجل إئت

قرية كذا وكذا ، فأدركه الموت فناء بصدره نحوها فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فأوحى الله الى هذه أن تقربي ، وأوحى الله إلى هذه أن تباعدي ، وقال قيسوا ما بينهما فوجد الى هذه أقرب بشبر فغفر له) [متفق عليه : خ : الأنبياء (٣٤٧٠) ، م : التوبة (٢٧٦٦)] وأيضا حديث عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : (لله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلا وبه مهلكة ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته حتى اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله ، قال أرجع إلى مكاني فرجع فنام نومة ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده) [متفق عليه : خ : الدعوات (٦٣٠٨) واللفظ له ، م : التوبة (٢٧٤٤)]

ومن هذه النصوص ونظائرها يتبين أن الذنوب تستوجب العقوبة ، وأن العقوبة لا ترفع إلا بالتوبة النصوح ، كما أن هناك أسبابا أخرى تزول بها عقوبة الذنب وهي نحو عشرة كما يقول ابن تيمية رحمه الله ، ملخصها : التوبة باتفاق المسلمين كما تقدم . الاستغفار ، الحسنات الماحية ، دعاء المؤمن للمؤمن كصلاة الجنازة . ما يعمل للميت من أعمال البر . شفاعة النبي ﷺ وغيره يوم القيامة . المصائب التي يكفر الله بها الخطايا في الدنيا . ما يحصل في القبر من الفتنة والضغطة . أهوال يوم القيامة وكربها وشدائدها . رحمة الله وعفوه ومغفرته بلا سبب من العباد . [أنظر مجمـــوع الفتاوى ٧ / ٤٨٧ – ٥٠١ وأيضا ٤ / ٤٣٢]

وللتوبة شروط معروفة وهي : الإقلاع عن الذنب . إذ لا معنى للتوبة حال تلبس العاصي بمعصيته ! والندم القلبي وهو أمارة الصدق في التوبة والرغبة فيها . والعزم على عدم العود ومنه المسارعة إلى التوبة والمبادرة إليها من غير تسويف ، ورد المظالم والتحلل من أصحابها

٤– أسلوب تغيير البيئة :

تغيير البيئة أصل معتبر شرعا في تغيير المنكرات وفي التعزير والتأديب وفي استصلاح العصاة ، ذلك لأن الإنسان ابن بيئته فإذا كانت بيئته التي نشأ فيها أو عاش بين ظهرانيها توفرت فيها عناصر الجريمة أو أسباب المعصية بحيث سهل عليه ارتكاب المحظور وجب تغيير هذا النمط الفاسد في حياته وانتشاله من هذا الوحل وإلقاؤه في بيئة صالحة وتربة نظيفة ، لذا شرعت الهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإيمان ، ومن مجتمع الانحلال إلى مجتمع الطهر والعفاف . والأدلة متضافرة على أن تغيير البيئة أسلوب في استصلاح فئة من العصاة ، منها حديث أبي سعيد الخدري أن نبي الله ﷺ قال : (كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ إِنْسَانًا ثُمَّ خَرَجَ يَسْأَلُ فَأَتَى رَاهِبًا فَسَأَلَهُ فَقَالَ لَهُ هَلْ مِنْ تَوْبَةٍ قَالَ لَا فَقَتَلَهُ فَجَعَلَ يَسْأَلُ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ ائْتِ قَرْيَةَ كَذَا وَكَذَا فَأَدْرَكَهُ الْمَوْتُ فَنَاءَ بِصَدْرِهِ نَحْوَهَا فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ

مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَقَرَّبِي وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي وَقَالَ قِيسُوا مَا بَيْنَهُمَا فَوُجِدَ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِبْرٍ فَغُفِرَ لَهُ) [متفق عليه : خ : أحاديث الأنبياء (٣٤٧٠) ، م : التوبة (٢٧٦٦) واللفظ له]

قال الحافظ ابن حجر : (فيه فضل التحول من الأرض التي يصيب الإنسان فيها المعصية لما يغلب بحكم العادة على مثل ذلك ، إما لتذكره لأفعاله الصادرة قبل ذلك والفتنة بها ، وإما لوجود من كان يعينه على ذلك ويحضه عليه . ولهذا قال له : (ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء) ففيه إشارة إلى أن التائب ينبغي له مفارقة الأحول التي اعتادها في زمن المعصية ، والتحول منها كلها والاشتغال بغيرها) [الفتح ٦ / ٥١٧]

٥-أسلوب الهجر : شرع هجر بعض العصاة لعلاجهم واستصلاحهم وكف أذاهم عن الصلحاء الذين يخشى أن يسري إليهم الفساد بالمخالطة . وللعلماء رأيان في مدة هجر العصاة :

الأول : أنها ثلاثة أيام لحديث أبي أيوب ﷺ عن النبي ﷺ قال : (لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيصد هذا ويصد هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام) [متفق عليه : خ : الاستئذان (٦٢٣٧) ، م : البر والصلة والآداب (٢٥٦٠) باب تحرم الهجرة فوق ثلاث بلا عذر شرعي] وحديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ: (لا هجرة بعد ثلاث) [م : البر والصلة والآداب (٢٥٦٢)]

الثاني : أن مدة الهجر تقل أو تكثر بحسب المعصية وحال العاصي ، فقد يهجر أربعون يوما كما هجر النبي ﷺ الثلاثة الذين خلفوا قال تعالى : { لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ(١١٧)وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(١١٨) } [التوبة] وابن عمر رضي الله عنهما هجر ابنا له إلى أن مات ، وعمر بن عبد العزيز غطى وجهه عن رجل [د : الأدب (٤٢٧٠)] وقالت عائشة رضي الله عنها : هجر النبي ﷺ نساءه شهراً [أحمد : المكثرين (٤٩٣٥)] فليس للهجر مدة محددة بل يهجر حتى يقلع عن المعصية فمتى أقلع عنها بطل الهجر

وابن تيمية رحمه الله يقول أنها تدور مع تحقيق المصالح [انظر مجموع الفتاوى ٢٨٦/٣ وأيضا ٢٨ / ٢١٠ – ٢١٢]

ضوابط الدعوة في المجتمعات الإسلامية :

١- الاهتمام الأول بتحقيق التوحيد والبدء به ، وهذا أساس راسخ من أسس الدعوة سواء كانت في مجتمع إسلامي أو غيره .

٢- لا يجوز تكفير أحد من المسلمين بغير برهان ، ومن الأدلة عليه قوله ﷺ : (يرمي رجل رجلا بالفسوق ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك) [متفق عليه : خ : الأدب (٦٠٤٥) واللفظ له ، م : الايمان (٦١)] وفي حديث أبي هريرة ة ﷺ عن النبي ﷺ: (إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء به أحدهما) [متفق عليه : خ : الأدب (٦١٠٣) ، م : الإيمان (٦٠)]

٣- تجنب العنف في الدعوة ومن العنف تفجير البيوت وقتل الأبرياء والاغتيالات ، والدعاة إلى الله تعالى من أبعد الناس عن مثل هذه الموبقات والخسائس لأنه قدوة الناس في أقواله وأفعاله وتصرفاته ومواقفه ، وفي حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ : (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم) [ت : الإيمان (٢٦٢٧) وقال حسن صحيح ، س : الإيمان وشرائعه (٤٩٩٥) ، أحمد : المكثرين (٨٥٧٥)]

٤- لا يجوز الخروج على الحكام ولو فسقوا وجاروا ما أقاموا الصلاة ، لما يترتب على ذلك من المفاسد الكثيرة والشرور المستطيرة ، ، وهذا أصل من أصول أهل السنة والجماعة لم يخالفهم فيها غير أهل الأهواء كالخوارج ونحوهم ، والنصوص في هذا كثيرة جدا منها حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ : (من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني وإنما الإمام جنة يقاتل من ورائه ويتقى به فإن أمر بتقوى الله وعدل فإن له بذلك أجرا وإن قال بغيره فإن عليه منه) [متفق عليه : خ : الجهاد (٢٩٥٧) ، م : الإمارة (١٨٣٥)] وحديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال قال رسول الله ﷺ : (يكون عليكم أمراء تطمئن إليهم القلوب وتلين لهم الجلود ثم يكون عليكم أمراء تشمئز منهم القلوب وتقشعر منهم الجلود) فقال رجل أنقاتلهم يا رسول الله ؟ قال : (لا ما أقاموا الصلاة) [أحمد : المكثرين (١٠٧٩٢) ، وانظر شرحه في الفتح ١٣ / ٦ (٦٦٤٤)]

٥-وجوب الاعتزاز بالدين ومناصرة الحق والتعاون على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق والتواصي بالصبر { وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ(٨)}[المنافقون]

٦ – الحكم على الناس إنما يكون بالظاهر فلا يجوز إساءة الظن بغير برهان ساطع ولا التنقيب عما في القلوب لأن ذلك لا يعلمه ولا يملكه الا الله عز وجل ، وفي قصة ذي الوجنتين ، لما قال خالد بن

الوليد يا رسول الله ألا أضرب عنقه ؟ قال : (لا لعله أن يكون يصلي) . فقال خالد : وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق عن بطونهم) [متفق عليه : خ : المغازي (٤٣٥١) ، م : الزكاة (١٠٦٤)]

الدعوة في المجتمعات غير الإسلامية

هي المجتمعات التي لا تدين بدين الإسلام ، والكفر أنواع : كفر الانكار وهو أن يكفر بقلبه ولسانه ، وكفر الجحود وهو : أن يعترف بقلبه ولا يقر بلسانه فهو كافر جاحد ككفر إبليس ، وكفر المعاندة وهو : أن يعرف الله بقلبه ويقر بلسانه ولا يدين به حسدا وبغيا ككفر أبي جهل وأضرابه ، وكفر النفاق وهو : أن يقر بلسانه ويكفر بقلبه ولا يعتقد بقلبه [لسان العرب ٥/١٤٤-١٤٥ مادة كفر]

والكافر اصطلاح يشمل المشرك الذي يعبد الأصنام والآلهة المزعومة كاليهود والنصارى ، كما يشمل المرتد الذي ارتد عن الإسلام كما في قوله تعالى : { وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢١٧)} [البقرة]

والمعني بالدراسة هنا المجتمع الذي لا يدين بالإسلام أيا كان نوعه . والكفار بحسب الظاهر أنواع منهم المشركون ، ومنهم أهل الكتاب (اليهود والنصارى) ومنهم الملاحدة مثل الشيوعيين والوجوديين وغيرهم ، وفيما يأتي لمحات عن دعوة كل من المشركين وأهل الكتاب .

أولا – دعوة المشركين

(تعريف الشرك ، فضل التوحيد وخطر الشرك ، أنواع المشركين ، سماتهم ، شبههم في الألوهية ، أهم أساليب دعوتهم إلى التوحيد ، شبههم في النبوة ، أهم أساليب دعوتهم إلى الإيمان بالرسل وبالقرآن العظيم ، شبههم في البعث والنشور ، مسالك القرآن العظيم في تقرير البعث ، الأحكام المتعلقة بالمشركين)

تعريف الشرك وأنواعه :

الشرك في اللغة المساواة والمماثلة ، قال في اللسان : (أشرك شركا أي جعله شريكا في ملكه ، والشرك بالله أن تجعل شريكا في ربوبيته تعالى الله عن الشركاء والأنداد) [لسان العرب ١٠/٤٤٩]

(والشرك هو عبادة غير الله مع الله) والمشركون هم الذين عبدوا الله وعبدوا معه غيره بصرف شيء من العبادة المستحقة لله وحده الخالق البارئ . ومن ثم فالشرك هو الظلم بل هو أعظم الظلم وأفحشه كما في حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال : لما نزلت الآية : { الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(٨٢)} [الأنعام] شق ذلك على الصحابة وقالوا يا نبي الله

وأينا لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فأنزل الله تعالى الآية ، وفي رواية لمسلم : فقال النبي ﷺ ليس كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه : { يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ(١٣) }[لقمان] ، [متفق عليه : خ : الإيمان (٣٢) ، م : الإيمان (١٢٤)] ومثل هذه الآية قوله تعالى : { وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنْ الظَّالِمِينَ(١٠٦) } [يونس]

سمات المشركين :

١- تقليد الآباء : قال تعالى { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ(١٧٠)} [البقرة]

وقد جاهد الأنبياء أقوامهم في إزالة هذه الشبهة ودحضها من مثل ما قصه الله علينا من دعوة هود عليه السلام وأنه قال لقومه : { قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنْ الْمُنتَظِرِينَ(٧١) } [الأعراف] والمعنى : أتخاصمونني في أسماء سميتموها أصناما لا تضر ولا تنفع ما جعل الله لكم في عبادتكم إياها من حجة تحتجون بها ولا معذرة تعتذرون بها ، لأن العبادة إنما هي لمن ضر ونفع وأثاب على الطاعة وعاقب على المعصية ورزق ومنع فأما الجماد من الحجارة والحديد والنحاس فإنه لا نفع فيه ولا ضر .. فانتظروا حكم الله فينا وفيكم إني معكم من المنتظرين حكمه وفصل قضائه فينا وفيكم) [انظر جامع البيان للطبري ٨ / ٢٢٣]

٢- منع الزكاة قال تعالى :{ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ(٦)الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ(٧)} [فصلت]

٣- طلب المعجزات استكباراً وجحوداً قال تعالى : { وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا(٧)} [الفرقان] فهذه الآيات ونظائرها ناطقة بأن المشركين لا ينفكون عن طلب المعجزات ، وطلبهم ذلك لم يكن بباعث الاستهداء بل بباعث الاستهزاء قال تعالى { وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ(٧) [الأنعام]

٤- اللجوء إلى السحرة والكهنة والعرافين : قال الله تعالى : { اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢٥٧) } [البقرة]

إن اللجوء إلى السحرة والدجاجلة والعرافين لا يكون إلا بسبب الجهل بحقيقة التوحيد والتفريط فيه كما هو حال الكثيرين من جهلة المسلمين اليوم .

٥- النفور من التوحيد والاستبشار بالزيغ والشرك ! قال تعالى : { كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ(١٣)} [الشورى] وقال {وَإِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزّتْ قُلُوبُ الّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}(٤٥)} [الزمر : ٤٥] اشمأزت أي نفرت من توحيد الله وإخلاص الدين له وترك ما يعبدون من دونه واستبشرت بالشرك والوثنية وعبادة الأصنام لأنها توافق أهواءهم ! [انظر تيسير الكريم الرحمن ص ٦٧٢]

٦- الاحتجاج بالقدر :قال تعالى : {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ(١٤٨)قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ(١٤٩)قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ(١٥٠) } [الأنعام]

ومن شبه المشركين في القدر ما جاء في قوله تعالى :{ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ(٣٥)} [النحل]

ومما أبطل به علماء المسلمين هذه الشبهة ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية قال : (وليس في القدر حجة لابن آدم ولا عذر بل القدر يؤمن به ولا يحتج به والمحتج بالقدر فاسد العقل والدين متناقض فإن القدر إن كان حجة وعذرا لزم أن لا يلام أحد ولا يعاقب ولا يقتص منه وحينئذ فهذا المحتج بالقدر يلزمه إذا ظلم في نفسه وماله وعرضه وحرمته أن لا ينتصر من الظالم ولا يغضب عليه ولا يذمه وهذا أمر ممتنع في الطبيعة لا يمكن أحد أن يفعله فهو ممتنع طبعا محرم شرعا ، ولو كان القدر حجة وعذرا لم يكن إبليس ملوما ولا معاقبا ولا فرعون وقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الكفار ولا كان جهاد الكفار جائزا ولا إقامة الحدود جائزا ولا قطع السارق ولا جلد الزاني ولا رجمه ولا قتل القاتل ولا عقوبة معتد بوجه من الوجوه ، ولما كان الاحتجاج بالقدر باطلا في فطر الخلق وعقولهم لم تذهب إليه أمة من الأمم ولا هو مذهب أحد من العقلاء الذين يطردون قولهم فإنه لا يستقيم عليه مصلحة أحد لا في دنياه ولا آخرته ولا يمكن اثنان أن يتعاشرا ساعة واحدة إن لم يكن أحدهما ملتزما مع الآخر نوعا من الشرع فالشرع نور الله في أرضه وعدله بين عباده ، لكن الشرائع تتنوع فتارة تكون منزلة من عند الله كما جاءت به الرسل وتارة لا تكون كذلك ثم المنزلة تارة تبدل وتغير كما غير أهل الكتاب شرائعهم وتارة لا تغير ولا تبدل وتارة يدخل النسخ في بعضها وتارة لا يدخل ، وأما القدر فانه لا يحتج

به أحد إلا عند اتباع هواه فإذا فعل فعلا محرما بمجرد هواه وذوقه ووجده من غير أن يكون له علم بحسن الفعل ومصلحته استند إلى القدر كما قال المشركون { سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ } قال الله تعالى { كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ(١٤٨)قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ } [الأنعام : ١٤٨-١٤٩] فبين أنهم ليس عندهم علم بما كانوا عليه من الدين وإنما يتبعون الظن ، والقوم لم يكونوا ممن يسوغ لكل أحد الاحتجاج بالقدر فانه لو خرب أحد الكعبة أو شتم إبراهيم الخليل أو طعن في دينهم لعادوه وآذوه كيف وقد عادوا النبي ﷺ عليه وسلم على ما جاء به من الدين وما فعله هو أيضا من المقدور ، فلو كان الاحتجاج بالقدر حجة لكان النبي ﷺ وأصحابه فان كان كل ما يحدث فى الوجود فهو مقدر فالحق والمبطل يشتركان في الاحتجاج بالقدر إن كان الاحتجاج به صحيحا ولكن كانوا يتعمدون على ما يعتقدونه من جنس دينهم وهم في ذلك يتبعون الظن ليس لهم به علم بل هم يخرصون (وموسى لما قال لآدم لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة فقال آدم عليه السلام فيما قال لموسى لم تلومني على أمر قدره الله على قبل أن أخلق بأربعين عاما فحج آدم موسى) [متفق عليه : خ : الأنبياء (٣٤٠٩) ، م : القدر (٢٦٥٢)] لم يكن آدم عليه السلام محتجا على فعل ما نهى عنه بالقدر ولا كان موسى ممن يحتج عليه بذلك فيقبله بل آحاد المؤمنين لا يفعلون مثل هذا فكيف آدم وموسى ، وآدم قد تاب مما فعل واجتباه ربه وهدى وموسى أعلم بالله من أن يلوم من هو دون نبي على فعل تاب منه فكيف بنبي من الأنبياء وآدم يعلم أنه لو كان القدر حجة لم يحتج إلى التوبة ولم يجر ما جرى من خروجه من الجنة وغير ذلك ولو كان القدر حجة لكان لإبليس وغيره وكذلك موسى يعلم انه لو كان القدر حجة لم يعاقب فرعون بالغرق ولا بنو إسرائيل بالصعقة وغيرها كيف وقد قال موسى { قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } [القصص : ١٦] وقال { أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ(١٥٥)} [الأعراف] وهذا باب واسع ، وإنما كان لوم موسى لآدم من أجل المصيبة التي لحقتهم بآدم من أكل الشجرة ولهذا قال لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة واللوم لأجل المصيبة التي لحقت الإنسان نوع واللوم لأجل الذنب الذي هو حق الله نوع آخر فإن الأب لو فعل فعلا افتقر به حتى تضرر بنوه فأخذوا يلومونه لأجل ما لحقهم من الفقر لم يكن هذا كلومه لأجل كونه أذنب) [مجموع الفتاوى ٢ / ٣٢٣ - ٣٢٦]

٧- اختراع الطقوس وابتداعها وافتراء الكذب على الله تعالى ، قال تعالى : { مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا

يَعْقِلُونَ(١٠٣)} [المائدة] وقال تعالى في موضع : { وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنْ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(١٣٦)} [الأنعام]

٨- عداوتهم للمؤمنين واحتقارهم والكيد لهم وهي عداوة دينية لدودة مستمكنة قال تعالى : { لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ(٨٢)} [المائدة]

أساليب دعوة المشركين إلى توحيد الله تعالى :

١) إيراد شبهتهم في الألوهية والرد عليها .

٢) الاستدلال بالخلق .

٣) الاستدلال بانتظام الكون .

٤) الاستدلال بالفطرة .

وفيما يلي تلخيص ذلك بما يسمح به المقام على ضوء الكتاب والسنة :

١- إيراد شبهة المشركين في الألوهية والرد عليها :

مؤدى شبهتهم أنهم يعبدون آلهتهم بدعوى أنها تقربهم إلى الله إذ لهذه الأوثان أو الأشخاص أو الأولياء مكانة عند الله فهي تشفع لهم عنده وتقربهم إليه ، قال تعالى : { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ(١٨) } [يونس]

ويتلخص الرد في أن هذا كذب محض فما يدريهم أن لهذه الآلهة المزعومة مكانة عند الله . وما يدريهم أنها يتشفع لهم ولا تنقلب ضدهم ؟! وأن الشفاعة لله جميعا فلا يشفع عنده إلا من أذن له قال تعالى :{ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى(٢٦)} [النجم]

قال ابن تيمية رحمه الله : (وأما قول المشركين إن عظمته وجلاله يقتضي أن لا يتقرب إليه إلا بواسطة وحجاب ، والتقرب بدون ذلك غض من جنابه الرفيع ! فهذا باطل من وجوه : منها أن الذي لا يتقرب إليه إلا بوسائط وحجاب إما أن يكون قادرا على سماع كلام جنده وقضاء حوائجهم بدون الوسائط والحجاب وإما أن لا يكون قادرا ، فإن لم يكن قادرا كان هذا نقصا ، والله تعالى موصوف بالكمال فوجب أن يكون متصفا بأنه يسمع كلام عباده بلا وسائط ويجيب دعاءهم ويحسن إليهم بدون حاجة حجاب ، وإن كان الملك قادرا على فعل أموره بدون الحجاب وترك الحجاب

إحسانا ورحمة كان ذلك صفة كمال . وأيضا فقول القائل إنّ هذا غضٌّ منه إنما يكون فيمن يمكن الخلق أن يضروه ويفتقر في نفعه إليهم ، فأما مع كمال قدرته واستغنائه عنهم ، وأمنه أن يؤذوه ، فليس تقربه إليه غضا منه ؛ بل إذا كان اثنان : أحدهما يقرب إليه الضعفاء إحسانا إليه ولا يخاف منهم ، والآخر لا يفعل ذلك إما خوفا وإما كبرا وإما غير ذلك : كان الأول أكمل من الثاني فإن هذا لا يقال إذا كان ذلك بأمر المطاع ؛ بل إذا أذِن للناس في التقرب منه ، ودخول داره : لم يكن ذلك سوء أدب عليه ولا غضا منه ، فهذا إنكار على من تعبده بغير ما شرع ، ولهذا قال تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا(٤٥)وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا(٤٦)} [الأحزاب] وقال تعالى : { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنْ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ (١٢) } [الشورى] ، [مجموع الفتاوى ٦ / ١٣٣]

٢- أسلوب الاستدلال بالخلق :

وردت في ثنايا كتاب الله تعالى دعوة المشركين إلى الإيمان بالله وتوحيده وتفنيد الشرك وأسبابه بطريق الاستدلال بالخلق ، قال تعالى في تقرير الخلق وأنه من خصائص الألوهية : {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } [لقمان : ١٠-١١]

قال ابن القيم في هذه الآية : (لله ما أحلى هذا اللفظ وأوجزه وأدله على بطلان الشرك فإنهم إن زعموا أن آلهتهم خلقت شيئا مع الله طولبوا بأن يروه إياه وإن اعترفوا بأنها أعجز وأضعف وأقل من ذلك كانت آلهيتها باطلا ومحالا ، ومن ذلك قوله تعالى : { {قُلْ أَرَأَيْتُمْ مّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مّن قَبْلِ هَـــذَا أَوْ أَثَارَةٍ مّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}(٤) } [الأحقاف] فطالبهم بالدليل العقلي والسمعي ، وقال تعالى : { {قُلْ مَن رّبّ السّمَاوَاتِ وَالأرْضِ قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتّخَذْتُمْ مّن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ لاَ يَمْلِكُونَ لأنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأعْمَىَ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظّلُمَاتُ وَالنّورُ أَمْ جَعَلُواْ للّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهّارُ(١٦)} [الرعد] فاحتج على تفرده بالإلهية بتفرده بالخلق وعلى بطلان إلهية ما سواه بعجزهم عن الخلق وعلى أنه واحد بأنه قهار والقهر التام يستلزم الوحدة فإن الشركة تنافي تمام القهر) [الصواعق المرسلة ٤٦٥/٢]

وقوله في الدعوة إلى إقامة الموازنة العقلية : { وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ(١٣)وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٤)وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(١٥)وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ(١٦)أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧)} [النحل]

وقال تعالى : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا(٤٠)} [فاطر]

فالخلق من خصائص الإلوهية لذا جاء في الحديث القدسي : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي فَلْيَخْلُقُوا حَبَّةً وَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً) [خ : اللباس (٥٩٥٣)]

٣ – الاستدلال بالعناية الالهية (وانتظام الكون) :

وهو الاستدلال العقلي وأن الله وحده هو المهيمن المدبر لهذا الكون في دقة تكوينه ، وفي انتظامه ، وفي علاقات المخلوقات ببعضها ، نظام محكم وصنع متقن ، لا يعتريه تبديل ولا تحويل إلى أن يأذن الله ، في جريان الشمس وتعاقب الليل والنهار وخروج الثمرات ونحو ذلك مما تنتظم به الحياة وتستمر وتدوم ، قال تعالى : { أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٨٦)} [النمل] والعاقل يتساءل لماذا يتعاقب الليل والنهار ومن وراء هذا التبدل والتغير المتقن !!؟

وقال تعالى : { وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ(٣٣)وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ(٣٤)لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ(٣٥)سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ(٣٦)وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ(٣٧)وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ(٣٩)لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ(٤٠)وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ(٤١)وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ(٤٢)وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ(٤٣)إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ(٤٤) } [يس : ٣٣ – ٤٤]

ففي هذه الآيات البينات عدّد تعالى نعمه العظيمة وذكر أنها مستمرة لا تتبدل إلى أجل مسمى ، ثم ذكر عجز الآلهة المزعومة عن الاتيان بمثلها ، ثم قرر افتقار الخلق إليه تعالى وغناه عنهم ، على هذا التسلسل الذي دلالة واضحة على هيمنته تعالى وتدبيره شؤون الخلق .

إن هذا الانتظام لا يتحقق إلا بمشيئة واحدة وإرادة واحدة هي إرادة الله ومشيئته قال ابن القيم في قوله تعالى : { {مَا اتَّخَذَ اللّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـهٍ إِذاً لّذَهَبَ كُلّ إِلَـهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَىَ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللّهِ عَمّا يَصِفُونَ}(٩١) } [المؤمنون] قال الإمام ابن القيم : (تأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز البين فإن الإله الحق لا بد أن يكون خالقا فاعلا يوصل إلى عابده النفع ويدفع عنه الضر فلو كان معه سبحانه إله لكان له خلق وفعل وحينئذ فلا يرضى بشركة الإله الآخر معه بل إن قدر على قهره وتفرده بالإلهية دونه فعل وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب به كما ينفرد ملوك الدنيا عن بعضهم بعضا بممالكهم ، إذا لم يقدر المنفرد على قهر الآخر والعلو عليه فلا بد من أحد أمور ثلاثة : إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه ، وإما أن يعلو بعضهم على بعض وإما أن يكون كلهم تحت قهر إله واحد ومللك واحد يتصرف فيهم ولا يتصرفون فيه ويمتنع من حكمهم عليه ولا يمتنعون من حكمه عليهم فيكون وحده هو الإله الحق وهم العبيد المربوبون المقهورون . وانتظام أمر العالم العلوي والسفلي وارتباط بعضه ببعض وجريانه على نظام محكم لا يختلف ولا يفسد من أدل دليل على أن مدبره واحد لا إله غيره كما دل دليل التمانع على أن خالقه واحد لا رب له غيره فذاك تمانع في الفعل والإيجاد وهذا تمانع في العبادة والإلهية فكما يستحيل أن يكون للعالم ربان خالقان متكافئان يستحيل أن يكون له إلهان معبودان) [الصواعق المرسلة ٢ / ٤٦٣-٤٦٤]

ومن الآيات التي ورد فيها الجمع بين دليلي الخلق والعناية قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(٢١)الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ(٢٢)} [البقرة]

وقال تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣)} [فاطر] قال الإمام السعدي : (لما كان من المعلوم أنه ليس أحد يخلق ويرزق إلا الله ، نتج من ذلك أن كان ذلك دليلاً على ألوهيته ووجوب إخلاص العبودية له ، ولهذا قال : { لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ } أي : تصرفون عن عبادة الخالق الرازق إلى عبادة المخلوق المرزوق !) [تيسير الكريم الرحمن ص ٦٣٠]

والاستدلال بـــ (دليل العناية) واسع المدى كثير المسالك ، فمنه النظر في الكون في تناسقه وتكامله وترابطه بكل ما أودع فيه من الكائنات ، ولنأخذ مثالا بالنبات تجده مختلفا في ألوانه ومذاقه وفوائده وأحجامه وفوائده ، فمنه الأحمر والأبيض والأصفر ، ومنه الحلو كالتمر والمر كالفلفل والحامض كالليمون ، ومنه الغذاء كعامة الفواكه ومنه الدواء ككثير من النباتات ، ومنه زكي الرائحة كالموز والسفرجل والكريه الرائحة كالبصل والعديم الرائحة كالبطيخ . وكلها أصلها واحد ويسقى بماء واحد فمن الذي أودع فيها تلك الخصائص وكيف ؟!

٤ – الاستدلال بالفطرة وهو (الأسلوب الفطري) :

ويرد في القرآن الكريم على عدة أوجه منها : (إقرارهم بالألوهية عند الشدائد) وفي هذا تقرير حال الخلق حال الكرب والنوازل والتجائهم إلى الله وحده دون سواه ، ومن ذلك حال الركوب في الفلك مع اضطراب البحر قال تعالى : { وَإِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا(٦٧)} [الاسراء] فالالتجاء ساعة الشدة إلى الله إنما يكون حين تتكشف الفطرة على حقيقتها ويتزاح ما عليها من شبهات وشهوات .

وقال تعالى : { قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ(٤١)} [الأنعام] قال الإمام القرطبي رحمه الله قوله تعالى : { أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ } الآية في محاجة المشركين ممن اعترف أن له صانعا أي أنتم عند الشدائد ترجعون إلى الله وسترجعون إليه يوم القيامة أيضا فلم تصرون على الشرك في حال الرفاهية ؟ وكانوا يعبدون الأصنام ويدعون الله في صرف العذاب . قوله تعالى { بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ } بل إضراب عن الأول وإيجاب للثاني { إّياهُ } نصب بـــ { تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ } أي يكشف الضر الذي تدعون إلى كشفه إن شاء كشفه وتنسون ما تشركون قيل عند نزول العذاب وقال الحسن أي تعرضون عنه إعراض الناسي وذلك لليأس من النجاة من قبله إذ لا ضرر فيه ولا نفع) [تفسير القرطبي ٦ / ٤٢٣]

والسؤال المطروح : لماذا يلجأ المكروب إلى الله وحده ساعة الشدة ؟؟ ولماذا ينيب إلى الله و حده ؟!! قال ابن القيم رحمه الله : (والإنابة إنابتان : إنابة لربوبيته وهي إنابة المخلوقات كلها يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر قال الله تعالى : {وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ } فهذا عام في حق كل داع أصابه ضر كما هو الواقع وهذه الإنابة لا تستلزم الإسلام بل تجامع الشرك والكفر كما قال تعالى في حق هؤلاء { ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُوا بِمَا

آتَيْنَاهُمْ } فهذا حالهم بعد إنابتهم ، والإنابة الثانية : إنابة أوليائه وهي إنابة لإلهيته إنابة عبودية ومحبة ، وهي تتضمن أربعة أمور : محبته والخضوع له والإقبال عليه والإعراض عما سواه فلا يستحق اسم المنيب إلا من اجتمعت فيه هذه الأربعة وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك وفي اللفظة معنى الإسراع والرجوع والتقدم و المنيب إلى الله : المسرع إلى مرضاته الراجع إليه كل وقت المتقدم إلى محابه ، قال صاحب المنازل : الإنابة في اللغة : الرجوع وهي هاهنا الرجوع إلى الحق) [مدارج السالكين ٤٣٤/١]

أساليب دعوة منكري البعث والنشور :

هذا وتتلخص أساليب دعوة منكري البعث في الآتي :

١) الاستدلال بخلق السموات والأرض .

٢) الاستدلال باخضرار الأرض الميتة بعد نزول الغيث عليها .

٣) الاستدلال بالنشأة الأولى .

٤) الاستدلال بمن ماتوا ثم أحياهم الله .

٥) الاستدلال بالنوم .

وفيما يأتي إيضاح هذه الأساليب بما يناسب المقام :

١- الاستدلال بخلق السموات والأرض :

وهو أسلوب يقوم على المحاجة والاستدلال العقلي ، فمن قدر على خلق السموات والأرض وهي أكبر جرما وأعظم شأنا قادر على خلق الإنسان وهو جزء صغير جدا من هذه الأرض التي هي جرم من الأجرام الضخمة التي خلقها الله ، قال تعالى : { فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ(١١)} [الصافات] وقال تعالى : { لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(٥٧) } [غافر]

وقال تعالى : { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٣٣)} [الأحقاف] وقال تعالى : { أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا(٢٧)رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا(٢٨)وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا(٢٩)... } [النازعات]

وعليه فإن هؤلاء المنكرين للبعث يُسألون : أيها أشد خلقا هم أم السموات والأرض وما بينهما من الملائكة والشياطين والمخلوقات العظيمة ؟ إنهم يقرون أن هذه المخلوقات أشدّ خلقاً منهم وإذا كان

الأمر كذلك فكيف يؤمنون بما هو أعظم وينكرون ما هو أهون وهو البعث بعد الموت ؟ والعقلاء متفقون على أن من خلق ما هو أكبر وأعظم قادر من باب أولى على خلق من هو أصغر وأحقر ، وأن من خلق الكل هو أقدر على خلق الجزء لا ينازع في ذلك العقلاء ، والإنسان جزء يسير جداً من الأرض .

٢- الاستدلال باخضرار الأرض الميتة بعد نزول الغيث عليها :

هو أسلوب مستل من واقع الحياة ففي دورة متكررة يشهدها الناس مراراً من تعاقب الليل والنهار ، والضياء والظلام ، وهطول الأمطار ثم خروج الزورع ثم جفافها وفناؤها ثم نزول الأمطار مرة أخرى وهكذا ... فهو استدلال واقعي نابع من واقع الناس ومشاهداتهم المتكررة ، تأمل قوله تعالى : { وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(٥٧)وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ(٥٨)} [الأعراف] وقال تعالى : { يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ(١٩)} [الروم] وقال تعالى : { اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ(٤٨)وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ(٤٩)فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٥٠)} [الروم] وقال تعالى : { وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (٩)} [فاطر] أي هكذا ينشر الله الموتى بعد بلائهم في قبورهم فيحييهم بعد فنائهم كما أحيينا هذه الأرض بالغيث بعد مماتها [جامع البيان ١١٩/٢٢]

وقال تعالى : { الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(١٠)وَالَّذِي نَزَّلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ(١١)} [الزخرف] قال الإمام الطبري : (يقول تعالى ذكره كما أخرجنا بهذا الماء الذي نزلناه من السماء من هذه البلدة الميتة بعد جدوبها وقحوطها النبات والزرع كذلك أيها الناس تخرجون من بعد فنائكم ومصيركم في الأرض رفاتا بالماء الذي أنزله إليها لإحيائكم من بعد مماتكم منها أحياء كهيئتكم التي بها قبل مماتكم) [جامع البيان ٢٥/٢٥]

وقال تعالى : { ومن آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٣٩)} [فصلت] فالأرض الميتة هنا بد نزول الماء عليها

وصفت بوصفين هما (الاهتزاز والربا) وهو النمو والازدياد ، وهما وصفان لازمان للأحياء من البشر والبهائم فالاهتزاز هو الحركة والدأب والنشاط ، ومثل ذلك النمو والازدياد على عكس الميت حيث لا حركة فيه ولا نمو .

وقال تعالى : { وَنَزَّلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ(٩)وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ(١٠)رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ(١١) } [ق]

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعا : (.. قال فيرسل الله ماء من تحت العرش كمني الرجال فتنبت لحمانهم وجثمانهم من ذلك الماء كما ينبت الأرض من الثرى ثم قرأ عبد الله { وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ} [المستدرك على الصحيحين ٥٤٢/٤ (٨٥١٩) وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه]

٣- الاستدلال بالنشأة الأولى :

وهو أسلوب يدعو إلى التأمل في خلق الإنسان وما مر به من أطوار والاستدلال من ثم على البعث والنشور قال تعالى : { وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا(٦٦)أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا(٦٧)} [مريم] وقال تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنْ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ(٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٦)وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ(٧)} [الحج] قال الطبري : (قال يا أيها الناس إن كنتم في شك من قدرتنا على بعثكم من قبوركم بعد مماتكم وبلائكم استعظاما منكم لذلك فإن في ابتدائنا خلق أبيكم آدم صلى الله عليه وسلم من تراب ثم إنشائنا إياكم من نطفة آدم ثم تصريفناكم أحوالا حالا بعد حال من نطفة إلى علقة ثم من علقة إلى مضغة لكم معتبرا ومتعظا تعتبرون به فتعلمون أن من قدر على ذلك فغير متعذر عليه إعادتكم بعد فنائكم كما كنتم أحياء قبل الفناء) [جامع البيان ١١٦/١٧]

قال تعالى : { أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(١٩)قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٢٠) }[العنكبوت] وقال تعالى : { اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(١١) } [الروم] وقال تعالى : {

وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٢٧)} [الروم]

وقال تعالى : { أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ(١٥)} [ق] وقال تعالى : { وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى(٤٢)وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى(٤٣)وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا(٤٤)وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى(٤٥)مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى(٤٦)وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى(٤٧) } [النجم] وقال تعالى : { أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى(٣٦)أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى(٣٧)ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى(٣٨)فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى(٣٩)أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى(٤٠)} [القيامة]

على أن السلسلة الحياتية التي يمر بها الإنسان مطردة وهي هكذا (موت فحياة ، ثم موت فحياة) قال تعالى : { كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢٨)}[البقرة] والعناصر الثلاثة منها مما يؤمن به المكذبون بالبعث ، وإنما وقع إنكارهم على العنصر الرابع فإذا كانت العناصر الثلاثة تحققت وهم يؤمنون بها فرابعها متحقق لا محالة لأنه من لوازمها .

ولننقل اللطائف النفيسة لشيخي الإسلام ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله تعالى في آيات سورة يس :

قال ابن تيمية : (قوله تعالى { من يحيي العظام وهي رميم } قياس حذفت إحدى مقدمتيه لظهورها والأخرى سالبة كلية قرن معها دليلها وهو المثل المضروب الذي ذكره بقوله { وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم } وهذا استفهام إنكار متضمن للنفي أي لا أحد يحيي العظام وهي رميم فإن كونها رميما يمنع عنده إحياءها لمصيرها إلى حال اليبس والبرودة المنافية للحياة التي مبناها على الحرارة والرطوبة ولتفرق أجزائها واختلاطها بغيرها ولنحو ذلك من الشبهات والتقدي الجواب هذه العظام رميم ولا أحد يحيي العظام وهي رميم فلا أحد يحييها ولكن هذه السالبة كاذبة ومضمونها امتناع الإحياء وبين سبحانه إمكانه من وجوه ببيان إمكان ما هو أبعد من ذلك وقدرته عليه فقال { يحييها الذي أنشأها أول مرة } وقد أنشأها من التراب ثم قال وهو بكل خلق عليم ليبين علمه بما تفرق من الأجزاء واستحال ثم قال { الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا } فبين أنه أخرج النار الحارة اليابسة من البارد الرطب وذلك أبلغ في المنافاة لأن اجتماع الحرارة والرطوبة أيسر من اجتماع الحرارة واليبوسة فالرطوبة تقبل من الانفعال مالا تقبله اليبوسة ثم قال { أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم } وهذه مقدمة معلومة بالبديهة ولهذا جاء باستفهام التقرير الدال على أن ذلك مستقر معلوم عند المخاطب كما قال سبحانه { ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن

تفسيرا } [الفرقان ٣٣] ثم بين قدرته العامة بقوله { إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون }) [الفتاوى الكبرى ١/ ٤٤٧ ومجموع الفتاوى ٣/٢٩٧]

وقال ابن القيم عقب الآيات السابقة : (لو رام أعلم البشر وأفصحهم وأقدرهم على البيان أن يأتي بأحسن من هذه الحجة أو بمثلها في ألفاظ تشابه هذه الألفاظ في الإيجاز والاختصار ووضوح الدلالة وصحة البرهان لألفى نفسه ظاهر العجز منقطع الطمع يستحي الناس من ذلك ، فإنه سبحانه افتتح هذه الحجة بسؤال أورده الملحد اقتضى جوابا فكان في قوله سبحانه { وَنَسِيَ خَلْقَهُ} [يس :٧٨] ما وفى بالجواب وأقام الحجة وأزال الشبهة لولا ما أراد سبحانه من تأكيد حجته وزيادة تقريرها وذلك أنه سبحانه أخبر أن هذا الملحد السائل عن هذه المسألة لو لم ينس خلق نفسه وبدأ كونه وذكر خلقه لكانت فكرته فيه كافية في جوابه مسكتة له عن هذا السؤال ثم أوضح سبحانه ما تضمنه قوله { ونسي خلقه } وصرح به جوابا له عن مسألته فقال : { قل يحييها الذي أنشأها أول مرة } فاحتج بالإبداء على الإعادة وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى إذ كل عاقل يعلم علما ضروريا أن من قدر على هذه قدر على هذه وأنه لو كان عاجزا عن الثانية لكان عن الأولى أعجز وأعجز ، ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على مخلوقه وعلمه بتفاصيل خلقه اتبع ذلك بقوله { وهو بكل خلق عليم } فهو عليم بالخلق الأول وتفاصيله وجزئياته ومواده وصورته وعلله الأربع ، وكذلك هو عليم بالخلق الثاني وتفاصيله ومواده وكيفية إنشائه فإن كان تام العلم كامل القدرة كيف يتعذر عليه أن يُحيي العظام وهي رميم ثم أكد الأمر بحجة قاهرة وبرهان ظاهر يتضمن جوابا عن سؤال ملحد آخر يقول العظام إذا صارت رميما عادت طبيعتها باردة يابسة والحياة لا بد أن تكون مادتها وحاملها طبيعته حارة رطبة لتقبل صورة الحياة فتولى سبحانه جواب هذا السؤال بما يدل على أمر البعث ففيه الدليل والجواب معا فقال : { الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون } فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الأخضر الممتلئ بالرطوبة والبرودة فالذي يخرج الشيء من ضده وتنقاد له مواد المخلوقات وعناصرها ولا تستعصي عليه هو الذي يفعل ما أنكره الملحد ودفعه من إحياء العظام وهي رميم ، ثم أكد هذا بأخذ الدلالة من الشيء الأجل الأعظم على الأيسر الأصغر وأن كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل فهو على ما دونه بكثير أقدر وأقدر ، فمن قدر على حمل قنطار فهو على حمل أوقية أشد اقتدارا فقال { أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ(٨١) } [يس] فأخبر سبحانه أن الذي أبدع السموات والأرض على جلالتهما وعظم شأنهما وكبر أجسامهما وسعتهما وعجيب خلقتهما أقدر على أن يحيي عظاما قد صارت رميما فيردها إلى حالتها الأولى كما قال في موضع آخر : {لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(٥٧)} [غافر] وقال : { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٣٣) } [الأحقاف] ثم أخذ سبحانه ذلك وبينه بيانا آخر يتضمن مع إقامة الحجة دفع شبهة كل ملحد وجاحد وهو أنه ليس في فعله بمنزلة غيره الذي يفعل بالآلات والكلفة والتعب والمشقة ولا يمكنه الاستقلال بالفعل بل لا بد معه من آلة ومشارك ومعين بل يكفي في خلقه لما يريد أن يخلقه ويكونه نفس إرادته وقوله للمكون كن فإذا هو كائن كما شاءه وأراده ، فأخبر عن نفاذ مشيئته وإرادته وسرعة تكوينه وانقياد المكون له وعدم استعصائه عليه ، ثم ختم هذه الحجة بإخباره أن ملكوت كل شيء بيده فيتصرف فيه بفعله وهو قوله : { وإليه ترجعون } فتبارك الذي تكلم بهذا الكلام الذي جمع في نفسه بوجازته وبيانه وفصاحته وصحة برهانه كل ما تلزم الحاجة إليه من تقرير الدليل وجواب الشبهة ودحض حجة الملحد وإسكات المعاند بألفاظ لا أعذب منها عند السمع ولا أحلى منها ومن معانيها للقلب ولا أنفع من ثمرتها للعبد .

ومن هذا قوله سبحانه : { وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا(٤٩)قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا(٥٠)أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا(٥١)يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا(٥٢)} [الإسراء] فتأمل ما أجيبوا به عن كل سؤال على التفصيل فإنهم قالوا أولا إذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا فقيل لهم في جواب هذا السؤال إن كنتم تزعمون أنه لا خالق لكم ولا رب فهلا كنتم خلقا جديدا لا يفنيه الموت كالحجارة والحديد أو ما هو أكبر في صدوركم من ذلك فإن قلتم لنا رب خالق خلقنا على هذه الصفة وأنشأنا هذه النشأة التي لا تقبل البقاء ولم يجعلنا حجارة ولا حديدا فقد قامت عليكم الحجة بإقراركم فما الذي يحول بين خالقكم ومنشئكم وبين إعادتكم خلقا جديدا وللحجة تقرير آخر وهو أنكم لو كنتم من حجارة أو حديد أو خلق أكبر منهما لكان قادرا على أن يفنيكم ويحيل ذواتكم وينقلها من حال إلى حال ، ومن قدر على التصرف في هذه الأجسام مع شدتها وصلابتها بالإفناء والإحالة ونقلها من حال إلى حال فما يعجزه عن التصرف فيما هو دونها بإفنائه وإحالته ونقله من حال إلى حال ، فأخبر سبحانه أنهم يسألون سؤالا آخر بقولهم من يعيدنا إذا استحالت أجسامنا وفنيت فأجابهم بقوله : { قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [الإسراء :٥١] وهذا الجواب نظير جواب قول السائل { من يحيي العظام وهي رميم } فلما أخذتهم الحجة ولزمهم حكمها ولم يجدوا عنها معدلا انتقلوا إلى سؤال آخر يتعللون به كما يتعلل المقطوع بالحجاج

بمثل ذلك وهو قولهم متى هو فأجيبوا بقوله : {أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا(٥١)يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا(٥٢)} [الإسراء] ومن هذا قوله سبحانه { أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى(٣٦)أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى(٣٧)ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى(٣٨)فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى(٣٩)أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى(٤٠)} [القيامة] فاحتج سبحانه على أنه لا يترك الإنسان مهملا معطلا عن الأمر والنهي والثواب والعقاب وأن حكمته وقدرته تأبى ذلك فإن من نقله من نطفة مني إلى العلقة ثم إلى المضغة ثم خلقه وشق سمعه وبصره وركب فيه الحواس والقوى والعظام والمنافع والأعصاب والرباطات التي هي أسره وأتقن خلقه وأحكمه غاية الإحكام وأخرجه على هذا الشكل والصورة التي هي أتم الصور وأحسن الأشكال كيف يعجز عن إعادته وإنشائه مرة ثانية أم كيف تقتضي حكمته وعنايته به أن يتركه سدى فلا يليق ذلك بحكمته ولا تعجز عنه قدرته فانظر إلى هذا الحجاج العجيب بالقول الوجيز الذي لا يكون أوجز منه والبيان الجليل الذي لا يتوهم أوضح منه ومأخذه القريب الذي لا تقع الظنون على أقرب منه) [الصواعق المرسلة ٢ / ٤٧٠ وما بعدها]

٤- الاستدلال بمن ماتوا ثم أحياهم الله :

وهو أسلوب واقعي مما يعاينه الناس ويلمسوه ، فمن ماتوا ثم أحياهم الله في هذه الحياة الدنيا كثيرون منهم صاحب القرية ، والطير التي أحياها الله على يد إبراهيم الخليل ، وأصحاب الكهف ، والآلاف التي ماتوا ثم أحياهم الله من بني إسرائيل ، والقتيل صاحب البقرة ، ولنأخذ منهم أمثلة : قال الله تعالى : { أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٢٥٩)} ثم قال إثر ذلك : {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىأَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٢٥٩)وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ

رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنْ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٢٦٠)} [البقرة]

وقال تعالى في أصحاب الكهف : { وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا(١٩)إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا(٢٠) وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا(٢١)} [الكهف] ومعنى { وكذلك بعثناهم } البعث بعد الموت ، وقيل البعث بعد النوم ، والأول أصح لأنه المغزى من إيراد قصتهم ، لذا قال { وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ } ليعلموا أي ليعلم أهل بلدهم حين اختصموا في البعث فبعث الله أهل الكهف ليعلموا { أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ } بالبعث والجزاء { حَقٌّ } وأن القيامة لا شك فيها هذا قول الأكثرين [زاد المسير ١٢٣/٥]

وهناك أوجه أخرى للاستدلال منها الاستدلال بالنوم أضربنا عن ذكرها اختصارا .

الأحكام المتعلقة بالمشركين :

١- لا يجوز الاستغفار لهم :

قال تعالى : { مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ(١١٣)وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ(١١٤)} [التوبة]

وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : (زَارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْرَ أُمِّهِ فَبَكَى وَأَبْكَى مَنْ حَوْلَهُ فَقَالَ اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأُذِنَ لِي فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ) [م : الجنائز (٩٧٦)] وإنما لم يؤذن له صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لأمه لأنها ماتت على الشرك كما أشار إليه أهل العلم [انظر مجموع الفتاوى ١٤٦/١]

أما الدعاء لهم بالهداية فلا بأس به ، قال ابن تيمية : دعا النبي صلى الله عليه وسلم لبعض الكفار بأن يهديه الله أو يرزقه كما دعا لأم أبي هريرة حتى هداها الله وكما دعا لدوس فقال : (اللهم اهد دوسا

وأت بهم) فهداهم الله ، وكما روى أبو داود أنه استقى لبعض المشركين لما طلبوا منه أن يستسقي لهم وكان ذلك إحسانا منه لهم يتألف به قلوبهم كما كان يتألفهم بغير ذلك . [مجموع الفتاوى ١ / ١٤٥]

٢- لا تحل ذبائحهم :

لأنهم يذبحونها لغير الله وما كان كذلك فلا يحل أكله قال تعالى : { وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ(١٢١)} [الأنعام]

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح قبل أن يترل على النبي صلى الله عليه وسلم الوحي فقدمت إلى النبي صلى الله عليه وسلم سفرة فأبى أن يأكل منها ثم قال زيد إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه وأن زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء الماء وأنبت لها من الأرض ثم تذبحونها على غير اسم الله إنكارا لذلك وإعظاما له) [خ : المناقب (٣٨٢٦)]

٣- لا يحل نكاح نسائهم :

قال تعالى : { وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٢٢١)} [البقرة] وقال تعالى : { الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ(٣)} [النور] وقال { وَلاَ تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ } [الممتحنة : ١٠]

فهذه نصوص قاطعة الدلالة وقد أجمع العلماء على أن نكاح المشركات لا يجوز . ومن المشركين في زماننا عباد الكواكب والبقر والملاحدة والشيوعيون والبوذيون وكل كافر غير أهل الكتاب .

٤- البراءة من معتقداتهم ومن الولاء لهم :

قال تعالى : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ(٢٦)إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِي(٢٧)} [الزخرف]

وقال تعالى : { بَرَاءَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ مِنْ الْمُشْرِكِينَ(١)فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ(٢)وَأَذَانٌ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٣)}

وكانت هذه البراءة بلاغا عاما نودي به في الحجيج وقتئذ كما في حديث أبي هريرة ﷺ قال : (بعثني أبو بكر في تلك الحجة في المؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان) قال حميد – أي الراوي – ثم أردف النبي ﷺ بعلي بن أبي طالب فأمره أن يؤذن ببراءة ، قال أبو هريرة فأذن معنا علي في أهل منى يوم النحر ببراءة وأن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان [متفق عليه : خ : تفسير القرآن (٤٦٥٦) ، م : الحج (١٣٤٧)]

دعوة أهل الكتاب

تعريف أهل الكتاب :

أهل الكتاب هم اليهود والنصارى ، ويقصد بالكتاب : التوراة والانجيل والزبور ، وهي كتب نزلت على موسى وعيسى وداود من أنبياء بني إسرائيل عليهم الصلاة والسلام ، وأهل الكتاب اصطلاح قرآني يقصد به اليهود والنصارى . إذ اليهود هم الذين يزعمون أنهم أتباع شريعة التوراة ، والنصارى هم الذين يزعمون أنهم أتباع شريعة الإنجيل ، وهذه الكتب الثلاث أعني (التوراة والإنجيل والزبور) حرفت وبدلت وغيرت فأصلها وإن كان سماويا إلا أنها ليست اليوم كما كانت في صورتها الأولى ، وقد جمعت وطبعت في مغلف واحد يعرف بالكتاب المقدس وهو على قسمين يعرف القسم الأول بـــ (العهد القديم) **The Old testament** ويشمل التوراة والمزامير ، و (العهد الجديد) **The New testament** ويشمل أربعة أناجيل وهي : إنجيل متى وإنجيل مرقص وإنجيل يوحنا وإنجيل لوقا .

هل أهل الكتاب من المشركين ؟!

من حيث الواقع هم مشركون ولكن من حيث الأصل فإن دينهم في الأصل مبني على التوحيد قبل أن يحرفوه ، قال ابن القيم : (للناس قولان في دخول أهل الكتاب في لفظ المشركين : الأول أنهم من المشركين . قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لا أعلم شركا أعظم من أن يقول المسيح ابن

الله وعزيز ابن الله وقد قال تعالى فيهم : {اتّخَذُوَاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوَاْ إِلاّ لِيَعْبُدُوَاْ إِلَـــهاً وَاحِداً لاّ إِلَـــهَ إِلاّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمّا يُشْرِكُونَ}(٣١) }[التوبة]

والثاني : أنهم لا يدخلون في لفظ المشركين لأن الله سبحانه جعلهم غيرهم في قوله تعالى : {إِنّ الّذِينَ آمَنُواْ وَالّذِينَ هَادُواْ وَالصّابِئِينَ وَالنّصَارَىَ وَالْمَجُوسَ وَالّذِينَ أَشْرَكُوَاْ إِنّ اللّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنّ اللّهَ عَلَىَ كُلّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}(١٧) } [الحج] قال شيخنا والتحقيق أن أصل دينهم دين التوحيد ، فليسوا من المشركين في الأصل والشرك طاريء عليهم فهم منهم باعتبار ما عرض لهم لا باعتبار أصل الدين) [أحكام أهل الذمة ٣٩٩/١]

سمات اليهود والنصارى :

١- الجرأة على الله عز وجل :

وذلك بأمور هي غاية في القبح والشناعة منها : تعليق إيمانهم بالله على رؤيته تعالى وهو الغني الحميد عن إيمانهم وعن جميع الخلائق وهو تعالى لا يُرى في الدنيا قال تعالى : { وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ(٥٥)} [البقرة]

ومن ذلك كذبهم على الله قال تعالى : { وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَاتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ(٨٠)بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٨١)} [البقرة] وقال تعالى : { وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ(١١١)} [البقرة] وقال تعالى : { وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ(١١٦) } [البقرة]

٢- الجرأة على الأنبياء والمرسلين بالقتل والتكذيب :

قال تعالى : { وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ(٦١)} [البقرة] وتأمل جرأتهم في قصة القتيل وذبح البقرة [الآيات من سورة البقرة ٦٣-٧٤]

وقال تعالى : { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ(٨٧)وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمْ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ(٨٨)} [البقرة]

٣- تحريف الكتب السماوية :

قال تعالى : { أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(٧٥)} وقال تعالى : { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ(٧٩)} [البقرة]

والمحرفون لكتب الله على ثلاثة أصناف كما قال ابن تيمية رحمه الله : (عالم بالحق يتعمد خلافه ، وجاهل مقلد لغيره ، والجهال وهم الأميون) [انظر مجموع الفتاوى ٤١٧/١٧] وكلهم مذموم .

٤- عداوة الملائكة ! :

قال تعالى : { قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ(٩٧)مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ(٩٨)} [البقرة]

٥- الكيد والعداوة اللدودة للمؤمنين :

قال تعالى : { وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ(١٢٠)} [البقرة]

والنصوص في هذا المعنى كثيرة .

٦ - حب الحياة :

قال تعالى : { قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(٩٤)وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ(٩٥)وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ(٩٦)} [البقرة]

وتأمل كيف وصفهم بأنهم أحرص الناس على (حياة) هكذا أتت نكرة لتدل على حرصهم المتناهي على حياة أية حياة ، حياة ذل حياة استكانة .. المهم أنه يحيا ..

٧- نقض العهود والمواثيق :

قال تعالى : { أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(١٠٠)} [البقرة] فهم لا ذمة لهم ولا عهد لهم ولا أمانة لهم ، إن عاهدوا فلمصحة آنية إذا تحققت فسرعان ما ينقضون عهودهم .. والواقع الماثل يشهد على ذلك .

٨- الشغف بالمادة :

من ذلك تعاطيهم الربا { وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١)} [النساء]

واليهود والنصارى اليوم يتحكمون في معظم الاقتصاد العالمي عن طريق الربا وغيره من المعاملات الاقتصاديات المحرمة التي تزيد الفقراء فقرا وبؤسا وتزيد الأثرياء ثراءا وبطراً .

٩- تعاطي السحر والإفساد في الأرض :

قال تعالى : { وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنْ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ(١٠٢)} [البقرة]

ولإفسادهم في الأرض عدة صور منها : القيام بالعمل التنصيري المقنن بشتى الوسائل لتنصير المسلمين ، أو لإبعادهم عن دينهم الحنيف وإلهائهم بالشهوات والشبهات ، قال الله تعالى : { وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ(٦٩) } [آل عمران] ومنها تدمير البنية التحتية للمسلمين في كثير من المجتمعات ، ومنها الإفساد الأخلاقي عبر ما يسمى بالسينما والملاهي المحرمة ، ومنها التآمر على مصالح المسلمين بافتعال الحروب والأزمات ومنها إشعال الفتن ... والمتأمل في حاضر العالم الإسلامي يرى هذا جليا .

١٠- الحقد والحسد :

قال تعالى : { مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ(١٠٥)} [البقرة : ١٠٥]

وقال تعالى : { وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١٠٩)} [البقرة]

أساليب دعوة أهل الكتاب :

لدعوة أهل الكتاب في القرآن والسنة منهاج واضح ، له أسسه ومعالمه ومقاصده ، وله كذلك غاياته وأساليبه ، ولعل من أهم أساليب دعوة أهل الكتاب ما يأتي :

١- أسلوب المجادلة والمناظرة :

والأصل فيه قول الله تعالى : { وَلاَ تُجَادِلُوَاْ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاّ بِالّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاّ الّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ وَقُولُوَاْ آمَنّا بِالّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـهُنَا وَإِلَـهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) }[العنكبوت] ففي هذه الآية أن لمجادلة أهل الكتاب عدة محاور :

أ / منها تصحيح مفاهيمهم الخاطئة لا سيما ما يتعلق منها بالعقيدة كما قال تعالى { وَقُولُوَاْ آمَنّا بِالّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـهُنَا وَإِلَـهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } وكما قال في موضع { وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ(١٣٥)} [البقرة] ففي الآية حكاية لقولهم ثم تفنيد لها على طريقة الحوار (قالوا .. قل ..) ومنه أيضا الأمر بمحاوراتهم في إبطال ما يدّعونه من مكانة خاصة عند الله دون العالمين قال تعالى : { قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ(٦)} [الجمعة] أي أدعوا بالموت على المبطل منا أو منكم إن كنتم تدّعون أنكم على الحق فإنه لا يضركم الدعاء ، وهذه هي المباهلة التي ينكلون عنها .

ب/ بيان ضوابط الجدال ، وهي أولاً : العلم الشرعي وعلى الأخص العلم بأصول الدين الحنيف وأسس الاعتقاد ، ومعرفة المصالح الشرعية والمقاصد التي دعا إليها الإسلام . وفق فهم السلف الصالح .

الثاني : العلم بكتب أهل الكتاب وعقائدهم ومذاهبهم وفرقهم وجملة ديانتهم وتاريخهم القريب والبعيد لا سيما ما ينقله لنا مسلمة أهل الكتاب وغيرهم ممن عرفوا باطلهم ونقضوه كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وكعب الأحبار .. وأيضا من المعاصرين كثير ، وهناك عشرات الكتب التي تضمنت نقض عقائدهم ككتاب الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح لابن تيمية ، وهداية الحيارى من اليهود النصارى لابن القيم ، والفِصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم وغيرها .

الثالث : العلم بأخلاقيات الجدال ليتحقق الالتزام بالموضوعية التامة والبعد عن المهاترات التي تخرج بالمجادِل عن الجادة أو التي يراد بها استدراجه إلى معركة كلامية لا تحقق أغراض الجدال ، فالداعية لا بد أن يكون متخلقا بأخلاق أهل العلم كالصدق والأناة والحلم والصبر ، لا يحيد عن ذلك إلا لداع شرعي والله تعالى يقول : {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } قال ابن تيمية : (فمتى ظلم المخاطَب لم نكن مأمورين أن نجيبه بالتي هي أحسن بل قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه – لعروة بن مسعود بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم لما قال : إني لأرى أوباشاً من الناس خليقاً أن يفرّوا ويدعوك – امصص بظر اللات أنحن نفر عنه وندعه ؟ ومعلوم أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين من كانوا . وقد

قال تعالى : { وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(١٣٩) } [آل عمران] فمن كان مؤمنا فهو الأعلى كائنا من كان . ومن حاد الله ورسوله فقد قال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ(٢٠)} [المجادلة] [مجموع الفتاوى ٣/٢٥٢]

٢- أسلوب رد الشبه ودحض الباطل الذي يدعون إليه :

وهو من أنجع الأساليب لأنه يعتمد على المحاجة العقلية قال تعالى : { مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ(٧٥) }[المائدة]

قال العلماء : تضمنت هذه الحجة دليلين ببطلان إلهية المسيح وأمه أحدهما : حاجتهما إلى الطعام والشراب وضعف بنيتهما عن القيام بنفسهما بل هي محتاجة فيما يقيمها إلى الغذاء والشراب والمحتاج إلى غيره لا يكون إلها إذ من لوازم الإله أن يكون غنيا .

الثاني : أن الذي يأكل الطعام يكون منه ما يكون من الإنسان من الفضلات القذرة التي يستحي الإنسان من نفسه وغيره حال انفصالها عنه بل يستحي من التصريح بذكرها [الصواعق المرسلة ٢/٤٨٢]

ولهذا والله أعلم كنى سبحانه عنها بلازمها من أكل الطعام الذي ينتقل الذهن منه إلى ما يلزمه من هذه الفضلة فكيف يليق بالرب سبحانه أن يتخذ صاحبة وولدا من هذا الجنس ، ولو كان يليق به ذلك أو يمكن لكان الأولى به أن يكون من جنس لا يأكل ولا يشرب ولا يكون منه الفضلات المستقذرة التي يستحي منها ويرغب عن ذكرها [انظر الصواعق المرسلة لابن القيم ٢ / ٤٨٢]

{ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ(٩١)}[المؤمنون]

٣- أسلوب التذكير بالنعم :

وهو أسلوب يخاطب القلب الحي والضمير اليقظ إن كان ثمة قلب وضمير ، قال تعالى : { يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ(٤٠)} [البقرة] وقال تعالى : { يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ(٤٧)} [البقرة] وكان نبي الله موسى عليه السلام يخاطبهم بأسلوب التذكير كما في قوله تعالى : {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ(٢٠) } [المائدة]

٤- أسلوب التبكيت والالزام :

فلقد كان أهل الكتاب لا سيما اليهود ينتظرون خروج النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم ليكونوا معه فلما خرج وعرفوه كما يعرفون أبناءهم كفروا وجحدوا إذ كان من العرب ولم يكن من بني إسرائيل ! قال تعالى : { وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ(٨٩)بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ(٩٠)} [البقرة]

وقال تعالى : { وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(١٠١)} [البقرة]

وقال تعالى : { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ(٩١)} [الأنعام]

وكذلك ما احتج به سبحانه على النصارى مبطلا لدعوى إلهية المسيح كقوله { لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ(١٧) } [الأنبياء]

قال ابن القيم : (أخبر أن هذا الذي أضافه من نسبة الولد إلى الله من مشركي العرب والنصارى غير سائغ في العقول إذا تأمله المتأمل ولو أراد الله ذلك لاصطفى لنفسه وجعل هذا الولد المتخذ من الجوهر الأعلى السماوي الموصوف بالخلوص والنقاء من عوارض البشر المجبول على الثبات والبقاء لا من جوهر هذا العالم الفاني الدائر الكثير الأوساخ والأدناس والأقذار ولما كان هذا الحجاج كما ترى في هذه القوة والجلالة أتبعه بقوله {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ } [الأنبياء ١٨] [انظر الصواعق المرسلة ٢/ ٤٨١]

ونظير هذا قوله { لّوْ أَرَادَ اللّهُ أَن يَتّخِذَ وَلَداً لاّصْطَفَىَ مِمّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهّارُ(٤) } [الزمر]

الأحكام المتعلقة بأهل الكتاب

ثمة أحكام تخص أهل الكتاب منها :

١- جواز أكل ذبائحهم

قال تعالى : { وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ (٥)} [المائدة] وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ ذَبَائِحِ نَصَارَى الْعَرَبِ فقال : لا بأس بها وتلا هذه الآية { وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ } وعن عبد الله بن عباس كان يقول : (مَا فَرَى الْأَوْدَاجَ فَكُلُوهُ) [ط : الذبائح (٩٢٩)]

٢- حلّ نكاح نسائهم :

ذكر أهل العلم ومنهم ابن تيمية أن نكاح الكتابية جائز بالآية التي في المائدة قال تعالى : { وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ(٥)} [المائدة] قال : (وهذا مذهب جماهير السلف والخلف من الأئمة الأربعة وغيرهم ، وقد روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كره نكاح النصرانية وقال : لا أعلم شركا أعظم ممن تقول إن ربها عيسى بن مريم ، وهو اليوم مذهب طائفة من أهل البدع ، وقد احتجوا بالآية التي في سورة البقرة قوله تعالى : { وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ } [البقرة] وبقوله : { وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ} [الممتحنة] والجواب عن آية البقرة من ثلاثة أوجه : أحدها أن أهل الكتاب لم يدخلوا في المشركين فجعل أهل الكتاب غير مشركين بدليل قوله : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(١٧)} [الحج] فأصل دينهم التوحيد والله عز وجل انما بعث الرسل بالتوحيد والله عز وجل لم يخبر عن أهل الكتاب أنهم مشركون بالاسم بل قال { عَمَّا يُشْرِكُونَ } بالفعل ، وآية البقرة قال فيها { الْمُشْرِكِينَ } و { الْمُشْرِكَاتِ } بالاسم والاسم أوكد من الفعل . الوجه الثاني أن آية البقرة عامة ، وآية المائدة خاصة والخاص يقدم على العام . الوجه الثالث : أن يقال أن آية المائدة ناسخة لآية البقرة لأن المائدة نزلت بعد البقرة باتفاق العلماء .

وأما قوله { وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ} فإنها نزلت بعد صلح الحديبية لما هاجر من مكة إلى المدينة وأنزل الله سورة الممتحنة وأمر بامتحان المهاجرين وهو خطاب لمن كان في عصمته كافرة و(اللام) لتعريف العهد والكوافر المعهودات هن المشركات [مجموع الفتاوى ملخصا ٣٢ / ١٧٨ - ١٨٠]

ما يشترك فيه جميع أصناف الكفار من الأحكام

١- الأمر بقتالهم :

بعد دعوتهم إلى الإسلام وإصرارهم على الكفر مع امتناعهم عن دفع الجزية وذلك حال قوة المسلمين وتمكنهم من قتال الكفار وجهادهم بتوافر الأسباب المحققة لذلك .

وقد اختُلف في قوله تعالى : { وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٦١) } [الأنفال] هل هي منسوخة أم لا ؟ فقال قتادة وعكرمة نسخها قوله تعالى : { فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٥) } [التوبة] { وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(٣٦)} [التوبة] وقالا نسخت براءة كل موادعة حتى يقولوا لا إله إلا الله ، وقال ابن عباس : الناسخ لها { فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ(٣٥)}[محمد] وقيل ليست بمنسوخة بل أراد قبول الجزية من أهل الجزية وقد صالح أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن بعده من الأئمة كثيراً من بلاد العجم على ما أخذوه منهم وتركوهم على ما هم فيه وهم قادرون على استئصالهم وكذلك صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً من أهل البلاد على مال يؤدونه من ذلك خيبر رد أهلها إليها بعد الغلبة على أن يعملوا ويؤدوا النصف [تفسير القرطبي ٨ / ٣٩]

٢- لا يجوز تزويج المشركين وأهل الكتاب والكفار عموماً من مؤمنات :

وذلك لقول الله تعالى : { وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ (٢٢١)} [البقرة] قال ابن تيمية : وأباح الله للمسلمين أن يتزوجوا أهل الكتاب ولا يتزوج أهل الكتاب نساءهم لأن النكاح نوع رق كما قال عمر : النكاح رق فلينظر أحدكم عند من يرق كريمته ، وقال زيد بن ثابت : الزوج سيد في كتاب الله وقرأ قوله تعالى : { وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ} [يوسف] وقد قال النبي ﷺ : (اتقوا الله في النساء فإنهن عوان عندكم) [ت : الرضاع (١١٦٣) وقال حسن صحيح] فيجوز للمسلم أن يسترق هذه الكافرة ، ولم يجز للكافر أن يسترق هذه المسلمة لأن الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه . [مجموع الفتاوى ٣٢ / ١٨٤]

وإلى الله يُشكى حال الكثيرات ممن يعشن في الغرب من المسلمات اللاتي تزوجن من نصارى إما جهلا وإما مسايرة للهوى وبعضهن مضى على تزويجهن من الكفار آمادا طويلة وأنجبن أجيالا عديدة !! ودعاة الإسلام في غفلة .

٣- أخذ الجزية منهم :

قال الله تعالى : { قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ(٢٩)} [التوبة]
وفي حديث سلمان بن بردة عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميرا على سرية أو جيش أوصاه بتقوى الله في خاصة نفسه وبمن معه من المسلمين خيرا وقال : (إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خلال ، فأيتها أجابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم : ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأعلمهم أنهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين ، فإن أبوا واختاروا دارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة نصيب إلا أن يجاهدوا مع المسلمين فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم فإن أبوا فاستعن بالله تعالى وقاتلهم) [م : الجهاد (١٧٣١) ، د : الجهاد (٢٢٤٥) واللفظ له ، ت : السير (١٦١٧) وقال حسن صحيح ، ماجة : الجهاد (٢٨٥٨) ، أحمد : الأنصار (٢١٩٠٠)]

وملخص ما ذكره الإمام النووي في شرح الحديث أن للفقهاء ثلاثة مذاهب في أخذ الجزية : فمالك والأوزاعي على أنها تؤخذ من كل كافر عربيا كان أو أعجميا كتابيا أو مجوسيا أو غيرها . وأبو حنيفة على أن الجزية تؤخذ من جميع الكفار إلا مشركي العرب ومجوسهم . والشافعي على أنها لا تقبل الا من أهل الكتاب والمجوس عربا أو عجما لآية الجزية المتقدم ذكرها ولحديث (سنوا بهم سنة أهل الكتاب) [ط : الزكاة (٥٤٤) وللحديث شاهد عند البخاري : الجزية (٣١٥٧) ، ت : السير (١٥٨٦) وقال حديث حسن ، د : الخراج (٢٦٤٦) ، أحمد : العشرة (١٥٦٩)] ولأن اصطلاح (المشرك) يطلق على أهل الكتاب وغيرهم . [المنهاج ١٢ / ٣٩]

وفي مقدار الجزية المأخوذة منهم أقوال بسطها الفقهاء فلتراجع في مظانها [انظر تفسير القرطبي ٨ / ١١٠ وما بعدها]

٤ – المنع من السفر إلى ديارهم والسكن في بلادهم لغير حاجة :

فلا يجوز السفر إلى بلادهم إلا لغرض شرعي ولأجل معين ، وفي هذا حديث سمرة بن جندب ﷺ قال قال رسول الله ﷺ : (من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله) [د : الجهاد (٢٧٨٧) ، ت : السير (١٦٠٤) وصححه]

٥– لا يقبل لهم عمل :

قال تعالى : { مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ(١٧)} [براءة]

وقال تعالى : { مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ(١٨)} [إبراهيم]

وقال تعالى : { وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ(٣٩)أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ(٤٠)} [النور] وقال تعالى : { وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا(٢٣) } [الفرقان]

٦- لا يجوز دخولهم إلى الحرمين الشريفين :

قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٢٨)} [براءة]

قال الإمام القرطبي : (هذا اللفظ يطلق على جميع الحرم وهو مذهب عطاء فإذا يحرم تمكين المشرك من دخول الحرم أجمع فإذا جاءنا رسول منهم خرج الإمام إلى الحل ليسمع ما يقول ولو دخل مشرك الحرم مستورا ومات نبش قبره وأخرجت عظامه فليس لهم الاستيطان ولا الاجتياز وأما جزيرة العرب وهي مكة والمدينة واليمامة واليمن ومخاليفها فقال مالك يخرج من هذه المواضع كل من كان على غير الإسلام ولا يمنعون من التردد بها مسافرين وكذلك قال الشافعي رحمه الله غير أنه استثنى من ذلك اليمن ويضرب لهم أجل ثلاثة أيام كما ضربه لهم عمر رضي الله عنه حين أجلاهم ولا يدفنون فيها ويُلجأون إلى الحل . [انظر تفسير القرطبي ٨ / ١٠٤ وما يليها]

وفي حديث أبي هريرة ﷺ قال : بعثني أبو بكر في تلك الحجة في مؤذنين يوم النحر نؤذن بمنى : (ألا لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان) قال حميد بن عبد الرحمن : ثم أردف رسول الله ﷺ عليا فأمره أم يؤذّن ببراءة ، قال أبو هريرة : فأذن معنا علي في أهل منى يوم النحر : (لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان) [متفق عليه : خ : الصلاة (٣٦٩) ، م : الحج (١٣٤٧) واللفظ للبخاري]

قال ابن حجر : قوله (وأن لا يحج بعد العام مشرك) منتزع من قوله تعالى : { فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا } والآية صريحة في منعهم من دخول المسجد الحرام ولو لم يقصدوا الحج ، ولكن لما كان الحج هو المقصود الأعظم صرح لهم بالمنع منه فيكون ما وراءه أولى بالمنع ، والمراد بالمسجد الحرام هنا : الحرم كله [الفتح ٣٢٠/٨]

٧- لا يجوز استيطانهم جزيرة العرب :

يدل على ذلك جملة من الأحاديث الصحاح منها حديث عمر بن الخطاب ﷺ عن النبي ﷺ : (لَأُخْرِجَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ حَتَّى لَا أَدَعَ إِلَّا مُسْلِمًا) [م : الجهاد (١٧٦٧)] وقال عمر ﷺ : (لئن عشت إن شاء الله لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب) [ت : السير (١٦٠٧) وقال حسن صحيح] وفي حديث أبي عبيدة ﷺ قال : (كان آخِرُ مَا تَكَلَّمَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ أَخْرِجُوا يَهُودَ أَهْلِ الْحِجَازِ وَأَهْلِ نَجْرَانَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَاعْلَمُوا أَنَّ شِرَارَ النَّاسِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ) [أحمد : العشرة (١٥٩٩)]

وعن عائشة رضي الله عنه قال كان آخر ما عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال : (لَا يُتْرَكُ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانِ) [أحمد : الأنصار (٢٥١٤٨)]

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (أَوْصَى عِنْدَ مَوْتِهِ بِثَلَاثٍ أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَأَجِيزُوا الْوَفْدَ بِنَحْوِ مَا كُنْتُ أُجِيزُهُمْ وَنَسِيتُ الثَّالِثَةَ) وَقَالَ يَعْقُوبُ بْنُ مُحَمَّدٍ سَأَلْتُ الْمُغِيرَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ فَقَالَ مَكَّةُ وَالْمَدِينَةُ وَالْيَمَامَةُ وَالْيَمَنُ وَقَالَ يَعْقُوبُ وَالْعَرْجُ أَوَّلُ تِهَامَةَ) [متفق عليه : خ : الجهاد (٣٠٣٥) ، م : الوصية (١٦٣٧)]

٨- إن ماتوا على الكفر والشرك فهم من أهل النار : قال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ(٣٤) } [محمد]

الأسباب التي تمنع الكفار من الاستجابة للحق ، منها :

١- تقليد الأسلاف كما تقدم في سمات المشركين : وروى سعيد بن المسيب عن أبيه أنه لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبدالله بن أبي أمية بن المغيرة ، قال رسول الله ﷺ لأبي طالب (يا عم قل لا اله الا الله كلمة أشهد لك بها عند الله) فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعودان بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلّمهم هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول لا إله إلا الله [متفق عليه : خ : الجنائز (١٣٦٠) ، م : الإيمان (٢٤)]

٢- الحسد : قال تعالى : { وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ } [البقرة : ١٠٩] وروى ابن هشام قال : دخل الأخنس بن شريق على أبي جهل في بيته فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا حتى اذا تحاذينا على

الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذه ؟! والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدّقه ! [السيرة النبوية لابن هشام ٣١٦/١]

٣- الحرص على المصالح الشخصية والمنافع الدنيوية ومن أظهرها الرئاسة والزعامة ، ومثاله ما رواه ابن هشام من قصة الوليد بن المغيرة لما قال : أيُنْــزل على محمد وأُترك وأنا كبير قريش وسيدها ؟! ويُترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف ؟! فأنزل الله فيه فيما بلغني : { وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ(٣١)} [الزخرف] ، [السيرة النبوية لابن هشام ٣٦١/١ والفتح موضع الحديث رقم (٣٢٣١)]

وأيضا ما رواه في السيرة قال : وأتى النبي ﷺ بني عامر بن صعصعة فدعاهم إلي الله عز وجل فقال له رجل منهم يقال له بيحرة ابن فراس : والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ! ثم قال : أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال : الأمر إلي الله يضعه حيث يشاء . قال فقال له : أفنهدف نحورنا للعرب [أي تصير هدفا يرمى] دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا لا حاجة لنا بأمرك فأبوا عليه ! [السيرة النبوية لابن هشام ٤٢٤/١ و ٤٢٥ والسيرة النبوية لابن كثير ١٥٨/٢]

وهذا نجده أيضا في المدينة لدى رأس النفاق ، قال ابن هشام : قال سعد بن عبادة ﷺ: يا رسول الله أرفق به [أي عبد الله بن أبي بن سلول] فو الله لقد جاءنا الله بك وإنا لننظم له الخرز لنتوجه فو الله إنه ليرى أن قد سلبته ملكا ! [السيرة النبوية ١/ ٥٨٤ و ٥٨٥ و ٥٨٨ والفتح موضع الحديث رقم (٤٥٦٦)]

ولم ينج من هذا الداء الأمم الأخرى غير العرب كما في قصة هرقل ، روى ابن جرير الطبري في تاريخه أن هرقل قال لدحية حين قدم عليه بكتاب رسول الله ﷺ : والله إني لأعلم أن صاحبك نبي مرسل وأنه الذي كنا ننتظره ونجده في كتابنا ، ولكن أخاف الروم على نفسي ولولا ذلك لاتبعته ! [السيرة النبوية لابن كثير ٥٠٤/٣ وأصل القصة في الصحيحين : خ بدء الوحي (٧) ، م : الجهاد (١٧٧٣)]

ولم يكن النبي ﷺ – وهو يرى هذه الآفة تردي السادة وتهلكهم إذ تمنعهم من الاستجابة للحق – يملك إلا أن يقدم لهم سبيل العلاج وطريق الرشد وأن يكمن في إيثار الآجلة على العاجلة كما يتجلى ذلك في قوله لعدي بن حاتم قال : (لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخولك في هذا الدين ما ترى من حاجتهم [أي الفقر وحب الدنيا] فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يجد من يأخذه ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم [أي الخوف] فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم [يعني حب الجاه والزعامة] وأيم الله ليوشكن أن

تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم) قال : فأسلمت . [السيرة النبوية لابن كثير ١٢٦/٤]

٤- الكبر والجحود والبطر : ويتضح ذلك من المواقف المخزية التي وقفها سادات الكفر كما في قصة أمية بن أبي الصلت لما قيل له : قد خرج النبي الذي كنت تنعته فما يمنعك من اتباعه ؟ قال : ما يمنعني إلا الاستحياء من نساء ثقيف إني كنت أحدّثهن أني هو ثم يريني تابعا لغلام من بني عبد مناف ! [السيرة النبوية لابن كثير ١ / ١٣٠]

الدعوة في مجتمع الأقليات الإسلامية

تعريفها : هي (المجتمعات التي يمثل المسلمون فيها أقلية عددية) مثل الجاليات المسلمة التي تعيش في بلاد أوربا وأمريكا ...

من خصائصها : أنها مجتمع لا يحظى بمظلة الدولة الإسلامية والرعاية الإسلامية وما يمتاز به من ولايات شرعية كولاية القضاء وولاية الحسبة التي تقام لحماية المسلم وحفظ الضرورات الخمس .. وإذا وجد في قوانين تلك الدول ما يحقق جزءً من هذه المصالح فإنما يكون لدوافع مصلحية لا لدوافع إيمانية .

فمجتمع الأقليات معرض للذوبان بحكم أقليته وضعفه وتعرضه للمؤثرات الثقافية العارمة ثم هو مجتمع ملاصق للكفار مخالط لهم فهو مجتمع سفارة ودعوة إن أحسن إعداد الدعاة من أفراده وتأهيلهم تأهيلا علميا وخُلقيا ليصبح مؤثرا لا متأثرا .

مقاصد الدعوة في الأقليات الإسلامية :

١- المحافظة على عقيدة المسلمين : بالدعوة إلى التوحيد ومحاربة ما يخالفه من الشرك وأسبابه والسحر والخرافة والدجل ..

٢- المحافظة على وحدة المجتمع إذ يرى المتأملون لأحوال الأقيات الإسلامية في البلاد الغربية التفرق والتنافر على المذاهب الفقهية والفكرية .. وهو أمر ينبغي أن يزال في أسرع ما يمكن لأن التفرق ليس من الإسلام في شيء ، ولأن ذلك يقلل من فاعلية التأثير في المجتمعات الغربية .

٣- الاهتمام بالتعليم الشرعي والثقافة الإسلامية وتعميقها ليكون مجتمع الأقليات محافظا لهويته الإسلامية ، لا يتورط في الموبقات الناجمة عن قلة العلم وقلة التدين والتأثر بالكفار وعوائدهم ومخالطتهم .

٤- غرس الاعتزاز بالإسلام في نفوس الناشئة ليكونوا سفراء خير لدينهم وبني أمتهم ، وكي لا يكونوا أسوة سيئة في تشويه صورة الإسلام وفي التنزيل الحكيم : { رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا }

٥- تحصين الأقليات من الذوبان في بحر الكفار ! وله عدة تدابير منها : ترسيخ مبدأ الولاء والبراء ومن ضوابطه قوله تعالى :{ لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(٨) } [الممتحنة] ومنها إنشاء مدارس خاصة بالجالية الإسلامية ..

٦- وجوب الهجرة إلى بلاد الإسلام والمسلمين : إذا افتتن المسلم في دينه فلم يستطع القيام بشعائر الدين ولم يقدر على أداء الفروض ، أو افتتن أولاده من ذكور وإناث ، فأصبح الذكور منغمسين في الرذائل ميالين إلى الكفار ، وتزوج فتيات المسلمين من الكفار وهو محرم بإجماع المسلمين . فإذا وقع المسلم في هذا البلاء وجبت هجرته إلى بلاد الإسلام عملا بقول الله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا(٩٨)فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا(٩٩)وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } [النساء : ٩٧] فذكر ها هنا الأمر بالهجرة خوف الفتنة ، ووعد بالسعة والفرج لمن هاجر مخلصا لله ، وأعذر المستضعفين وأصحاب الأعذار الشرعية

وإنه لمن واجبات الدعاة اليوم التواصل مع الأقليات الإسلامية عن طريق إقامة الدورات الشرعية والزيارات الدورية وإمامة المصلين في رمضان وغيره فضلا عن التواصل الإعلامي المفقود بإيجاد القنوات الفضائية الإسلامية الموجهة للأقليات تنير له جوانب من وقائع الحياة الراشدة هو في أمس الحاجة إليها .

الأصل الرابع :

أساليب الدعوة ووسائلها

الأسلوب في اللغة الطريق ، قال ابن منظور : (يقال للسَّطْر من النـــخيل أُسْلوبٌ وكلُّ طريقٍ مـــمتدّ فهو أُسلوبٌ قال والأُسْلوبُ الطريق والوجهُ والـــمَذْهَبُ يقال أَنتم فـــي أُسْلُوب سُوءٍ ويُجمَعُ أَسالِـــيبَ الأُسْلُوبُ الطريقُ تأُخذ فـــيه ، والأُسْلوبُ بالضم الفَنُّ ، يقال أَخَذَ فلانٌ فـــي أَسالـــيبَ من القول أَي أَفانـــينَ منه) [اللسان ١ / ٤٧٣] فأساليب الدعوة طرائقها وأنماط الكلمة التي توصل الحق إلى الناس كأسلوب الخطابة وأسلوب الموعظة وأسلوب النصح وأسلوب القدوة وهكذا .

وأما الوسائل فجمع وسيلة وهي ما يتقرب به ويتوصل به إلى الشيء والوسيلة : الوصلة والقربى ، وفي التنزيل الحكيم : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ} [المائدة : ٣٥] ويقصد بوسائل الدعوة الآلات التي يتوسل بها الداعية إلى إبلاغ الحق للناس كوسيلة المسجد ووسيلة الإذاعة ووسيلة التلفزيون ووسيلة الكتاب .. وهكذا ، فالأساليب هي أنماط البيان والكلام ، والوسائل هي الآلات الموصلة للكلام إلى الآخرين .

وأساليب الدعوة مجموعة في قول الله تعالى : {ادْعُ إِلِىَ سَبِيلِ رَبّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنّ رَبّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ(١٢٥)} [النحل] ويمكن تلخيص الأساليب والوسائل في الآتي :

١- الحكمة .
٢- الموعظة الحسنة .
٣- الجدال بالتي هي أحسن .
٤- القصص وضرب الأمثال .
٥- الترغيب والترهيب .
٦- القدوة الحسنة .
٧- الإنفاق في سبيل الله .
٨- المساجد والمدارس .
٩- المؤسسات الخيرية .
١٠- المراكز الإسلامية .

١١- الخطابة .

١٢- وسائل الاتصال والإعلام .

١٣- الجهاد .

ودونك تفصيل هذه الأساليب والوسائل ، :

١. الحكمة : (تعريفها ، أنواعها ،)

*** كتب – فهد الشويعر:***

قال الداعية السعودي المعروف الدكتور سلمان العودة: إنه لا يمكن القول بتحريم التمثيل أو المسرح، وأن الشيخ محمد العثيمين – رحمه الله – قد أقر التمثيل على المسرح في مناسبة حضرها العودة بنفسه وأشاد العثيمين – رحمه الله – بها وتحدث عنها أكثر من ساعة وتحدث عن دَور السينما في المجتمع، وأنه لا مانعَ من توظيف السينما في تثقيف المجتمع والمُتلقي شأنها شأن التلفزيون المنتشر في جميع المنازل وأنَّ السينما هي شاشة تعرض الجيد والسيئ، وأنهُ يجب على صناع السينما توظيفها فيما يتوافق مع الروابط الإسلامية والأخلاقية الساميَة وعدم نشر ما يساعد على تشويهِ صورة الإسلام والمسلمين ، كما أنه يجب أن يكون هناكَ فرزٌ واع للأعمال لما يحققُ الهدفَ منها، وأضافَ العودة وهوَ يتحدث لبرنامج (الحياة كلمة بعد صلاة الجمعة أمس على قناة .

أن المهمَ هو القالبُ الذي ستقدمهُ السينما للتأثيرِ على الغرب وإظهار المسلمين والإسلام بالمظهر الصحيح خلافَ ما فعلهُ ويفعلهُ اليهود في نشر صورة مشوهةٍ للإسلام وتصوير المسلمين بالإرهابيين وأنهم شعب شهواني انتهازي في صورة أثرت كثيراً على أذهان الأجيال الغربية ، وأننا يجب أن نؤثر في عقول الجماهير هناك بنفس الطريقة وبالشكل الصحيح .

وأضاف العودة أن العمل إذا حمل رسالة جيدة لا بد أن نشيد به ولا يمكن أن (نطمسه) لمجرد خطأ بسيط، وعن الغناء قال العودة: إن ما يحدث حالياً من أغانٍ وتصوير للفيديو كليب وإظهار الفنانة لمفاتنها أو العارضة فهو محرم بالإجماع لما فيه من مخاطر كبيرة وتعطيل للشباب، أما الغناء فقد اختلف فيه جمهور العلماء متقدمهم ومتأخرهم ولم يسهب العودة في هذا الأمر وجعله معلقاً.

ولنقتصر منها على أسلوب الخطابة ، ومن أراد المزيد فلينظر إلى مذكرة أساليب الدعوة ووسائلها للمؤلف .

١٤- الجهاد . (تعريفه ، أنواعه ، أخلاقه وآدابه)

الخطابة .

تعريف الخطابة :

الخطابة في اللغة : مراجعة الكلام . . والخطبة اسم للكلام الذي يتكلم به [لسان العرب ١/٣٦٠-٣٦١ مادة (خطب)]

فالخطابة لون من ألوان الكلام المنثور البليغ يضارع في أصالته وقوة تأثيره الشعر ، وللخطابة أغراض وأنماط كثيرة تتنوع أساليبها تبعا لذلك .

الخطابة في الاصطلاح :

عند أرسطو : (هي القدرة على النظر في كل ما يوصل إلى الإقناع في أي مسألة من المسائل) [أصول الإعلام الإسلامي : ص ٢٦٧]

وعند ابن رشد : (هي : قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأشياء المفردة) [النظرة الإسلامية للإعلام : ص ٩٠]

وعند بعض المعاصرين : (فن مشافهة الجمهور للتأثير عليهم واستمالتهم) [الدعوة إلى الله : د . عبد الله شحاتة ص ١٩ ، وقواعد الخطابة : د . أحمد غلوش : ص ٨ ط : ١٩٧٩م]

ولنحلّل مفردات هذا التعريف :

قالوا هي (فن) إشارة إلى أنها علم له قواعد وأصول وأساليب وضوابط ، لا بد من تعلمها ثم التمرس عليها والتعوّد ، يؤازر ذلك المقدرة النفسية والموهبة الإلهية ، والخطيب من جمع بين العلم والموهبة ، قال الجاحظ : (رأس الخطابة الطبع ، وعمودها الدربة ، وجناحاها رواية الكلام ، وحليها الإعراب ، وبهاؤها تخيّر الألفاظ) [البيان والتبيين : الجاحظ ١ / ٤٤]

وعبروا عن الخطابة بـــ (المشافهة) دلالة على أنها تتوجه إلي المستمعين من غير واسطة ، وللخطابة من التأثير ما يجعلها أهم وسائل الدعوة والتبليغ المباشِرة .

وفي لفظ (الجمهور) إشارة إلى اختلافهم في الثقافة ، وتباينهم في المشارب والمسالك ، فيهم الصغير والكبير والعالم والجاهل والصديق والعدو والموافق والمخالف فالخطيب البارع هو الذي يتمكن من مخاطبة كل هؤلاء بما يناسبهم من فنون البيان وطرائق الخطاب .

خصائص الأسلوب الخطابي :

١- القوة البيانية :

إذ تتوجه إلى الجمهور على اختلاف مداركهم وثقافاتهم وميولهم الفكرية والنفسية ، وهذا يقتضي أن يمازج الخطيب في أسلوبه الخطابي بين الخبر والإنشاء ، ويحور أسلوبه وفق ما يراه من إقبال السامعين أو فتورهم ، قال البلاغيون : (البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة ، وإلى ترتيب ورياضة ، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة ، وإلى سهولة المخرج وقوة المنطق ، وتكميل الحروف وإقامة الوزن ، وأن حاجة المنطق إلى الحلاوة والطلاوة كحاجته إلى الجزالة والفخامة ، وأن ذلك أكثر ما تستمال به القلوب وتنثني به الأعناق وتزين به المعاني) [البيان والتبيين ١٤/١]

٢- الإقناع والاستمالة :

بالحجة العقلية طورا ، وبالتأثير العاطفي طورا آخر ، وبهما معا ، وهذا يقتضي أن يكون الخطيب عارفا بمجاري الكلام وأساليب الإقناع والتأثير . ولهذا الاعتبار أطلق على البيان القوي سحرا كما في قوله ﷺ : (إن من البيان لسحرا) [متفق عليه : خ : النكاح (٥١٤٦) ، م : الجمعة (٨٦٩)]

قال بن رشد : (لا توجد قوة الإقناع إلا في الخطابة والجدل) وقال : (وليس عمل هذه الصناعة – يعني الخطابة – أن تقنع ولابد .. وقد يقنع من ليس بخطيب ، وان كان الأصل في الخطيب الإقناع كالبرء في الطبيب) [تلخيص الخطابة : ابن رشد ص ٢٤]

٣- التأثير النفسي :

التأثير في الخطابة أمر أساس ، ولقوة التأثير وعمقه تسمى الخطابة سحراً كما تقدم ، وإلى تأثير الخطابة العميق يشير حديث أم سلمة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ : (إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع منه ، فمن قطعت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار) [متفق عليه : خ : الأحكام (٧١٦٩) ، م : الأقضية (١٧١٣)]

ويعتمد التأثير الخطابي – بعد قوة العبارة وجودة الفكرة وحلاوة المنطق – على مكانة الخطيب الاجتماعية وجاهه ، علما أو فضلا أو صلاحا أو إلفا أو تفاعله أثناء الخطبة ويظهر صدقه في لهجته ونبرات صوته . وأيضا جرأته وقدرته على البيان البليغ الذي هو من خصائص الرجولة ، وقد جاء في التنزيل الحكيم أن العجز عن الإبانة من خصائص الأنوثة ، قال تعالى : { أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ } [الزخرف : ١٨]

مكانة الخطابة في الدعوة إلى الله :

بعث النبي صلى الله عليه وسلم وهو من صميم العرب وهو أخطبهم وأفصحهم ، وكانت معجزته القرآن الكريم الذي تحداهم به وإعجاز القرآن معلم من معالم الدعوة ، فالخطابة عماد الدعوة ، إذ هي الوسيلة المثلى في تبليغ دين الله وشرعه إلي الناس .

وإذا كانت الجاهلية قد عرفت من أغراض الخطابة المنافرة والمفاخرة والحض على القتال والأخذ بالثأر وخطب النكاح والمحافل والوصايا وسجع الكهان ، فإن الخطابة الإسلامية صبغت الخـــطابة بالصبغة الشرعية ، فأضفت عليها سجال الأخلاق والفضائل ، وقضت بذلك على كل ما يخالف الهدي الإسلامي ، ودارت موضوعات الخطابة الإسلامية على بيان الأحكام وفصل الحلال والحرام والحض على الجهاد وخطب النكاح والمحافل والوفود والوصايا والخطب السياسية والوعظية ..

وقد طبع القرآن الكريم الخطابة بالطابع الروحي الإسلامي في الأفكار والمعاني والأسلوب والصياغة ، فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقة وحسن الوقع ، وتسمى الخطبة (بتراء) إذا لم تبدأ بحمد الله والثناء عليه ثم الصلاة والتسليم على رسوله ، ويطلق عليها (الشوهاء) إذا لم تعرض في ثناياها آيات من القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ .

ومما يستدل به على مكانة الخطابة في الإسلام :

- **أنها من أجل النعم وقد امتن الله تبارك وتعالى على الناس أن أوجد لديهم القدرة على التعبير عما تستجيشه النفوس ، قال تعالى : لا ريب أن النطق والبيان من منن الرحمن على بني الإنسان ، قال جل وعزّ : { الرَّحْمَانُ(١)عَلَّمَ الْقُرْآنَ(٢)خَلَقَ الْإِنسَانَ(٣)عَلَّمَهُ الْبَيَانَ(٤) } [الرحمن] وقال { أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(٨)وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ } [البلد] فباللسان يترجم الإنسان عما في ضميره وصدره ، وبالشفتين يستعين على الأكل والشرب والنطق والبيان .**
- **ولقد كان الأنبياء عليهم جميعا الصلاة والتسليم خطباء فصحاء قال تعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٤) } [إبراهيم] فقوله { إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ } أي بلغتهم ليبيّنوا لهم أمر دينهم [الجامع لأحكام القرآن ٥/٣٤٠]**

وهذا داوود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام يقول الله تعالى عنه : { وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ } [ص] على تفسير من يقول أن معنى { فَصْلَ الْخِطَابِ } : البيان والكلام ، قال الماوردي : البيان الكافي في كل غرض مقصود [زاد المسير ١١١/٧]

وحكى عن موسى عليه السلام قوله : { وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِي } [القصص]

وورد في خاتم النبيين ﷺ جملة من الآيات تبين أن البيان وإيصال الحق إلى الناس بالكلمة البليغة والموقف الحكيم هو من صميم رسالته ﷺ قال تعالى : { وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } [النحل : ٤٤] وقال { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } [المائدة : ٩٢]

والقرآن الكريم كلام الله المجيد ، معجز في لغته وبلاغته وبيانه وإبانته الحق وتفصيله الأحكام قال تعالى : { هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ } [آل عمران : ١٣٨] وقال تعالى : { وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا} [الإسراء : ١٢] وقال : { قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ} [المائدة : ١٥]

فلقد كان النبي ﷺ وهو المبلغ عن الله تعالى من أخطب الناس وأبلغهم وأفصحهم ، يشهد لذلك قوله ﷺ : (بعثت بجوامع الكلم) [متفق عليه : خ : الجهاد (٢٩٧٧) ، م : المساجد (٥٢٣)] فهو ﷺ إمام البلغاء وقدوة الفصحاء والخطباء لا يضارعه في قوة البيان والفصاحة أحد ، ولا يدانيه في التعبير البلاغي خطيب ولا بليغ .

وتبوأت الخطابة مكانة عالية في التشريع الإسلامي حتى غدت معلما بارزا من معالم المجتمع الإسلامي ، إذ شرعت خطبة والعيدين والنوازل ، حتى أن المنبر المعد للخطبة من معالم المسجد النبوي الشريف إذ خطب عليه رسول الله ﷺ ، وفي صحيح البخاري باب الخطبة على المنبر ، وساق تحته حديث جابر ﷺ قال : (كان جذع يقوم إليه النبي ﷺ ، فلما وضع له المنبر سمعنا للجذع مثل لأصوات العشار – جمع عشراء وهي الناقة التي أتى على حملها عشرة أشهر – حتى نزل النبي ﷺ فوضع يده عليه) [متفق عليه : خ : المناقب (٣٥٨٥) ، م : المساجد (٥٤٤)] وعند الإمام أحمد أن الجذع خار وتصدع وانشق [مسند الأنصار (٢٠٢٩٥)]

فلخطبة الجمعة وصلاتها شأن عظيم في الإسلام ، فهو جزء أساس من حياة المسلم ومن مقومات المجتمع الإسلامي لا يمكن التفريط فيه أو التغافل عنه ، وفي القرآن الكريم سورة تبين أحكام الجمعة وهي سورة الجمعة ، كما ورد في السنة النبوية ما يبين شأن الجمعة كما في حديث عبد الله بن عمر وأبا هريرة رضي الله عنهم أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول على أعواد منبره : (لينتهين أقوام عن

ودعهم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين) [م : الجمعة (٨٦٥) ، ن : الجمعة (١٤٧٠) ، ماجة : المساجد والجماعات (٧٩٤) ، أحمد : بني هاشم (٢٠٢٥) ، دارمي : الصلاة (١٥٢٤)]

وقد جعل الله عز وجل لخطبة الجمعة ضمانة أن يُستمع إليها وأن تجلل بالخشوع والسكينة والاتعاظ ، فمن ذلك أن جعل الساعة المرجوة يوم الجمعة في الوقت الذي تلقى فيه الخطبة ، وذلك مدعاة إلى الخشوع والإنصات وحضور القلب ، فعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أسمعت أباك يحدث عن رسول الله ﷺ في شأن ساعة الجمعة ؟ قال قلت نعم ، سمعته يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول : (هي ما بين أن يجلس الإمام إلي أن تُقضى الصلاة) [م : الجمعة (٨٥٣) ، د : الصلاة (٨٨٥)] ولا جرم أن تحديد الساعة بهذا التوقيت هو ما جزم به كثير من الأئمة الأعلام رحمهم الله تعالى كالنووي وغيره .

وقد ذكر الفقهاء أن لخطبة الجمعة أركانا وشروطا لا تنعقد إلا بها ، وهي ١- حمد الله تعالى ٢- الصلاة على رسول الله . ٣- الوصية بتقوى الله تعالى . ٤- قراءة آية من القرآن الكريم . ٥- الدعاء للمؤمنين ..

(وأمر النبي ﷺ العواتق وذوات الخدور وذوات الحيض أن يخرجن إلى العيد وتعتزل الحيض المصلي) [خ : الجمعة (٩٨١) ، م : صلاة العيدين (٨٩٠)]

وعليه فإن الحضور لاستماع خطبتي الجمعة والعيدين من الواجبات الشرعية التي ينبغي أن يتآزر عليها أفراد المجتمع ، وما من شك أن لخطبة الجمعة والعيدين والنوازل دوراً بليغا في توجيه الرأي العام الإسلامي إذا أحسن الخطباء النصح والتوجيه والإرشاد ، ففي لقاء الجمعة أهمية كبرى في المجتمع الإسلامي وله أثر عميق في فكر المجتمع ورأيه وسلوكه لاسيما وأن حضور هذا الملتقى الأسبوعي الإسلامي والمشاركة فيه فرض عين على كل مسلم بالغ عاقل مقيم من الرجال .

ومن الخطباء الذين كانت خطبهم فاصلة في قضايا الأمة ومهماتها الخلفاء الأربعة وستأتي مقاطع من خطبهم ، واشتهر ممن كان يخطب بين يدي رسول الله ﷺ دفاعا عن الدعوة وذودا عن حماها ثابت بن قيس بن شماس الخزرجي الأنصاري ﷺ قال ابن حجر : رحمه الله : وهو الذي خطب مقدم النبي ﷺ المدينة فقال : نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأولادنا فما لنا ؟ قال : (الجنة) قالوا : رضينا . بشره رسول الله ﷺ بالجنة في حديث أصله عند مسلم وفي البخاري مختصرا ، استشهد يوم اليمامة) [متفق عليه : خ : التفسير (٤٨٤٦) ، م : الإيمان (١١٩)]

- إشادته ﷺ بالخطابة والخطباء : لقد اتخذ صلى الله عليه وسلم من الخطابة أسلوبا عمليا مباشراً في ايصال دعوته وأداء برسالته ، فعامة الأحاديث النبوية القولية هي في حقيقتها مقاطع من خطبه البيانية الوعظية .

وكانت الخطباء يخطبون بين يديه ، سواء كانوا من خطباء المجتمع المدني أو من خطباء الوفود القادمة من مختلف أنحاء الجزيرة العربية بعد الهجرة ، وكذلك صور التعبير والبيان الأخرى كالجدل والحوار والمناظرة وبعث الكتب والرسل إلى الآفاق .

أنواع الخُطب : قسمها قدماء الفلاسفة إلى ثلاثة أنواع : قضائية واستشارية واستدلالية [فن الخطابة : أحمد الحوفي ٦٢] وقد عد بعضهم [المرجع السابق] ستة أنواع للخطابة وهي :

١ – الخطبة الوعظية : ومحورها العام الموعظة الحسنة والتذكير بالله عز وجل وبيوم الحساب وما فيه من جزاء ثوابا وعقابا ، وبيان أحكام الشرع وحِكمه ، وأمثلتها خطبتا الجمعة والعيدين والنوازل وخطبة يوم عرفة ، وعلى الجملة فهذا النوع من الخطب ممن أجل الخطب وأنفعها ، إذ غرضه التعليم والتذكير.

ولقد كان النبي ﷺ في خطبه كلها يجمع بين الأغراض الخطابية ومقاصدها كخطبته الجامعة التي ألقاها في حجة الوداع ، ومنها ما رواه أبو بكرة ﷺ قال : (خَطَبَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ النَّحْرِ قَالَ أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا قُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ قَالَ أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ قُلْنَا بَلَى قَالَ أَيُّ شَهْرٍ هَذَا قُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ فَقَالَ أَلَيْسَ ذُو الْحَجَّةِ قُلْنَا بَلَى قَالَ أَيُّ بَلَدٍ هَذَا قُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ قَالَ أَلَيْسَتْ بِالْبَلْدَةِ الْحَرَامِ قُلْنَا بَلَى قَالَ فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا إِلَى يَوْمِ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ قَالُوا نَعَمْ قَالَ اللَّهُمَّ اشْهَدْ فَلْيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ) [متفق عليه : خ : الحج (١٧٤١) واللفظ له ، م : القسامة (١٦٧٩)]

وفي خطبته ﷺ يوم فتح مكة ما رواه البخاري عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَامَ يَوْمَ الْفَتْحِ فَقَالَ : (إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَهِيَ حَرَامٌ بِحَرَامِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي وَلَمْ تَحْلِلْ لِي قَطُّ إِلَّا سَاعَةً مِنَ الدَّهْرِ لَا يُنَفَّرُ صَيْدُهَا وَلَا يُعْضَدُ شَوْكُهَا وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهَا وَلَا تَحِلُّ لُقَطَتُهَا إِلَّا لِمُنْشِدٍ) فقال العباس إلا الإذخر يا رسول الله ، فإنه لا بد منه للقين والبيوت فسكت ثم قال : (إِلَّا الْإِذْخِرَ فَإِنَّهُ حَلَالٌ) [متفق عليه : خ : المغازي (٤٣١٣) واللفظ له ، م : الحج (١٣٥٣)]

فالخطابة الوعظية هي أكثر أنواع الخُطب التي يعتمد عليها الدعاة والوعاظ والقصاص والمربون ، ولها من التأثير وترقيق القلوب واثارة العواطف ما ليس لغيرها إذ تتضمن القسط الأوفر من الترغيب والترهيب ، وتخاطب الضمير والوجدان ، وتستحث الهمة وتزع في النفوس وازع الإيمان والتقوى .

٢- الخطبة الاجتماعية : وموضوعها النكاح ، وتُسمى خِطبة بكسر الخاء كما في قوله تعالى : { وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ } [البقرة : ٢٣٥]

ومن أمثلتها الخطبة التي ألقاها أبوطالب في معرض تزويج النبي ﷺ من خديجة رضي الله عنها ، قال : (الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضئ معد وعنصر مضر ، وجعل لنا بيتا محجوجا وحرما آمنا ، وجعلنا أمناء بيته وسواس حرمه ، وجعلنا الحكام على الناس ، وإن ابن أخي محمد بن عبد الله من قد علمتم قرابته ، وهو لا يوزن بأحد إلا رجح به ، فإن كان في الماق قِلّ فإن المال ظِلّ زائل ، وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها من الصداق ما عاجله وآجله كذا وكذا ، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل .) [تاريخ بن خلدون ٣٩٤/٢]

وقد يتطرق الحديث في هذا اللون من الخطابة عن القضايا المتشعبة من موضوع الزواج كما ورد في حديث المسور بن مخرمة أن النبي ﷺ قال على المنبر : (إِنَّ بَنِي هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ اسْتَأْذَنُوا فِي أَنْ يُنْكِحُوا ابْنَتَهُمْ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ فَلَا آذَنُ ثُمَّ لَا آذَنُ ثُمَّ لَا آذَنُ إِلَّا أَنْ يُرِيدَ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ أَنْ يُطَلِّقَ ابْنَتِي وَيَنْكِحَ ابْنَتَهُمْ فَإِنَّمَا هِيَ بَضْعَةٌ مِنِّي يُرِيبُنِي مَا أَرَابَهَا وَيُؤْذِينِي مَا آذَاهَا) [متفق عليه : خ : النكاح (٥٢٣٠) ، م : فضائل الصحابة (٢٤٤٩)]

على أن هذا الموقف النبوي الكريم من النبي ﷺ لم يكن انحيازا عاطفيا تجاه فاطمة الزهراء رضي الله عنها ، وإنما كان بيانا للسبب الإجتماعي القوي لذلك الموقف الحكيم وقد بينه ﷺ في خطبته تلك كما وقع في رواية أخرى عن المسور بن مخرمة أيضا قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو يخطب الناس على منبره هذا وأنا يومئذ محتلم فقال : (إِنَّ فَاطِمَةَ مِنِّي وَأَنَا أَتَخَوَّفُ أَنْ تُفْتَنَ فِي دِينِهَا) ثم ذكر صهرا له من بني عبد شمس فأثنى عليه فِي مصاهرته إياه قال (حَدَّثَنِي فَصَدَقَنِي وَوَعَدَنِي فَوَفَى لِي وَإِنِّي لَسْتُ أُحَرِّمُ حَلَالًا وَلَا أُحِلُّ حَرَامًا وَلَكِنْ وَاللَّهِ لَا تَجْتَمِعُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِنْتُ عَدُوِّ اللَّهِ أَبَدًا) [متفق عليه : خ : فرض الخمس (٣١١٠) ، م : فضائل الصحابة (٢٤٤٩)]

ومن الأمثلة أيضا قصة زواج بلال الحبشي وأخيه رضي الله عنهما ، قال ابن حجر : (أقبل هو وأخوه إلى حي من خولان فقال : أتيناكم خاطبين قد كنا كافرين فهدانا الله عز وجل ومملوكين فأعتقنا الله عز وجل وفقيرين فأغنانا الله عز وجل فإن تزوجونا فالحمد لله وإن تردونا فلا حول ولا قوة إلا بالله فزوجوهما) [الإصابة في تمييز الصحابة ترجمة أبي رويحة ١٤٤/٧ رقم الترجمة (٩٩٠٩) ، وانظر سير أعلام النبلاء

٣٥٨/١] وهذا النوع من الخطابة أشق على النفس من الأنماط الخطابية الأخرى ، وربما ألقيت هذه الخطبة قعودا دون غيرها .

ومما اشتهر في كتب الحديث خطبة الحاجة وهي الخطبة التي يقولها عاقد الأنكحة على ما هو مأثور في مثل ذلك ، ولها صيغ متعددة منها ما رواه عبد الله بن مسعود قال : علمنا رسول الله ﷺ التشهد في الصلاة والتشهد في الحاجة قال التشهد في الصلاة : (التحيات لله والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله) والتشهد في الحاجة : (إن الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا فمن يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله) ويقرأ ثلاث آيات قال عبثر ففسره لنا سفيان الثوري : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢)} [ال عمران] { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا(١)} [النساء] { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا(٧٠)} [الأحزاب] [ت : النكاح (١١٠٥) وحسّنه ، ن : الجمعة (١٤٠٤) ، د : النكاح (١٨٠٩) ، ماجة : النكاح (١٨٩٢) ، أحمد : المكثرين (٣٥٣٦) ، دارمي : النكاح (٢١٠٥)]

وإذا استفتح بصيغة أخرى غير هذه جاز ، لأنه لم يؤثر عنه ﷺ أنه كان يداوم على هذه الصيغة في سائر خطبه العارضة والراتبة ، ولعل الأوفق أن يأتي بأنماط جديدة من الافتتاح في كل خطبة لا سيما إن كان خطيب جمعة ليحافظ بذلك على عنصر التجديد .

٣- الخطبة الحـــفلية : وهي التي تلقى في المحافل العامة وأعراضها : التكريم ، أو التهنئة ، أو التأبين ، أو علاج معضلة ، ومن أمثلتها المشهودة ما تنظمه الجامعات عادة من حفلات تكريم الطلاب والأساتذة والخرجين وغيرهم في المناسبات المعينة ..

٤- الخطبة القضائية : وتلقى غالبا في المحاكم والدوائر القانونية والقضائية ويتولاها الخصوم أو من ينوب عنهم من المحامين والنواب ... وموضوعها الخصومات والمحاماة والمرافعات والدعاوى ، ومجالاتها معلومة في نظام القضاء والمرافعات . ومما يشير إلى هذا النوع من الخطابة حديث أم سلمة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنكم تختصمون إليّ ولعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع منه ، فمن قطعت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار) [متفق عليه : خ : الأحكام (٧١٦٩) ، م : الأقضية (١٧١٣)]

٥ – الخطبة الحربية : وتلقى في ميادين الوغى يتولاها قادة الجيوش ، يرغبون جنودهم في القتال والاستبسال ويبينون لهم كرامة الشهداء ومنازلهم وما أعد الله لهم في دار الخلد من قرة عين ، أو يستشيرونهم استقراء لرغباتهم وتوجهاتهم ، فيديرون أثر ذلك دفة الحرب ، وقد وردت في القرآن الكريم إشارات إلى هذا اللون من الخطابة التي كان يلقيها النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه كعامة ما في سورة القتال وهي سورة الأنفال التي كان المسلمون يرتلونها في ميادين الجهاد حتى يسمع لهم دوي كدوي النحل من كثرة التالين لها وفيها قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ(٦٥) } [الأنفال]

وقد يتضمن هذا اللون من الخطابة الحربية معرفة اتجاهات الجنود المحاربين وقياس روحهم المعنوية ، وهو ما يعرف في عصرنا باستقراء الرأي العام ، وهو ضروري لوضع الخطط العسكرية ، ومن الأمثلة على ذلك قول النبي ﷺ يوم الحديبية لما أتاه عينه فقال : (إن قريشا قد جمعوا لك جموعا وقد جمعوا لك الأحابيش وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت ومانعوك فقال : (أَشِيرُوا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيَّ أَتَرَوْنَ أَنْ أَمِيلَ إِلَى عِيَالِهِمْ وَذَرَارِيِّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَصُدُّونَا عَنْ الْبَيْتِ فَإِنْ يَأْتُونَا كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ قَطَعَ عَيْنًا مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَإِلَّا تَرَكْنَاهُمْ مَحْرُوبِينَ) قال أبو بكر يا رسول الله خرجت عامدا لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه : (امْضُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ) [خ : المغازي (٤١٧٩)]

ومن أغراضها أيضا التعبئة النفسية الإيمانية للقتال وهو سر التفوق المعنوي ولا يقل أهمية عن التفوق في العَدد والعتاد ، ومثاله ما رواه عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله ﷺ في بعض أيامه التي لقي فيها [أي قاتل فيها] انتظر حتى مالت الشمس ثم قام في الناس خطيبا فقال : (أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف) ثم قال : (اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم) [متفق عليه : خ : الجهاد والسير (٢٩٦٦) ، م : الجهاد (١٧٤١)]

على أن المحاور العامة للخطب الحربية وخطط الحرب وأخلاق المحاربين كان يستقيها القواد في غزواتهم وفتوحاتهم من الهدي النبوي فهو أكمل هدي على الاطلاق .

ومن وصاياه عليه الصلاة والسلام في هذا المجال ما رواه سليمان بن بريدة عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال : (اغزو بسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا

تقتلوا وليدا ، واذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال فأيتهن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، ادعهم الى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين ، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في العنيمة والفئ شئ الا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوا فسلهم الجزية فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم ، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله ، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزل على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا) [م : الجهاد (١٧٣١) واللفظ له ، د : الجهاد (٢٢٤٦) ، ت : الديات (١٤٠٨) ، ماجة : الجهاد (٢٨٥٨) ، أحمد : الأنصار (٢١٩٠٠)]

ولا نغالي إذا قلنا إن بلداً من بلاد الفرس في العراق وإيران وبلدان الروم في الشام ومصر لم يفتح إلا بعد أن فتحته خطبة كخطبة المغيرة بن شعبة في القادسية ، وخالد بن الوليد في اليرموك ، وعتبة بن غزوان في الأبلة ، وخيد بن المنذر في فارس ، وطارق بن زياد في الأندلس .. يقول عتبة في خطبته : (أما بعد فإن الدنيا قد آذنت بصرم وولت حذاء ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها فانتقلوا منها بخير ما يحضرنكم فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يلقى من شفير جهنم فيهوي فيها سبعين عاما ما يدرك لها قعرا والله لتملؤنه أفعجبتم والله لقد ذكر لنا أن ما بين مصراعي الجنة مسيرة أربعين عاما وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام) [م : الزهد (٢٩٦٧) ، أحمد : البصريين (١٩٦٩٧) والخطبة عند مسلم وأحمد لعتبة وليست مرفوعة إلىالنبي ﷺ وفي بعض المراجع الأخرى سيقت مرفوعة]

وروى الطبري بسنده عن أبي عبد الرحمن السلمي قال نزلنا المدائن فكنا منها على فرسخ فجاءت الجمعة فحضر أبيّ وحضرت معه فخطبنا حذيفة فقال : (ألا إن الله يقول { اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١)} [القمر] ألا وإن الساعة قد اقتربت ألا وإن القمر قد انشق ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ألا وإن اليوم المضمار وغدا السباق فقلت لأبي أيستبق الناس غدا فقال يا بني إنك لجاهل إنما هو السباق بالأعمال ثم جاءت الجمعة الأخرى فحضرنا فخطب حذيفة فقال ألا إن الله عز وجل يقول : { اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ} ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ألا وإن اليوم المضمار وغدا السباق ألا وإن الغاية النار والسابق من سبق إلى الجنة) [تفسير الطبري ٥١/٢٧]

٦- *الخطبة السياسية :* ويلقيها في الأغلب الزعماء والساسة والمنتخبون ، في المجالس النيابية والشورية والبرلمانات وأغراضها شتى كبيان منهج الحكم واستكشاف الرأي العام وحل معضلة ، ومن أمثلتها خطبة أبي بكر ﷺ الشهيرة التي ألقاها إثر وفاة رسول الله ﷺ والتي قال فيها : (أما بعد : فمن كان منكم يعبد محمدا ﷺ فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، قال الله تعالى : { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)} [آل عمران] ، قال الراوي والله لكأن الناس لم يكونوا يعلمون أن الله أنزلها حتى تلاها أبو بكر ﷺ فتلقاها الناس فما يسمع بشر الا يتلوها ! [خ : الجنائز (١٢٤٢) ، ابن ماجة : الجنائز (١٦٢٧) ، ن : الجنائز (١٨٤١) ، أحمد : الأنصار (٢٤٦٥٨)]

ومما يندرج في الخطابة السياسية حديث عبد الله بن مسعود قال لما قبض النبي ﷺ قالت الأنصار منا أمير ومنكم أمير ! فأتاهم عمر فقال : (يا معشر الأنصار ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ أمر أبا بكر أن يؤم الناس قالوا بلى قال فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر قالت الأنصار نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر) [أحمد : المكثرين (٣٦٤٩) ، س : الإمامة (٧٧٧)]

وله أيضا ﷺ خطبته الشهيرة التي ألقاها إثر توليه الخلافة ، قال فيها : (يا أيها الناس أني قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن ضعفت فقوموني وإن أحسنت فأعينوني الصدق أمانة والكذب خيانة الضعيف فيكم القوي عندي حتى أزيح عليه حقه إن شاء الله والقوي فيكم الضعيف عندي حتىآخذ منه الحق إن شاء الله لايدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالفقر ولا ظهرت – أو قال شاعت – الفاحشة في قوم إلا عممهم البلاء أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله) [كتاب الجامع : معمر الأزدي ٣٣٦/١١]

ويذكر ابن هشام خطبتين في هذه المناسبة إحداهما لعمر الفاروق والأخرى لأبي بكر رضي الله عنهما قال : حدثني الزهري قال حدثني أنس بن مالك قال لما بويع أبو بكر في السقيفة وكان الغد جلس أبو بكر على المنبر فقام عمر فتكلم قبل أبي بكر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : (أيها الناس إني كنت قلت لكم أمس مقالة ما كانت مما وجدتها في كتاب الله ولا كانت عهدا عهد إلي رسول الله ﷺ ولكني قد كنت أرى أن رسول الله ﷺ سيدبر أمرنا يقول يكون آخرنا وان الله قد أبقى فيكم كتابه الذي به هدى الله رسوله ﷺ فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله ﷺ وثاني اثنين إذ هما في الغار فقوموا فبايعوه فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة ....)

خطبة أبي بكر بعد البيعة : تكلم أبو بكر ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بالذى هو أهله ثم قال : (أما بعد أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وان أسات فقوموني الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله) [السيرة النبوية لابن هشام ٦٦١/٢ ، وانظر الرياض النضرة في مناقب العشرة للطبري ٢١٣/٢]

ومن المحاور التي تدور عليها الخطبة السياسية جمع الكلمة وبيان أسباب تحقيق ذلك ومقوماته والحض على وحدة الصف ونبذ الفرقة والإختلاف كي تظل للمجتمع قوته وتلاحمه وهذا ما كان يتوخاه الخلفاء في خطبهم وهم في ذلك يقتدون بالنبي الكريم ﷺ ومن ذلك ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال : خطبنا عمر بالجابية فقال : (يا أيها الناس إني قمت فيكم كمقام رسول الله ﷺ فينا فقال : (أوصيكم بأصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل ولا يستحلف ، ويشهد الشاهد ولا يستشهد ، ألا لا يخلون رجل بامرأة الا كان ثالثهما الشيطان ، عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الإثنين أبعد ، من أراد بحبوحة الجنة [أوسطها وأوسعها] فليلزم الجماعة ، من سرته حسنته وساءته سيئته فذلك المؤمن) [ت : الفتن (٢١٦٥) وقال حسن صحيح غريب واللفظ له ، ابن ماجة : الأحكام (٢٣٦٣) ، صحيح ابن حبان ٤٣٦/١٠ (٤٥٧٦) ، وأحمد : مسند العشرة المبشرين بالجنة (١٠٩) ، المستدرك على الصحيحين ١٩٧/١ (٣٨٧) وقال صحيح على شرط الشيخين] هذا ملخص أقسام الخطبة وأنواعها .

أجزاء الخطبة : تنهض الخطابة على عمد ثلاثة ، هي :

١- المقـــــدمة . ٢- العـــرض . ٣- الخاتمة .

ولكل هذه الأصول أو الأجزاء الرئيسية ضوابط ومعايير ، إن روعيت أتت الخطبة على أتم وجه وأكمل صورة ، ودونك تفصيل ذلك :

الجزء الأول : المقـــــــدمة :

وهي مفتتح الخطبة وصدرها ومبتدؤها وعنوانها ، وضوابط المقدمة كثيرة ، أهمها :

١- أن تستهل بحمد الله جل وعلا والثناء عليه ، ثم الصلاة والتسليم على رسول الله ﷺ وهذا الافتتاح الإيماني هو هدي النبي ﷺ قدوة الخطباء والمصلحين ورسول رب العالمين ، قال الإمام ابن القيم

رحمه الله : (وكان رسول الله ﷺ لا يخطب خطبة إلا افتتحها بحمد الله . . . وكان يخطب قائما . . . وكان يختم خطبته بالاستغفار) [زاد المعاد ١ / ١٨٦]

وينبغي للخطيب ألا يتخلى عن هذا المفتتح السَّنِي سواء في خطبه أو في مجالسه العلمية وكلماته الوعظية والإصلاحية ونحوها ، وبذلك يتميز التقي النقي من الفاجر العصي .

٢- أن تكون متصلة بموضوع الخطبة تمهد له وتنجسم مع معطياته ، وهو أمر مستحسن لأن من استوحى موضوع الخطبة ومقدمتها وقع ذلك في نفسه الموقع الحسن ، فلو كانت الخطبة عن الصلاة – مثلا – تكن المقدمة هكذا : الحمد لله الذي جعل الصلاة عماد الدين ورفع بها درجات المتقين ، والصلاة والسلام على من جعلت الصلاة قرة عينه وراحة قلبه .. وهكذا

٣- الوضوح ، فمن شروط المقدمة أن تكون بينة لا لبس فيها ولا غموض ، وعلى الخطيب أن يتخير لها من الألفاظ أعذبها مما هو سائغ سهل لا نشز فيه ولا عسر ، مما يفهمه القاضي والداني ، لان استعذاب السامع لألفاظ المقدمة يجعله مشدودا آلي متابعة ما يليها من الكلام أما إذا قرع سمعه لفظ شاذ عسير الفهم والهضم نفر منه وانشغل بغيره أو استمتع إليه سماع مساير لا سماع تأثر واتعاظ .

٤- أن يراعي براعة الاستهلال وطرافة الاستفتاح ، وتحقيق ذلك سبيله الإلمام بضروب البلاغة كالسجع والجناس والطباق وغيرها من أبحاث البلاغة . . . ولأن النفوس تستشرف الطريف الجديد وتهواه وتمج المكرر الممل .

٥- أن تتناسب مع حجم الخطبة طولا وقصرا ، فإذا كانت الخطبة طويلة أطيلت مقدمتها وان كانت قصيرة قصرت ، وإذا انتهى من المقدمة شرع فيما بعدها بقوله (أما بعد) وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن قول الله عز وجل في داود عليه السلام : { وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ } [ص : ٢٠] هو قوله (أما بعد) [زاد المسير ٧ / ١١٢]

الجزء الثاني – العرض : وهو صلب الخطبة ومتنها ومضمونها ومحورها ، وضوابطه :

١- الوحدة الموضوعية : بان يراعي كون الحديث في موضوع واحد لا يخرج عنه إلي غيره إلا لحاجة ، لان ذلك أدعى إلى الاستيعاب ، أما إذا خرج عن موضوع خطبته إلي موضوعات أُخَر ، يلج في هذا ويخرج من هذا دون مبرر شتت الأذهان ولم يخرج المستمعون منه بكبير فائدة . .

٢- الجدة : بأن يكون موضوع الخطبة جديدا جاداً ، فالجديد هو الطريف غير المكرر ، في أسلوب العرض ، ومنهج المعالجة ، وتقديم الفكرة ، والحياة تزخر بالكثير من القضايا الهامة التي يعيشها الناس فليختر منها ما يشبع حاجاتهم وما يجيب على تساؤلاتهم وما يشفي غليلهم ، أما إذا كرر موضوعا واحدا وبغير حاجة ، بعث على السآمة الملل وهو من أخطر عيوب الخطيب .

٣- الوضوح : سواء في اختيار الموضوع أو في الأسلوب الخطابي أو في الفصاحة ، فعليه أن يختار موضوعا واضحا تجتمع إليه إرادات الناس صغيرهم وكبيرهم ، وعليه بعدئذ أن يسلك في طريقه العرض أوضح سبيل فيحدث الناس بما يفهمون ويدركون ويلائم عقولهم ، لا بما يفهم هو ! واللغة العربية تفيض بالكلمات المعبرة المستساغة الشيقة ، فليختر منها الأقرب والأبين ، وليمازج في الأسلوب بين الخبر والإنشاء بشتى ضروبها ، وليراعِ السكتات والوقفات فهي مما يبرز غرض الخطيب ويقرب المعنى ويصوره ولا يجد المستمع كبير عناء في الفهم والاستيعاب . ولكل قوم لغة وآداب ، واللغة وعاء المعنى وثوبه ، فمتى كان قشيبا جديدا طريفا حاز القبول .

٤- المعاصرة : وتعني بها هنا اختيار الموضوع الحي النابع من حاجات الناس مما يواكب رغباتهم ويجيب عن تساؤلاتهم ويحل مشكلاتهم ويشبع تطلعاتهم ، وكلما كان الموضوع كذلك كان أقرب إلى النفوس وأوقع في القلوب ، وليبتعد عن الموضوعات التي عفا عليها الزمن مما لا وجود له اليوم وليس الناس بحاجة آلي التذكير به .

٥- الحذر من إثارة الخلافات بين الناس : وقد يقع في هذا الخطيب من حيث لا يدري إما لسوء فهمه أو لقلة معرفته بالمجتمع وعوائده ، أو لركاكة أسلوبه أو لعجزه عن التعبير الصادق البليغ .

والخطيب في الأصل موجه ومرشد ومن كان بهذه المثابة من رفعة المقام كان حريا به أن يجمع ولا يفرق ، ويؤلف بين القلوب ولا ينفر ، ويوحد الصفوف ولا يشتت ، ومتى مس الخطيب مشاعر المستمعين نفرهم ففقد بذلك أولى عوامل التأثير .

وتأمل بعين الاعتبار والاتعاظ قول النبي ﷺ لمعاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري وقد بعثهما داعيين إلي اليمن ، قال : (يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا) [متفق عليه : خ : الجهاد (٣٠٣٨) ، م : الأشربة : ١٧٣٣)]

وإذا خطب تعقيبا على خطيب سبقه فليراع أدب المجاملة فليشد بمحاسن ما سمع ، وليبين بعدئذ على أساس الأدب الجم والخلق الفاضل ما يبغي بيانه من استدراك وإنكار أو تصويب أو رد للجملة أو موافقا موافقة جزئية أو كلية . . . الخ دون أن يخرج عن خلق الداعية وسمعت الخطيب اللبيب ، مهتديا بقول الله جل ذكره : { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا(٧٠)يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا } [الأحزاب : ٧٠-٧١]

٦- الإلمام بأساليب الإقناع وعوامل التأثير : ومبنى ذلك قوة الحجة وسلامة الاحتجاج وصحة المسلك التعبيري ، والإطلاع على أعراف الناس وعوائدهم ، وليس أرجى ولا أزكى في قوة الإقناع والتأثير من قول الله جل ذكره وقول رسوله ﷺ ، إذ ذاك غاية المرام .

٧- ترتيب العناصر وترابطها : فيبدأ بالأهم فالمهم ، ويراعي التسلسل المنطقي بينها على أن يفضي بعضها إلى بعض ويأخذ بعضها بحجز بعض في تناسق وإحكام ، وهذا يكون في دور الإعداد والتحضير ، وينبغي أن يراعي الخطيب زمن الخطبة فلا يطيل إطالة مملةولا يختصر اختصارا مخلا ! وكانت عامة خطب النبي الكريم ﷺ من المختصر المفيد ، ففي حديث جابر بن سمرة ﷺ قال : (كنت أصلي مع النبي ﷺ فكانت صلاته قصدا ، وخطبته قصدا) [م : الجمعة (٨٦٦) ، د : الصلاة (٩٢٨) ، ت : الجمعة (٥٠٧) ، ن : الجمعة (١٤١٨) ، ماجة : اقامة الصلاة (١١٠٥)] والقصد في كل شئ : الاقتصاد فيه وترك الغلو ، والمراد أنه لم يكن يطيل لئلا يمل الناس .

الجزء الثالث – الخاتمة : وهي ما تذيل بها الخطبة ، ومن أهم ضوابطها :

١- أن يختم بالاستغفار فهو هدى النبي ﷺ .

٢- أن يبرز من خلال الخاتمة أهم جوانب الموضوع في تلخيص موجز بارع ، دون تكرار في اللفظ

٣- أن يراعى كون الخاتمة قصيرة دائما سواء طالت الخطبة أم قصرت .

٤- أن تكون الخاتمة قوية في سبكها ومعانيها ، تهز المشاعر وتبعث على الاتعاظ ولأن المستمع ربما ينسى ما سمعه من طول الخطبة وقد لا يتذكر إلا ما سمعه في الخاتمة لحداثة عهده بها .

٥- يرى بعض الباحثين أن تكون الخاتمة منفصلة عن موضوع الخطبة لكنها موجهة نحو الكلام السابق ، مثل قوله : هذا كلامي فاسمعوا والحكم إليكم فأحكموا .

كيف تعد الخطبة ؟

إعداد الخطبة وصياغتها :

يرتبط نجاح الخطبة وأثرها بحسن إعدادها وتناسق أجزائها وترابط أفكارها ، شأنها في ذلك شأن أي عمل لابد لإنجاحه من إعداد وتهيئة وتزويق ، ولقد كان العرب في جاهليتهم أمة أمية أقرب الناس إلى الخطابة عفو الخاطر وعلى جارى السليقة والبديهة دون الاستعانة بكتابة .

ومما يدل على أهمية الإعداد للخطابة أن الخلفاء كانوا يهتمون باعداد خطبهم اهتماما يليق بها ، كقول عمر ﷺ وهو يحكي طرفا من الأحداث التي مر بها المسلمون عقب وفاة النبي ﷺ وتجمع المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة ، قال : (. . وكنت قد زورت مقالة أعجبتني أردت أن أقدمها بين يدي أبي بكر ، وكنت أداري منه بعض الحد . .) [متفق عليه : خ : الحدود (٦٨٣٠) ، م : الحدود

(١٦٩١)] وفي رواية لمالك : (ما ترك – يعني أبو بكر – من كلمة أعجبتني في رويتي إلا قالها في بديهته) ، والتزويق هنا هو بمعنى التحسين والتهيئة وحسن الإعداد .

ولما بويع لعثمان ﷺ خرج إلى الناس فخطبهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : (أيها الناس ! إن أول مركب صعب ، وإن بعد اليوم أياما ، وإن أعش تأتكم الخطبة على وجهها ، وما كنا خطباء وسيعلّمنا الله) [الطبقات الكبرى لابن سعد ٤٦/٣]

والإعداد للخطابة باعتبار الأحوال التي يكون عليها الخطيب يكون بأحد طريقين :

إما بالإعداد الذهني : سواء بالإطلاع على المراجع وأمهات المصادر ، أو باستحضار النصوص المحفوظة ومعرفة أوجه الاستشهاد بها ، أو بجمع العناصر وترتيبها ، أو بكل ذلك . وهذه الطريقة لا تناسب المبتدئين ، ولا يقتدر عليها إلا المتمرس المفوه من الخطباء ، المتضلع من العلم الشرعي المتمكن من اللسان العربي المتطلع على مجارى الكلام وأساليبه ممن تؤازره الموهبة والمكنة النفسية .

أو بالإعداد الكتابي : وذلك بتدوين المعلومات في قراطيس ثم تنسيقها وترتيبها ثم صياغتها وتحبيرها والتأنق فيها ، وهي طريقة تلائم المبتدئين من الخطباء والوعاظ وعلى المحاضرين على اختلاف بيّن بين مناهج كل من الخطبة والمنبرية والوعظ والمحاضرة . .

والإعداد بالطريقتين : الذهنية والكتابية تمر ولا بد بمراحل ثلاث على الأقل حتى تأتي الخطبة على أبلغ وجوه البيان .

١– مرحلة اختيار الموضوع : وهو من الأهمية بمكان كبير ، فمتى أحسن الخطيب اختيار موضوع خطبته وحقق رغبات المستمعين ووفّى بحاجاتهم وكان نبيها موفّقا في الاختيار حقق الكثير من أغراض الخطابة ومراميها ، واختيار الموضوع من أهم المراحل التي يمر بها الداعية سواء في مجال الخطابة أو الإذاعة أو الصحافة أو غيرها من الوسائل والأساليب .. وبقدر توفيقه في حسن اختيار الموضوع يكون موفقا في حسن العرض وسداد الرأي . ولقد سلف الحديث عن أهم ضوابط الاختيار كالجّدة والوضوح مما تقدم في ضوابط أجزاء الخطبة .

٢– مرحلة جمع الشواهد : وهي : (آيات القرآن العظيم ، ثم ما صح من سنة النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم وسيرته ، ثم أقوال ومواقف السلف الصالح من الصحابة والتابعين والعلماء الأثبات ، والشعر ، والحكم ، والأمثال)

ولا شك أن القرآن العظيم والسنة النبوية الشريفة هما العماد الأول للخطيب فينبغي أن يتضلع منهما حفظاً ودراية وفقهاً واستيعابا كي يكون موفقاً مسدداً . وعليه الاتيان بعد ذلك بالشواهد

الأخرى ، ومما يدل على القيمة الأدبية للشعر والحكم حديث أبي بن كعب ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : (إن من الشعر حكمة) [خ : الأدب (٦١٤٥)] وحديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : (أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد : ألا كل شئ ما خلا الله باطل وكل شئ لا محالة زائل . وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم) [متفق عليه : خ : المناقب (٣٨٤١) ، م : الشعر (٢٢٥٦)]

٣ – مرحلة وضع العناصر وتصنيفها وترتيبها : وتلي مرحلة الجمع ، فعلى الخطيب إذا فرغ من جمع مادة الخطبة أن يقرأ ما جمع قراءة متأنية حتى إذا بلغ في استيعاب ما قرأ درجة تمكنه من الخطابة ، شرع يستخرج العناصر من بين ثنايا الشواهد التي جمعها مستضيئا بما انتهى إليه من سبقه من أهل العلم الثقاة . وبعد أن يستخرج العناصر يبدأ في فرزها وترتيبها مراعياً التسلسل المنطقي ، فمتى أتت العناصر متناسقة مترابطة يُفضي بعضها إلى بعض ويأخذ بعضها بحجز بعض في ترابط واتساق توافر لها أهم عوامل التأثير .

٤– مرحلة الصياغة : الصياغة هي : وضع الكلام وتريب لحديث وإجادة سبكه ، ومن الصياغة تزويق الكلام أي تحسينه وتقويمه ، وتزويده ، وقد يستغني عن الصياغة تغني عن المتمرسون من الخطباء ممن يرتجلون ارتجالا بعد إعداد . وينبغي أن يراعي في الصياغة اختيار الألفاظ السهلة المعبرة ، والأفكار الواضحة النيرة ، والدليل العلمي البيّن ، ووجه الاستلال القريب . . كما يراعي جوانب البلاغة بنوعيها المعاني والبديع وما ينضوي تحت كل من أضرب الكلام ومجاريه الحسان .

ولكل لغة أساليب بلاغية بها تدرك المعاني التعبيرية الجمالية على ما هو معروف في آدابها وأنماطها الأدائية والصوتية . .

هذا – والناس تختلف طبائعهم وقدراتهم من حيث الإعداد للخطابة وسبكها ، فمنهم من يمكث الليالي ذوات العدد وهو يعد ويغير ويمحو ويزوق . . ! ومنهم من هو دون ذلك ، ومنهم من يعد أعدادا ذهنية في دقائق معدودات دون كبير حاجة إلى كتابة وصياغة ، بحسب الخبرة وأهمية الموضوع وخطورة المحفل . . الخ

ثم ومع كثرة الإلقاء والإعداد يستظهر الخطيب جمعا كبيرا من النصوص ويتمرس على قدر غير قليل من فنون الكلام ، وكلما ترقّى في درجات الاستظهار والاستشهاد والتمرس على أساليب الخطبة كلما قلت طلبته إلى الإعداد والصوغ لاسيما إن قوّم ما ألقاه من كافة الوجوه اللغوية والخطابية والفنية والنفسية .

وهمسة نلقيها في آذان الخطباء لاسيما خطب الجمعة ألا يلجأوا إلى الخطب المعدة المطبوعة سلفا وإن كانت لمشاهير الخطباء وفطاحل العلماء لأن اللجوء إليها مع القدرة على الإتيان بمثلها أو بما هو دونها يفقد الخطيب مقدرة الإعداد والابداع والصوغ الذاتي فينقلب مع الأيام كلاً على غيره.. !

وربما تتهيأ مناسبة فيستدعيه الموقف إلى الارتجال فيقع في حرج ، ولأن الخطابة في جوهرها تعبير عن فهم شخصي وطابع ثقافي ينم عن عقل الخطيب وشعوره وأسلوبه فلا بد أن تكون له شخصيته المتميزة عن غيره ، هذا فضلا عما تزخر به الخطب المطبوعة من موضوعات مكررة يتطلع الناس إلى غيرها مما هو أهدى سبيلا وأقوم قيلا .

كيف تلقى الخطبة ؟

أكمل الهدي في الخطابة هديه صلى الله عليه وسلم ، ولننقل في هذا الصدد مما سطره يراع الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى قال : (فصل في هديه ﷺ في خطبته : خطب ﷺ على الأرض وعلى المنبر وعلى البعير وعلى الناقة ، وكان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساكم ويقول بعثت أنا والساعة كهاتين ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى ويقول أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة . وكان لا يخطب خطبة إلا افتتحها بحمد الله ، وأما قول كثير من الفقهاء إنه يُفتتح خطبة الاستسقاء بالاستغفار وخطبة العيدين بالتكبير فليس معهم فيه سنة عن النبي ﷺ البتة وسنته تقتضي خلافه وهو افتتاح جميع الخطب بالحمد لله وهو أحد الوجوه الثلاثة لأصحاب أحمد وهو اختيار شيخنا قدس الله سره . وكان يخطب قائما وفي مراسيل عطاء وغيره أنه كان ﷺ إذا صعد المنبر أقبل بوجهه على الناس ثم قال السلام عليكم قال الشعبي وكان أبو بكر وعمر يفعلان ذلك وكان يختم خطبته بالاستغفار وكان كثيرا ما يخطب بالقرآن وفي صحيح مسلم عن أم هشام بنت حارثة قالت : (ما أخذت { ق والقرآن المجيد } [ق] إلا عن لسان رسول الله ﷺ يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس) [م : الجمعة (٨٧٢)] وذكر أبو داود عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ كان إذا تشهد قال : (الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله أرسله بالحق بشيرا ونذيرا بين يدي

الساعة من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فإنه لا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئا) وقال أبو داود عن يونس أنه سأل ابن شهاب عن تشهد رسول الله ﷺ يوم الجمعة فذكر نحو هذا إلا أنه قال (ومن يعصهما فقد غوى) .

وقال ابن شهاب وبلغنا أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا خطب : (كل ما هو آت قريب لا بعد لما هو آت ولا يعجل الله لعجلة أحد ولا يخف لأمر الناس ما شاء الله لا ما شاء الناس يريد الله شيئا ويريد الناس شيئا ما شاء الله كان ولو كره الناس ولا مبعد لما قرب الله ولا مقرب لما بعد الله ولا يكون شيء إلا بإذن الله) [ابن ماجة : المقدمة (٤٦)]

وكان مدار خطبه ﷺ على حمد الله والثناء عليه بآلائه وأوصاف كماله ومحامده وتعليم قواعد الإسلام وذكر الجنة والنار والمعاد والأمر بتقوى الله وتبيين موارد غضبه ومواقع رضاه فعلى هذا كان مدار خطبه . وكان يقول في خطبه : (أيها الناس إنكم لن تطيقوا أو لن تفعلوا كل ما أمرتم به ولكن سددوا وابشروا) [خ : الرقاق (٦١٠٢) ، د : الصلاة (٩٢٤) واللفظ له]

وكان يخطب في كل وقت بما تقتضيه حاجة المخاطبين ومصلحتهم ولم يكن يخطب خطبة إلا افتتحها بحمد الله ويتشهد فيها بكلمتي الشهادة ويذكر فيها نفسه باسمه العلم ، وثبت عنه أنه قال : (كل خطبة ليس فيها تشهد فهي كاليد الجذماء) [ت : (١١٠٦) وقال حسن صحيح ، د : الأدب (٤٢٠١) ، أحمد : المكثرين (٧٦٧٥)]

ولم يكن له شاويش يخرج بين يديه إذا خرج من حجرته ولم يكن يلبس لباس الخطباء اليوم لا طرحة ولا زيقا واسعا ، وكان منبره ثلاث درجات فإذا استوى عليه واستقبل الناس أخذ المؤذن في الأذان فقط ولم يقل شيئا قبله ولا بعده فإذا أخذ في الخطبة لم يرفع أحد صوته بشيء البتة لا مؤذن ولا غيره .

وكان إذا قام يخطب أخذ عصا فتوكأ عليها وهو على المنبر كذا ذكره عنه أبو داود عن ابن شهاب وكان الخلفاء الثلاثة بعده يفعلون ذلك وكان أحيانا يتوكأ على قوس ولم يحفظ عنه أنه توكأ على سيف وكثير من الجهلة يظن أنه كان يمسك السيف على المنبر إشارة إلى أن الدين إنما قام بالسيف وهذا جهل قبيح من وجهين أحدهما أن المحفوظ أنه ﷺ توكأ على ا لعصا وعلى القوس الثاني أن الدين إنما قام بالوحي وأما السيف فلمحق أهل الضلال والشرك ومدينة النبي ﷺ التي كان يخطب فيها إنما فتحت بالقرآن ولم تفتح بالسيف .

وكان إذا عرض له في خطبته عارض اشتغل به ثم رجع إلى خطبته وكان يخطب فجاء الحسن والحسين يعثران في قميصين أحمرين فقطع كلامه فنزل فحملهما ثم عاد إلى منبره ثم قال صدق الله العظيم { إنما أموالكم وأولادكم فتنة } [الأنفال ٢٨] رأيت هذين يعثران في قميصيهما فلم أصبر حتى قطعت كلامي فحملتهما . [ت : المناب (٣٧٧٤) وقال حسن غريب ، س : الجمعة (١٤١٣)] وجاء سليك الغطفاني وهو يخطب فجلس فقال له : (قم يا سليك فاركع ركعتين وتجوز فيهما) ثم قال وهو على المنبر : (إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين وليتجوز فيهما) [م : الجمعة (٨٧٥)] وكان يقصر خطبته أحيانا ويطيلها أحيانا بحسب حاجة الناس وكانت خطبته العارضة أطول من خطبته الراتبة وكان يخطب النساء على حدة في الأعياد ويحرضهن على الصدقة والله أعلم) [زاد المعاد ١٨٦/١- ١٩٩]

ثم إن لكل خطيب طريقته في القاء خطبته ، مما هو جزء من شخصيته ومكنون فكره وتوجهه ، وتتضافر وتتلاقى أمور عدة لتحقق جودة الإلقاء كقوة الصوت ، والقدرة على تكييفه أثناء الخطاب بحسب ما تقتضيه مسالك الكلام ، وكاستخدام الإشارة المرئية ، والإيماءات الإشارية التي يلحظها المستمع الحصيف فيدرك مغزاها ويتفاعل مع الخطيب فيما يقول ويهدف ، ولعل مما يبرز معالم الحديث عن كيفية إلقاء الخطبة الحديث عن صفات الخطيب بشقيها الفطرية والكسبية وهو تقسيم مبني على أن الخطابة موهبة وعلم ، فالموهبة ملكة نفسيه ومقدرة شخصية تتجلى فيما يسمونه بالصفات الفطرية أي التي يفطر عليها المرء ويجبل وتكون تعبيرا عن السليقة والبديهة ، والعلم هو ما يكتسبه الخطيب باطلاعه الغزير وتمرسه الكثير . ويمكن الإجابة على السؤال الآنف كيف تلقى الخطبة من خلال صفات الخطيب المستقاة مما سبق وتتلخص في الآتي :

صفات الخطيب الفطرية :

وهي التي يفطر عليها المرء ويُجبل ، فلا يكون سبيلها التحصيل والاكتساب بل الصقل والتهذيب والممارسة ، ومنها :

١- جهارة الصوت :

بحيث يكون قوياً مسموعا مستساغا ، تتقبله الآذان وتقبل عليه النفوس ، والأوفق أن يبدأ خطبته بصوت يناسب المقام ثم يرفعه رويدا رويداً كلما أوغل في الخطبة كما في حديث جابر ﷺ قال : (كانت خطبة النبي ﷺ يوم الجمعة : يحمد الله ثم يثني عليه ثم يقول اثر ذلك وقد علا صوته بعثت أنا والساعة كهاتين ...) [م : الجمعة (٨٦٧) ، س : صلاة العيدين (١٥٧٨) ، ماجة : المقدمة (٤٥)]

والصوت القوي الجهوري يؤدي من الأغراض الخطابية ما لا يؤديه الصوت الضعيف ، وقد يترتب على الصوت القوي مواقف حاسمة كما في قصة العباس ﷺ عنه شهيرة يوم حنين حين وقف ينادي الذين انحسروا عن رسول الله ﷺ أمام هجوم العدّو .. : (أين أصحاب السمرة ؟) قال فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها فقالوا يا لبيك يا لبيك قال فاقتتلوا والكفار ..) [م : ١٣٩٨/٣]

والخطيب البارع يكيّف صوته حسب الظروف التي تحيط به وعدد المستمعين وسعة المكان ومكانة الموضوع وخطورته ، فيرفع صوته تارة ويخفضه تارة بحسب ذلك ويراعي الوقفات والسكتات كما يراعي نبرة الصوت ارتفاعا وانخفاضا ، والأسلوب الخطابي تنويعا وتجدبداً ، فنبرة الاستفهام غير نبرة التعجب وغير نبرة التأكيد .. وهكذا

ولعل من الأمثلة على ذلك حديث عبدا لله به عمرو رضي الله عنهما قال : تخلف رسول الله ﷺ في سفر سافرناه فأدركنا وقد أرهقنا الصلاة صلاة العصر ، ونحن نتوضأ فجعلنا نمسح على أرجلنا فنادى بأعلى صوته : (ويل للأعقاب من النار) مرتين أو ثلاثا [متفق عليه : خ : العلم (٦٠) ، م : الطهارة (٢٤١)]

٢- اللسن والفصاحة :

لا تتأتى الفصاحة إلا بأمرين : أحدهما عذوبة الحديث وسلامة المنطق وذلك باختيار التعبير المناسب المؤثر الواضح البيّن بحيث يجري الكلام على لسانه جريان الماء في الجدول بغير تكلف ولا لغب . الثاني : السلامة من عيوب النطق والكلام كاللجلجة والفأفأة واللثغ وتعثر النطق ، فمن كان حديثه شيقا سهلا ممتعا ممتنعا صحيح المخارج عذب اللفظ حلو الجرس لا تكلف فيه ولا عسر كان لسنا فصيحا .

وقد ذكر اللغوين من عيوب النطق والكلام : اللجلجة والفأفأة ، واللثغ ، وتعثر النطق ، فمن كان حديثه سهلا شيقا عذبا ممتعا ممتنعا صحيح المخارج حلو الجرس لا تكلف فيه ولا عسر كان لسنا فصيحا ، لذا قالوا : الفصيح من لا يعتريه ثقل في اللسان ولا تكلف في البيان ، وقالوا : البلاغة أن لا يبطئ ولا يخطئ !

ومن الحروف التي تدخلها اللثغة : القاف ، والسين ، واللام ، والراء . فالقاف بنطقها طاءً كنطق قال : طال ! والسين بنطقها ثاءً كنطق سمرة : ثمرة ، واللام بنطقها ياءً كنطق لؤلؤ : يؤيؤ ، والراء بنطقها ياءً أو غينا أو ذاءً أو ظاءً كنطق رجل : يجل ! ونطق الرواية : غواية !

وكان بعض الأذكياء ممن ابتلي باللثغ في الراء يجتنب الاتيان بلفظ فيه راء ويستبدله بلفظ مرادف ، كاستبدال البُر بلفظ : الحنطة أو القمح . قال الجاحظ : اللثغة في الراء تكون بالغين والذال والياء ، والغين أقلها قبحا وأوجدها في كبار الناس وبلغائهم وأشرافهم وعلمائهم . [البيان والتبيين ١٥/١]

وإمام الفصحاء وسيد البلغاء رسول الله ﷺ ، تقول عائشة رضي الله عنها : (كان كلام النبي ﷺ فصلا، يفهمه كل من سمعه) [د : الأدب (٤١٩٩) ، ت : المناقب (٣٦٣٩) وقال حسن صحيح] وفي رواية أخرى تقول رضي الله عنها :(إنما كان رسول الله ﷺ يحدث حديثا لوعده العاد لأحصاه) [متفق عليه : خ : المناقب (٣٥٦٨) ، م : الزهد (٢٤٩٣)] فلقد جمعت لرسول الله ﷺ جوامع الكلم وملك زمامها وهو القائل :(بعثت بجوامع الكلم) [متفق عليه : خ : الجهاد والسير (٢٩٧٧) ، م : المساجد (٥٢٣)] وفي رواية (أعطيت مفاتيح الكلم) [خ : التعبير (٦٩٩٨)]

وجوامع الكلم مفردها : الكلمة الجامعة ، وهي : الموجزة لفظا المتسعة معنى ، وهذا يشمل القرآن العظيم والسنة ، لأن كل منها يقع فيها المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة .

وقد حاول كثير من أئمة البلاغة والأدب وصف هديه ﷺ في خطبه وكلامه وفصاحته فلم يقدروا الا على وصف جوانب من ذلك ، كقول الإمام ابن القيم : (كان ﷺ أفصح خلق الله وأعذبهم كلاما ، وأسرعهم أداءاً ، وأحلاهم منطقا ، حتى ان كلامه ليأخذ بمجامع القلوب ، ويسبي الأرواح ، ويشهد له بذلك أعداؤه ، وكان إذا تكلم بكلام مفصّل مبّين يعده العاد ، ليس بهذ مسرع لا يحفظ ، ولا منقطع ، تخلله السكتات بين أفراد الكلام ، بل هديه فيه أكمل الهدي ، قالت عائشة : (ما كان رسول الله ﷺ يسرد سردكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام لين فصل يحفظه من جلس إليه) [م : الفضائل (٢٤٩٣) ، ت المناقب (٣٦٤٣) وقال حسن صحيح ، د : العلم (٣١٧٠) ، أحمد : الأنصار (٢٥٠١٢)]

وكان كثيرا ما يعيد الكلام ثلاثا ليعقل عنه ، وكان إذا سلم سلم ثلاثا ، وكان طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة ، يفتتح كلامه ويختتمه بأشداقه ، ويتكلم بجوامع الكلم ، فصل لا فضول ولا تقصير ، وكان لا يتكلم فيما لا يعنيه ، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه ، وإذا كره الشئ عرف في وجهه ، ولم يكن فاحشا ولا متفحشا ولا صخابا ، وكان جل ضحكه التبسم ، بل كله التبسم ! فكان نهاية ضحكه أن تبدو نواجذه) [زاد المعاد ١٨٢/١]

ومن المعيب في الخطيب التشدق والتفاصح وإظهار المقدرة الخطابية إما جدالا في الباطل كما في قوله تعالى :{ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ(٢٠٤) } [البقرة : ٢٠٤] وإما على وجه الرياء ، كما في قول الله تعالى في وصف المنافقين : { وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ } [المنافقون : ٤]

وفي حديث النبي ﷺ : (إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة ، أحاسنكم أخلاقا ، وإن من أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلسا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون) [ت : البر والصلة (٢٠١٨) وقا حسن غريب] والمتشدق هو المتطاول على الناس في الكلام وقيل الذي يتكلم من طرف شدقه تكبرا وتطاولا ، وقوله (والمتفيهقون) أي : المتكبرون .

ومن المعيب – أيضا – الوقوع في اللحن ، وقد خافه كبار الخطباء والبلغاء والخلفاء ، قال الأصمعي : قيل لعبد الملك بن مروان : أسرع إليك الشيب ! فقال : وكيف لا وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة مرة أو مرتين ، وقيل له أسرع إليك الشيب ! قال : وتنسى ارتقاء المنبر ومخافة اللحن .

٣ – سرعة البديهة :

والبديهة والبديهي : هو الذي لا يتوقف حصوله على نظر وكسب ، سواء احتاج إلى شئ آخر من حدس أو تجربة أو غير ذلك أو لم يحتج ..) [الجرجاني : التعريفات ص ٦٣] ومن البديهة : النباهة والذكاء والفطنة والكياسة واللباقة كلها ألفاظ مترادفة متقاربة ، وكل هذه الصفات مما ينبغي أن تتوافر في الخطيب كي يكون خطابه مؤثرا .

٤– حرارة العاطفة :

ويقصد بها الانفعال المحمود ، وهو تعبير لاشعوري يعكس قوة الخطيب ومدى إيمانه بالفكرة التي يدعوا إليها أو يلاحي عنها ، وفي حديث جابر ﷺ قال : (كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه ، حتى كأنه منذر جيش يقول صحبكم ومساكم ، ويقول : بعثت أنا والساعة كهاتين ويقرن اصبعيه السبابة والوسطى ويقول : أما بعد : فان خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة) [م : الجمعة (٨٦٧) ، ماجة : المقدمة (٤٥) ، أحمد : المكثرين (١٣٨١٥)] قال النووي رحمه الله : يستدل به على أن الخطيب يستحب له أن يفخم أمر الخطبة ويرفع صوته ويجزل كلامه ، ويكون مطبقا للفعل الذي يتكلم فيه من ترغيب أو ترهيب ، ولعل اشتداد غضبه كان عند إنذاره أمرا عظيما وتحديده خطبا جسيما [المنهاج ٦ / ٤٠٣]

وانفعال الخطيب إنما ينبغي أن يكون منبعثا من قوة إيمانه وصدق لهجته وتمام إخلاصه ، وما يخرج من القلب يلج القلب ، وكما قالوا : إن النائحة الثكلى ليست كالمستأجرة !

٥– الاستعداد النفسي :

الخطابة تعبير عن النفس وأحاسيسها ومشاعرها ! والناس يتفاوتون في القدرة عن التعبير عما تكنه النفس ، بحسب مواهبهم الخطابية ومداركهم العقلية ومشاعرهم الوجدانية ، فأقواهم عارضة أكثرهم بلاغة ! لذا قال البلاغيون : أصل البلاغة الطبع . والخطيب البارع هو من يخطب في يسر وسلاسة ،

فلا يجد عناء ولا تكلفا ولا مشقة ، والاستعداد النفسي يرتبط بالموهبة الفكرية والملكة اللسانية وقوة المنطق ، ويتحقق بتضافر أمرين :

أولهما : ترك الاستعانة وهي إما قولية كالإكثار من قوله (يعني) أو (اسمعوا) أو (أفهمتم) أو (أسمعتم) ونحو ذلك مما هو معيب ممجوج . وإما فعلية كالعبث باللحية وفرقعة الأصابع أو الإكثار من التنحنح ..

قال البلاغيون : (تلخيص المعاني رفق ، والاستعانة بالغريب عجز ، والتشادق من غير أهل البادية بُغض ، والنظر في عيون الناس عيّ ، ومسّ اللحية هُلك ، والخروج مما بُني عليه أول الكلام إسهاب) [البيان والتبيين ١ / ٤٤]

الأمر الثاني : الخلو من مظاهر الحصر والعي ، وهي كثيرة منها : تصبب العرق أثناء الخطاب وبرودة الأطراف وجفاف الحلق وسرعة ضربات القلب أو الخفقان وبح الصوت . والحصر كما يقول علماء النفس أمر طبيعي في الأغلب فلا يجفلن منه الخطيب المبتدئ ، إذ يعرض لجل الناس ولا يمكث إلا ثوان ثم يزول مع مواصلة الخطابة ، وإنما يصاب به من الناس من يميلون بالطبع إلى الانعزال والانطواء والتقوقع .

وعلاج الحصر والعيّ يكمن في ثلاثة أمور :

أولها : أن يتسم الخطيب بروح المشاركة والمداعبة ، ويحاول جاهدا مغالبة طبعه الانطوائي ، وكثير من الطباع تتغير وتتحور بمغالبة النفس المستمرة وبقوة الإرادة والعزيمة ، فلا يترك مجالا اجتماعيا إلا ويضرب فيه بسهم حتى يزول الحاجز النفسي الوهمي بينه وبين الناس ، فإن النفس تجنح إلى الإلف والعادة فإذا تعودت الحديث والمرح اعتادته ، وإذا عودت الصمت الدائم والصرامة في كل الأحوال اعتادتها أيضا . الثاني : الممارسة والتدرب والمران ، فإن المرء لا يولد خطيبا وإنما تولد معه موهبة الخطابة وعليه استحثاثها وصقلها وتنميتها بكثرة الممارسة والتدرب والتجربة ، وقد يتعثر الخطيب في بداية حياته الخطابية ، ثم ومع الأيام يتمرس ويتعود ويشتد عوده وتقوى عارضته وينصع بيانه ... فيصبح مع الأيام خطيبا مصقعا مفوها لا يشق له غابر ، ولا يكشف له عوار ! الثالث : وهومن انجع العلاج إنها مداومة ذكر الله جل وعلا واستغفاره سبحانه ، قال عز وجل : { الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ(٢٨)} [الرعد]

هذا ملخص الصفات الفطرية التي هي بمثابة الموهبة والملكة والبديهة . ولا بد أن تؤازرها الصفات الكسبية .

صفات الخطيب الكسبية :

وهي الصفات التي سبيلها الممارسة والخبرة والتعلم والتعود ، ولا تقل أهمية عن الصفات الفطرية ، فكلهما كجناحي طائر لا يرتفع إلا بهما ! ومن أهم ما ينبغي أن يتحلى به الخطيب من الصفات الكسبية :

١- الإخلاص :

فهو بيت القصيد ، ولقد فاز المخلصون بسعادة الأبد في الدار الآخرة كما حازوا القبول في الدنيا فمن خطب الناس ولم همه السمعة ولا الرياء ولا أن يقال له خطيب . ثم لم يكن ليبتغي عرضا زائلا ولا حطاما فانيا ، كان إن شاء الله من أهل الإخلاص ، قال النبي ﷺ : (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى) [متفق عليه : خ بدء الخلق (١) ، م : الإمارة (١٩٠٧)]

٢- العلم :

بأن يكون واسع الإطلاع ، وسعة اطّلاع الخطيب ومعرفته بدقائق موضوع خطبته هي الذخيرة والمادة التي يصوغها ويعرضها وتظهر في ذلك براعته .

والعلم علمان شرعي ومدني ، فالشرعي يعتمد على الكتاب والسنة وفهم السلف لهما وهذا العلم هو المراد إذا أطلق ، والعلم الشرعي مادة الخطيب العلمية وعماده بعد الله تعالى ، وينبغي أن يتضلع منه ويتمكن قبل أن يعتلي المنبر ! فإن الخطيب بمنزلة المعلم والمرشد فإذا لم يف بمسالك هذا العلم الشريف لم يتقن صنعة الخطابة الوعظية وربما كان خطأه أكثر من صوابه ، ولم يترل الشرع بدقائقه وتفاصيله إلا ليبيّنه النبي ﷺ للناس فيعوه حق الوعي ويستمسكوا به ، قال تعالى : { وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ(٤٤) } [النحل]

فإذا كان الخطيب جهولا بمعطيات النص الشرعي عاجزا عن استثماره واستخراج دلالاته واستيعاب مقاصده ومراميه افسد ما يبتغي إصلاحه ، وقد ورد على لسان الشرع التحذير من القول على الله بغير علم قال تعالى : { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ(٣٣) } [الأعراف]
وقد ذهب جمع من علماء التفسير إلى أن المحرمات المذكورة في الآية الشريفة سيقت على وجه التدرج من الأدنى إلى الأعلى فيكون القول على الله بغير علم أعظمها جرما وأشنعها حالا ..

ومما يدل على أهمية العلم الشرعي في حياة الخطيب وأنه ينبغي أن يكون دقيقا في تعبيره متحريا الصواب في موضوع خطبته حديث عدي بن حاتم أن رجلا خطب عند النبي ﷺ فقال : من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى . فقال رسول الله ﷺ : (بئس الخطيب أنت ، قل ومن

يعص الله ورسوله فقد غوى) [م : الجمعة (٨٧٠) ، د : الصلاة (٩٢٦) ، ن : النكاح (٣٢٧٩) ، أحمد : الكوفيين (١٧٥٣٦)]

وأما العلم المدني فعماده التجريب والدليل العلمي ، ولا بد أن يأخذ الخطيب من كل علم من العلوم المدنية والكونية بطرف ! وقد تنوعت العلوم المدنية اليوم وانتشرت فعصرنا عصر الثورة العلمية كما يقول المثقفون : والعلوم التخصصية المتاحة كثيرة كالطب بفروعه المتعددة ، والزراعة ، والهندسة بأنواعها ، والفلك ، والكونيات ، والعلوم الإنسانية ، وغيرها كثير ..

٣- الصدق في القول والعمل والقصد : وحسبنا دلالة على فضل الصدق وأهميته ورفعته أنه حلية أهل الإيمان والتقى ، وأن ضده سمعة أهل النفاق والشقاق !

وإن للصدق لتأثيرا عجيبا في سلوك الإنسان وسمته وهدية ودله ! وانك لتكاد تعرف الخطيب أو الواعظ الصادق من غيره ، وصدق العمل هو بيت القصيد فالكلام كثير والمواعظ أكثر .. والناس في عصرنا لا يحتاجون إلى الخطب الرنانة والمواعظ الطنانة بقدر حاجتهم إلى العمل الصادق والقدوة الحسنة والامتثال الحي .. وفي التنزيل الحكيم : { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ(٢)كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ(٣)} [الصف]

وقال ﷺ (يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه في النار فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار عليه فيقولون أي فلان ما شأنك أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر قال كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه) [متفق عليه : خ : بدء الخلق (٣٢٦٧) ، م : الزهد (٢٩٨٩)]

وفي النصين الشريفين الوعيد الشديد لمن خالف قوله فعله ، وتناقضت علانيته وسره ، والخطباء والوعاظ والمربون هم أولى الناس بالصدق في الالتزام بما يقولون ويعظون ويدرسون .

٤- معرفة نفسية المخاطبين وطباعهم وأخلاقهم :

وهذه من الأمور الأساسية للخطيب ، فقد يكون الخطيب عالما متبحرا لا كنه لا يعي كيف يوصل هذا الخير الذي يحمله بين جوانحه إلى النا س وما هي طرائق التبليغ المرتبطة بمعرفة أحوال المستمعين !

وقد ورد في نصوص الشرع التوجيه بخصائص فئات المجتمع كالشباب والشيوخ والنساء والأطفال ، فمما جاء في الشباب قوله ﷺ : (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم بإنه له وجاء) [متفق عليه : خ : النكاح (٥٠٦٦) ، م : النكاح (١٤٠٠)] فالخطاب في الحديث الشريف وقع للشباب والشباب كل من بلغ الرشد ولم يجاوز الثلاثين ، لأنهم مظنة شهوة الزواج فلا ينفكون عنها غالبا كما قال الإمام النووي في المنهاج [١٨٣/٩]

وقال في الشيوخ : (قلب الشيخ شاب على حب اثنين : حب العيش والمال) [متفق عليه : خ : الرقاق (٦٤٢٠) ، م : (١٠٤٦)] وفيه بيان لطبيعة البشر المحبة للمال وطول العمر وحب البقاء مركوز في الفطرة وأمر جامع لكل فئات المجتمع . وتأمل قوله ﷺ : (اقتلوا شيوخ المشركين واستحييوا شرخهم) [د : الجها (٢٢٩٦) ، ت : السير (١٥٠٩) ، أحمد : (١٩٢٨٦)] والشرخ هم الشباب الذين لم ينبتوا ، والحكمة في قتل الشيوخ أن الشيخ لا يكاد يسلم ، والشباب يسلم للين عريكته ، فكأنه أقرب إلى الإسلام من الشيخ . وقد لخص ابن رشد بعض أهل الفلسفة والمنطق ما يميل إليه أصناف المخاطبين كالشباب والشيوخ ، وهما أغلب فئات المستمعين قال : من أخلاق الشباب (وهم ما بين سن ١٨ – ٣٥) أنهم تغلب عليهم الشهوات لاسيما شهوة النكاح ، وهم سريعو الغضب والرضا ، ومحبون للكرامة فلا يحتملون تجريحا ، يصدقون القول سريعا لقلة خبرتهم ، يسهل خداعهم واغترارهم لأن من شأنهم التصديق من غير دليل أو بدليل ضعيف ، يغلب عليهم الحياء والخجل ، يقدمون الجميل على النافع ويهتمون بالمظاهر أكثر من الحقائق . يبالغون في الحب أو البغض ، يميلون إلى المزح والهزل والمداعبة .

وأما الشيوخ (وهم ما بين سن ٣٥ –٦٠) فمن أخلاقهم وطباعهم : أنهم لا يكترثون بحمد ولا ذم لأن قصدهم الحقائق . لا يجزمون بشيء البتة ويقرنون كلامهم بلعل وعسى ! لا يغالون في الحب ولا في البغض بل أمرهم وسط . وهذا ما يسمى بـــ (النضج الانفعالي) الذي يتحلى به الشيوخ ، يؤثرون النافع على الجميل . وهم أطول صبرا وأمضى عزما . لا يهزلون كثيرا ولا يميلون إلى الضحك إلا نادرا . وأما الكهول فهم مزيج بين أخلاق الشباب والشيوخ . [تلخيص الخطابة لابن رشد]

قال الشيخ علي محفوظ في فن الخطابة : (على الخطيب أن يراعي الأعمار في خطابه مع شاب فتيّ السن وكهل تام القوة وشيخ وقور مهيب ، فإن لكل سن نزعة خاصة وأخلاق خاصة وأحوالا تستدعي ما بناسبها من فنون الكلام ، وبذلك يكون حكيما يضع الشيء في محله ويداوي كل علة بدوائها) ثم ذكر أنماطا من أخلاق وطباع فئات المجتمع ، قال : (وقد غلب على الأمراء والوزراء والحكام عظمة السلطان وترفع الإمارة والأنفة وإباء الطبع وعلّو الهمة وتمام المروءة إلا أنهم يظهر فيهم العجب والخيلاء ويكثر بينهم التكاثر والتفاخر بالمال والأتباع ، ويحبون الإطراء ويستميلهم الخضوع والثناء ، ويأبون قبول التأديب ولا ينقادون إلى استماع النصح بسهولة ، فلا بد لهم من المهارة في التلطف بهم واللين معهم . وطبع الأغنياء غالبا على التيه والصلف والسير وراء الهوى والشهوة ، تبطرهم الكرامة ويطغيهم المال والجاه ، ويشغلهم الحذر والحرص على الدنيا عند الاستعداد للموت وما بعد الموت ، يترفعون على الفقراء ويستعظمون على من دونهم ، يتكلفون طباع السادة وقد لا يقفون عند حد الاعتدال في المعاملة لاسيما حديثو العهد منهم بالنعمة .

وأما العلماء والأدباء ففيهم كرم الأخلاق ولين العريكة وحسن السيرة وسلامة الأعراض وعدم الشره في عرض الحياة الدنيا ، وقلة الطمع في الحطام الفاني ، يرتاحون إلى حسن السمعة وجميل الأحدوثة ، ويحبون التوقير والتعظيم ويميلون إلى النعوت الدالة على التفرد بالفضل والتفوق في العلم والأدب . [فن الخطابة – ص]

٣– استعمال الإشارة :

الإشارة لغة منظورة هي كما تكون باليدين والأنامل تكون كذلك بالعينين والحواجب والرأس ، ولكل أمة فهم معين للغة والإشارة ، والإشارة قد تؤدي من المعاني ما لا يؤديه اللسان ، ولهذا قالوا : رب إشارة أبلغ من عبارة !

وأما مشروعيتها ففعله ﷺ ، فلقد كان يشير بيده ، ومن الأمثلة على ذلك ما أخرجه البخاري في كتاب العلم ، قال : (باب من أجاب الفتا بإشارة اليد والرأس) ثم ساق حديث ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ سئل في حجته فقال – يعني السائل – ذبحت قبل أن أرمي (فأومأ بيده قال : ولا حرج) قال حلقت قبل أن أذبح ، قال : (فأومأ بيده قال ولا حرج) [متفق عليه : خ : العلم (٨٤) ، م : الحج : (١٣٠٧)]

ومن الأمثلة العملية – أيضا – قوله ﷺ (بعثت أنا والساعة كهاتين وقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى) [متفق عليه : خ : (٥٣٠١) ، م : الفتن (٢٩٥٠)]

وقوله ﷺ : (يقبض العلم ويظهر الجهل والفتن ويكثر الهرج) قيل يا رسول وما الهرج ؟ قال : (هكذا بيده فحرّفها كأنه يريد القتل) [متفق عليه : خ : العلم (٨٥) ، م : العلم (١٥٧)]

وقوله ﷺ : (أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا) وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيئا . [متفق عليه : خ : الطلاق (٥٣٠٤) واللفظ له ، م : الزهد والرقائق (٢٩٨٣)]

وقوله ﷺ : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) ثم شبك بين اصابعه . [متفق عليه : خ : الصلاة (٤٨١) ، م : البر والصلة (٢٥٨٥)]

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما : (أن رسول الله ﷺ ذكر رمضان فضرب بيديه فقال الشهر هكذا وهكذا وهكذا ثم عقد إبهامه في الثالثة فصوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن أغمي عليكم فاقدروا له ثلاثين) و حدثنا ابن نمير حدثنا أبي حدثنا عبيد الله بهذا الإسناد وقال : (فإن غم عليكم فاقدروا ثلاثين) نحو حديث أبي أسامة و حدثنا عبيد الله بن سعيد حدثنا يحيى بن سعيد عن عبيد الله بهذا الإسناد وقال ذكر رسول الله ﷺ رمضان فقال : (الشهر تسع وعشرون الشهر هكذا وهكذا وهكذا وقال فاقدروا له ولم يقل ثلاثين) [متفق عليه : خ : الصوم (١٩٠٠) ، م : الصيام (١٠٨٠) واللفظ له]

وقوله ﷺ : (.. وكانت امرأة ترضع ابنا لها من بني إسرائيل ، فمر بها رجل راكب ذو شارة ، فقالت : اللهم اجعل ابني مثله ، فترك ثديها وأقبل على الراكب فقال : اللهم لا تجعلني مثله ! ثم أقبل على ثديها يمصه .) قال أبو هريرة : كأني أنظر إلى النبي ﷺ يمص اصبعه ..) [متفق عليه : خ : أحاديث الأنبياء (٣٤٣٦) ، م : البر والصلة (٢٥٥٠)]

وينبغي عدم الإكثار من الإشارة ، بل التوسط أعدل الأحوال ، وفي حديث عمارة بن رويبة ﷺ قال : (لقد رأيت رسول الله ﷺ ما يزيد على أن يقول بيده هكذا وأشار بأصبعه المسبحة) [م : الجمعة (٨٧٤) ، ت : الجمعة (٤٧٣) ، ن : الجمعة (١٤١٢) ، د : الصلاة (٩٣٠) ، أحمد : الشاميين (١٦٥٨٧)]

والإشارة كما تكون باليد والأصابع تكون أيضا بالعين والرأس كما مر معنا قبل قليل ، ومما يذكرهالحذاق في اشارات العين : (أن العين المفتوحة تمثل الغيظ أو الخوف أو الإعجاب ، والعين المغلقة تشير إلى التواضع أو البغضاء ، والنظر الشزر يترجم عن الاحتقار والاستهانة ، والعين المتحركة يمينا وشمالا تنبئ عن الرياء والاشمئزاز ، والعين المنطلقة إلى السماء ترمز إلى الدعاء ، والنظر إلى الأرض تعبر عن التأثر والخشوع والحياء ، والعين المستقرة في نظرتها تفسح عن الشدة والثبات والرجاء ، والعين اللامعة ترجمان عن الظفر) [الدعوة الإسلامية والإعلام الديني د . عبد الله شحاتة ص ٢٦]

وجملة القول : إن لكل طبقة من الناس طبعا وأخلاقا وعادات وأحوالا تميزهم على اختلاف وظائفهم وصناعاتهم ومذاهبهم وأوطانهم لا بد للخطيب الاجتماعي من ملاحظتها ، وعلى مقدرا هذه الملاحظة تكون مكانته في النفوس ونجاحه في مهنته

٤ – حسن الهيئة والسمت : ويتحقق ذلك بأمور نستقيها من هدي النبي ﷺ :

أ / أن يخطب قائما ففي التنزيل الحكيم : { وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ اللَّهْوِ وَمِنْ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(١١) } [الجمعة : ١١] وقال جابر بن سمرة ﷺ : (كان ﷺ يخطب قائما ثم يجلس ثم يقوم فيخطب قائما ، قال فمن حدثك أنه كان يخطب جالسا فقد كذب فقد صليت معه أكثر من ألفي صلاة !) [م : الجمعة (٨٦٢) ، د : الصلاة (٩٢٢) ، أحمد : البصريين (١٩٩١٧)] والقيام في الخطبة أوقع في النفس وأسمع لمن بعد مجلسه ، ولأنه يجتمع مع السماع المشاهدة ، فقد لا يرى الخطيبَ الجالس من هو في مؤخر المجلس أو المسجد ، ولهذا يشرع أن يعتلي الخطيب نشزا من الأرض إن لم يجد منبرا ليشاهده الناس .

بـــ / الخطبة على المنبر ولا سيما يوم الجمعة : وفي السنة أنه ﷺ قال لامرأة من الأنصار (مري غلامك النجار أن يعمل لي أعوادا أجلس عليهن إذا كلمت الناس) فأمرته فعملها من طرفاء الغابة ، ثم جاء بها فأرسلت بها إلى رسول الله ﷺ فأمر بها فوضعت ها هنا ثم رأيت رسول الله ﷺ عليها وكبر

وهو عليها ثم ركع وهو عليها ثم نزل القهقرى فسجد في أصل المنبر ثم عاد ، فلما فرغ أقبل على الناس فقال : (أيها الناس إنما صنعت هذا لتأتموا ولتعلموا صلاتي) [متفق عليه : خ : الجمعة (٩١٧) ، م : المساجد (٥٤٤)]

جـــ / حسن المظهر : على الخطيب أن يتهيأ تهيأ حسنا بما يليق ومقام الخطبة ، فيرتدي أجود ثيابه ، وفي هذا حديث أبي الأحوص عن أبيه قال : أتيت النبي ﷺ في ثوب دون فقال : (ألك مال) ؟ قالت نعم . قال : (من أي المال) ؟ قلت قد آتاني الله من الإبل والغنم والخيل والرقيق . قال : (فإذا آتاك الله مالا فلير أثر نعمته عليك وكرامته) [د : اللباس (٣٥٤١) ، ن : الزينة (٥٢٢٣ –٥٢٢٤) ، أحمد : المكيين (١٥٣٢٣)]

وفي حديث ﷺ عن النبي ﷺ : (إن الله جميل يحب الجمال) [م : الإيمان (٩١) ، ت : البر والصلة (١٩٩٨) ، أحمد : المكثرين (٣٦٠٠)]

وفي حديث البراء ﷺ قال : (كان رسول الله ﷺ مربوعا [يعني : ليس بالطويل ولا بالقصير] بعيد ما بين المنكبين له شعر يبلغ شحمة أذنيه ، رأيته في حلة حمراء ، لم أر شيئا قط أحسن منه) [متفق عليه : خ : المناقب (٣٥٥١) ، م : الفضائل (٢٣٣٧)]

وفي رواية الصحيحين : (ما رأيت أحدا أحسن في حلة حمراء من النبي ﷺ قال بعض أصحابي عن مالك أن جمته لتضرب قريبا من منكبيه) [متفق عليه : خ : اللباس (٥٩٠١) ، م : الفضائل (٢٣٣٧)]

وفي حديث أبي رمثة ﷺ قال : (رأيت النبي ﷺ يخطب وعليه بردان أخضران) [د : اللباس (٣٥٤٣) ، ت : الأدب (٢٨١٢) وقال حسن غريب ، س : صلاة العيدين (١٥٧٢) ، أحمد : المكثرين (٦٨١٤)]

هذا بعض ما ورد في ضرورة وأهمية الاعتناء بالمظهر والهيئة من أناقة وتشذيب وأن ذلك نمط إسلامي يلتزمه المسلم في حياته العامة والخاصة ، لاسيما في المناسبات كالخطبة ونحوها دون غلو ولا تهاون .

ومن العناية بالمظهر – أيضا – الاعتناء بلباس التقوى في الأقوال والأفعال ، فيعفي لحيته إتباعا لسنة النبي ﷺ ويحف شواربه بأن يأخذ مها ويقلم أظافره ويستاك ويتطيب .. إلى غير ذلك من سنن الفطرة ومن تطابق قوله وفعله وتناسب سمته وهيئته صار له من القبول في القلوب بقدر إخلاصه وصدقه ورفعه الله عز وجل بذلك درجات في الدنيا والآخرة .

٥– الشرف والفضل :

على الخطيب أن يثبت فضيلة نفسه ضمنا ، لأن الناس لا تتأثر ولا تأخذ إلا عمن اتسم بالفضل والألفة أو التفوق أو المعرفة ، وكل هذه الخصال لها ارتباط من جهة تحققها ، بالظروف المحيطة بالخطيب من الكمان والزمان ونمط اللغة والعرق والعرف ، ومما يستدل على أثر الشرف والفضل قول

نوح عليه السلام لقومه :{ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ(٦٢) } [الأعراف : ٦٢]

ولا ينصح إلا صاحب فضل وعلم في الأغلب وعلى جارى السنة ، وانظر كيف أشعرهم هذا النبي الكريم بتميزه عنهم بقوله { وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } فهو يثبت لنفسه العلم وينفيه عنهم !

وهود عليه الصلاة والسلام يقول لقومه : { أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ(٦٨) } [الأعراف] وصالح قال لقومه : { يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ(٧٩) } [الأعراف : ٧٩] وفيه أن الناصح المخلص تجب محبته ومن كان محبوبا كان مقبول الكلام . وشعيب قال لقوه : { فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣) } [الأعراف : ٩٣]

أي الطريقتين أوفق في إلقاء الخطبة ؟

الطريقة الإلقائية التي يقرأ صاحبها من ورقة أو كتاب وهي الطريقة الأكثر اتقانا ، أم الطريقة الارتجالية وهي الأبلغ تأثيراً ؟

الناس أصناف في طرق الإلقاء بين الارتجال والقراءة ، وكلٌّ يختار ما يناسب مقدرته العلمية واستعداده النفسي وموقعه الاجتماعي وأهمية الخطبة ومكانها . ولكل طريقة مزايا ..

فمن مزايا القراءة من ورقة مكتوبة :

١- المحافظة على الناحية الجمالية للتعبير ، إذ الكتابة من خصائصها في الأغلب جمال الأسلوب والتأنق في العبارة والتفنن في أساليب البيان ، وذلك لما يوفره الكاتب لنفسه من وقت يصرفه في تزويق الأسلوب وتهذيبه وتشذيبه ! حتى ينتهي به إلى الصورة التي ترضي ذوقه الأدبي . أما الارتجال عفو الخاطر فقد لا يكون الوقت فيه متاحا للإتيان ببراعة اللفظ وحلاوة الجرس إلا إن كان ثمة نص محفوظ .

٢- التقليل من الأخطاء اللغوية والتعبيرية الإنشائية والنحوية والخطابية ، للسبب نفسه .

٣- حصر جوانب الفكرة أو الموضوع وتقديمها في أجلى صورة وأوضح عبارة ، لأن الكتابة تتيح للخطيب في مرحلة الإعداد تحديد إطار الموضوع فلا يكون الخروج عنه ملحوظا .

٤- التقيد بالزمن المحدد : لإمكانية ذلك من خلال السطور ، والورقة ذات الأسطر الثماني والعشرين التي يحوي كل سطر منها سبع عشرة كلمة يمكن إلقاؤها في زهاء ثمان دقائق من المتوسط بأسلوب خطابي

أما مساوئ هذه الطريقة فيمكن استشفاف أبرزها من مميزات الطريقة الارتجالية .

مميزات الارتجال في الخطابة :

كثير من الباحثين لا يسمون القراءة من ورقة مكتوبة خطابة ، تأسيسا على أن من أخص خصائص الخطابة المشافهة والارتجال ، ومن أبرز مميزات الارتجال :

١- عدم تحقق الجمال التعبيري للأسلوب الخطابي : بالكيفية نفسها المتحققة في طريقة الإلقاء من ورقة مكتوبة ، إلا إذا تمرس الخطيب على أساليب الخطاب ويمكن من انتقاء الكلمات المعبرة ، واقتدر على التأنق في العبارة ، وجرى ذلك منه مجرى الطبع والسجية .

٢- لا يتأتى حصر العناصر وترتيبها بدقة كما هو الحال في الطريقة الأولى السابق ذكرها إلا إذا كان الخطيب مستوعبا لموضوع خطبته استيعابا دقيقا ، ولم تنسه رهبة الموقف بعض عناصر الموضوع

٣- التقيد بالزمن المحدد وهو مرتبط بمدى إحساس الخطيب بمرور الزمن ، وكثيرٌ من الخطباء يفقدون هذا الإحساس في غمرة الانفعال الخطابي .

٤- الارتجال مظنة الأخطاء اللغوية والتعبيرية والخطابية .

٥- قدرة الخطيب على إدارة دفة الخطاب من أسلوب إلى آخر وفق ما قد يستجد من ظروف ما بحسب ما يقرؤه في وجوه مستمعيه من تفاعل ، أما المرتبط بورقة لا يكاد يرفع بصره الكليل عنها فإنه يفقد هذه الميزة وتبقى خطبته رتيبة ولاسيما إن أتى بها على وتيرة واحدة ونبرة واحدة مملة .

هذا – وبعض الخطباء والمحاضرين يجمعون بين الطريقين الكتابية والارتجالية فيضعون الورقة في مكان لا يراها غيره فيلحظها بطرف البصر ويتذكر ما عسى أن يكون قد نسيه ، وهكذا يخيل للناس أنه يرتجل وليس الأمر كذلك .

ومن أبرز الأخطاء التي يقع فيها كثير من الخطباء :

(الاطالة ، عدم الدقة في حفظ النصوص الشرعية ، الركاكة والتلعثم واللحن ، صوت النبرة الواحدة ، الاستشهاد بالأحاديث الضعيفة والموضوعة والرؤى المنامية ، التيئيس من رحمة الله ، التقليد) وفيما يأتي بعض تفصيل لما سبق :

١- الإطالة : سواء أكانت إطالة مملة أم مرهقة للأذهان ولقد قدمنا كيف كانت خطبته ﷺ قصدا ونقلنا عن الإمام ابن القيم قوله كانت خطبة عليه الصلاة والسلام الراتبة اقصر من العارضة فللناس أحوالهم ومشاغلهم وعللهم وحاجتهم ولا بد من مراعاتها .

٢- عدم الدقة في حفظ النصوص الشرعية : فلئن جازت رواية الحديث النبوي بالمعنى فهي غير جائزة في القرآن العظيم . . وقد يغتفر الخطأ النحوي أو البلاغي أو الخطابي لكن الخطأ في كلام الله لا يستساغ البتة . فمن كان لا يحسن حفظ النص القرآني الجليل ، أو لا يستطيع الاستشهاد به على الوجه الأوفق ، فالأولى له ترك التصدي لمهمة الخطابة الخطيرة . . حتى يتمكن من ضبط حفظه .

٣- الركاكة والتلعثم واللحن والسرعة غير المعتادة في الكلام : ذلك أن الخطيب بمثابة المعلّم والموجه فلا بد أن يكون في سلامة اللغة وقوة الفصاحة واستواء النطق في مكان منيف ، فمتى فقد من ذلك شيئا قلل من أهميته وتأثيره .

٤- صوت النبرة الواحدة : وهي النبرة الثابتة في الصوت وطريقة الأداء ، وأسلوب الوتيرة الواحدة يناسب الدرس والمحاضرة التي تتناول قضايا علمية تخصصية ، أما الخطابة فلها أسلوبها البعيد كل البعد عن التكرار الممل والرتابة الخانقة ..

٥- الاستشهاد بالأحاديث الضعيفة أو الموضوعة أو القصص الخرافية :

أو الأساطير والمنامات المجهولة ، والتاريخ يحدثنا عن دور القُصّاص الذين كانت بداية أمرهم إلى خير ثم كثروا وفقدت مع تكاثرهم في الآفاق الأمانة العلمية والتمحيص والتثبت من القصص والأحاديث المروية والروايات المشتهرة فآل أمرهم إلى وبال ، ومن نعم الله تيسر الموسوعات الحديثية المقروءة والمرئية في هذا العصر توضح المدخول و الموضوع من الأحاديث ، والضعيف والواهي منها ، كما تبين الحديث وأحوال رواته من الجرح والتعديل ، فأصبح التثبت ميسورا فلا يجوز التحدث بشئ إلا بعد التثبت من صحته .. قال تعالى : { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦)} [الإسراء]

وفي قصص القرآن العظيم وسنة النبي ﷺ الغنية في مقاصد تلك القصص وأساليبها وغاياتها وصور بيانها وهي من أصح القصص وأوثقها على الإطلاق .

٦- التيئيس من رحمة الله : وتضييق مجال التوبة أمام الناس ، وقد يفعل ذلك الخطيب عن حسن قصد ومن سوء فهم ، فهو يظن الدين والمواعظ سياط تكوى جلود الناس والعصاة منهم على الأخص ، ويتغافلون عن أن الخطأ مما جبل عليه ابن آدم ، والخطيب كالطبيب يعالج بالحسنى بتضييق مجاري المعاصي وتوسيع دائرة الأمل في الله ، قال تعالى : { قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) } [الزمر] فالذنوب كلها تغفر حتى الشرك الأكبر إن تاب منه العبد قبل الموت [انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٦ / ١٨]

٧- **التقليد** : وهو أن يحاكي من مشاهير الخطباء والوعاظ والقراء . . إما في الصوت ونبراته ، أو في الأداء وطرائقه ، أو في الأسلوب ومسلكه ، أو في طريقة المعالجة . والإفادة من الآخرين حميدة ولا نعنيها ، بل المعنية المحاكاة وهي دليل ضعف وخمول وعجز عن الابتكار . وينبغي أن يكون الخطيب ابن بيئته له نمطه الخاص في الكلام والبيان ، وله رونقه المتميز في الخطاب ، وله شخصيته المستقلة التي لا تتكرر ، ولا بد أن توجد لدى الخطيب قناعة بأنه يملك خصائص ومقومات خطابية لها تميزها ولها إيقاعاتها كما هو شأن الآخرين ، وأنه لديه من السمات ما ليس لدى غيره .

٤- وسائل الاتصال والإعلام .

- منها المرئية مثل : (التلفزيون ، اللقاء ، الحوار ، الشريط المرئي)
- ومنها المسموعة مثل : (الإذاعة ، الشريط الإسلامي ، المحاضرات)
- ومنها المسموعة والمرئية معا وهي الأكثر تأثيرا وجاذبية ومنها : (التلفزيون ، أشرطة الفيديو ، وجهاز الـــdvd).
- ومنها المقروءة : (الكتب ، المكتبات ، معارض الكتاب ، الصحف ، المجلات ،)
- ومنها التوثيق : (الحاسب الآلي ، أسطوانات الـــ cd ، المواقع الإسلامية على شبكة الأنترنت ،

كل الوسائل السابق ذكرها يمكن من خلالها بث ونشر المادة الإسلامية مثل ـــ التلاوة بصوت ندي حسن ، المحاضرات الإسلامية ،

- يرى البعض أن السينما من وسائل الدعوة [الدعوة الإسلامية : الوسائل والأساليب / محمد خير يوسف ص ٤٦] وليس كذلك

المراجع والمصادر

(روعي الترتيب الهجائي باسقاط ال التعريف)

أولا : القرآن الكريم .

ثانيا : مراجع في الدعوة .

(١) أصناف المدعوين وكيفية دعوتهم : أ.د/ حمود بن أحمد الرحيلي ، ط : ١٤٢٤هـ مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة .

(٢) أصول الإعلام الإسلامي : د/ إبراهيم إمام ، ط : (دون تاريخ) دار الفكرالعربي ، القاهرة .

(٣) الإعلام في العصرالحديث ودوره في تبليغ الدعوة الإسلامية : د . محمد محمود متولي ، ط : ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م مكتبة ابن تيمية .

(٤) إعلام الموقعين عن رب العالمين : محمد بن أبي بكر بن القيم ، ط : ١٩٧٣م دار الجيل ، بيروت .

(٥) إغاثة اللهفان : محمد بن القيم ، ط : ١٣٩٥هـ دار ابن حزم ، بيروت .

(٦) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : أحمد بن محمد الخلال ، تحقيق : عبدالقادر عطا ، ط : ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م دار الكتب العلمية ، بيروت .

(٧) بحوث المؤتمرالعالمي لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة : مجموعة من الباحثين ط : الآلة الكاتبة ، المكتبة المركزية ، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .
(٨) التخويف من النار : عبد الرحمن بن رجب الحنبلي ، ط : ١٣٩٩هـ مكتبة دار البيان ، دمشق .
(٩) الترغيب والترهيب : عبد العظيم المنذري ، ط : ١٤١٧هـ دار الكتب العلمية ، بيروت .
(١٠) تلخيص الخطابة : ابن رشد ، ط : دار المعرفة ، بيروت .
(١١) الحسبة في الإسلام : شيخ الإسلام ابن تيمية ، ط : (دون تاريخ) المؤسسة السعيدية ، الرياض .
(١٢) الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها : د/أحمد أحمد غلوش ، ط : ١٣٩٩هـ دار الكتاب المصري ، القاهرة .
(١٣) الدعوة الإسلامية في عهدها المكي : د/رؤوف شلبي ، ط : ١٤٠٢هـ دار القلم ، الكويت .
(١٤) الدعوة الإسلامية والإعلام الديني : د/ عبدالله شحاتة ، ط : ١٩٧٨م الهيئة المصرية العامة للكتاب .
(١٥) الدعوة إلى الإسلام : أبو بكر زكري ، ط : (دون تاريخ) مصر .
(١٦) الدعوة إلى الله في سورة النمل : د/عبدالرب نواب الدين ، ط : ١٤١٠هـ دار القلم ، دمشق
(١٧) الزهد : هنّاد السري الكوفي ، ط : ١٤٠٦هـ دار الخلفاء للكتاب الإسلامي ، بيروت .
(١٨) فقه الدعوة إلى الله : عبد الرحمن حسن الميداني ، ط : ١٤١٧هـ دار القلم ، دمشق .
(١٩) فن الخطابة : د/ أحمد محمد الحوفي ، ط : مصر .
(٢٠) قواعد الخطابة : د/ أحمد غلوش ، ط : (دون تاريخ) مصر .
(٢١) نصاب الإحتساب : عمر بن محمد السنامي ، تحقيق : د. مريزين سعيد عسيري ، ط : ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م مكتبة الطالب الجامعي ، مكة المكرمة .
(٢٢) النصيحة شروطها وآدابها : د/ عبد الرب نواب الدين النواب ، ط : ١٤١٥هـ/١٩٩٥م دار القلم ، جدة .
(٢٣) النظرة الإسلامية للإعلام محاولة منهجية : د/ محمد كمال الدين إمام ، ط : ١٤٠٣هـ/١٩٨٣ دار البحوث العلمية ، الكويت .
(٢٤) هداية المرشدين : علي محفوظ ، ط : (دون تاريخ) دار الفكر .

ثالثا : المراجع والمصادر العامة :

(٢٥) الأئمة الأربعة : د. مصطفى الشكعة ، ط : ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م دار الكتاب المصري القاهرة
(٢٦) الإتقان في علوم القرآن : عبد الرحمن السيوطي ، ط : (دون تاريخ) عالم الكتب ، بيروت .

(٢٧) أحكام أهل الذمة : محمد بن القيم ، ط : ١٤١٨هـ دار ابن حزم ، بيروت .
(٢٨) الأحكام السلطانية : الماوردي ، ط : بيروت .
(٢٩) الأدب المفرد : محمد بن إسماعيل البخاري ، ترقيم محمد عبد الباقي ، ط : ١٤٠٩هـ دار البشائر ، بيروت .
(٣٠) إرشاد العقل السليم : محمد بن محمد العمادي أبو السعود ، ط : (دون تايخ) بيروت .
(٣١) أساليب الاقناع وغسيل الدماغ : جي . إي . براون ، تعريب : د . عبداللطيف الخياط ، ط : ١٤١٠هـ/١٩٨٩م دار الهدى للنشر والتوزيع ، الرياض .
(٣٢) الاستقامة : أحمد ابن تيمية ، تحقيق : محمد رشاد سالم ، ط : ١٤٠٣هـ جامعة الإمام ، الرياض .
(٣٣) الإصابة في تمييز الصحابة : أحمد بن علي بن حجر ، ط : ١٤١٢هـ/١٩٩٢م دار الجيل ، بيروت .
(٣٤) إعتقاد أهل السنة : هبة الله بن حسن اللالكائي ، تحقيق د. أحمد سعد حمدان ط : ١٤٠٢هـ دار طيبة ، الرياض .
(٣٥) اقتضاء الصراط المستقيم : أحمد بن تيمية ، ط : (دون تاريخ) .
(٣٦) البحر المحيط : محمد بن يوسف أبي حيان ، ط : ١٤٠٣هـ دار الفكر ، بيروت .
(٣٧) البداية والنهاية : إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي ، ط : ١٤٠٨هـ دار الكتب العلمية .
(٣٨) البيان والتبيين : عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق : عبد السلام هارون ، ط : ١٣٩٥هـ/١٩٩٥م مكتبة الخانجي ، مصر .
(٣٩) تاريخ الأمم والملوك : محمد بن جرير الطبري ، ط : ١٤٠٧هـ دار الكتب العلمية ، بيروت
(٤٠) تاريخ ابن خلدون : عبدالرحمن بن خلدون ، ط : ١٤١٣هـ دار الكتب العلمية ، بيروت .
(٤١) التاريخ الكبير : محمد بن إسماعيل البخاري ، تحقيق : هاشم الندوي ، ط : (دون تاريخ) دار الفكر .
(٤٢) تاريخ نجد (روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعدد غزوات ذوي الإسلام) حسين بن غنام تحقيق د . ناصر الدين الأسد ط١٤٠٣هـ الرياض
(٤٣) التبيان في أقسام القرآن : محمد بن القيم ، ط : ١٤١٨هـ دار ابن جزم ، بيروت .
(٤٤) التعريفات : علي بن محمد الجرجاني ، ط : ١٤٠٥هـ دار الكتاب العربي ، بيروت .
(٤٥) تفسير القرآن العظيم : إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي ، ط : ١٤٠١ـ دار الفكر ، بيروت .
(٤٦) التمهيد : يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري ، ط : ١٣٨٧هـ وزارة الأوقاف ، المغرب

(٤٧) توثيق السنة في القرن الثاني الهجري أسسه واتجاهاته : د . رفعت فوزي عبد المطلب ، ط : ١٤٠٠هـ/١٩٨١م مكتبة الخانجي بمصر .
(٤٨) التهذيب : محمدبن أبي بكر ابن القيم (مطبوع على حاشية السنن) ، ط : ١٤١٥هـ/١٩٩٥م دارالكتب العلمية .
(٤٩) تيسير الكريم الرحمن : عبد الرحمن السعدي ، ط : ١٤١٥هـ/١٩٩٥م مكتبة نزار مصطفى ، مكة .
(٥٠) الثقافة والشخصية : د . سامية حسن الساعاتي ، ط : ١٩٨٣م دار النهضة العربية ، بيروت
(٥١) جامع الأصول : لابن الأثير ، ط : (دون تاريخ) بيروت .
(٥٢) الجامع : معمر الأزدي ، ط : ١٤٠٣هـ المكتب الإسلامي ، بيروت .
(٥٣) جامع البيان (تفسير الطبري) : ابن جرير الطبري ، ط : ١٣٢٧هـ بولاق ، مصر .
(٥٤) الجامع الصحيح (صحيح البخاري) : محمد بن إسماعيل البخاري ، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ، ط : المطبعة السلفية .
(٥٥) الجامع لأحكام القرآن : محمد بن أحمد القرطبي ، ط : ١٣٧٣هـ دار الشعب ، القاهرة .
(٥٦) حلية الأولياء : أحمد أبو نعيم الأصبهاني ، ط : ١٤٠٥هـ دار الكتاب العربي ، بيروت .
(٥٧) خصائص المسند : محمد بن عمر المديني ، ط : ١٤١٠هـ مكتبة التوبة ، الرياض .
(٥٨) الدعوة الإسلامية : الوسائل والأساليب : محمد خير يوسف ، ط ١٤١٤هـ دار طويق للنشر ، الرياض .
(٥٩) الروح : محمد بن القيم ، ط : ١٣٩٥هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
(٦٠) روضة المحبين ونزهة المشتاقين : محمد بن القيم ، ط : ١٤١٢هـ دار ابن حزم ، بيروت .
(٦١) الرياض النضرة في مناقب العشرة : أحمد بن عبدالله الطبري ، ط : ١٩٩٦م دار الغربي الإسلامي ، بيروت .
(٦٢) زاد المسير في علم التفسير : عبد الرحمن بن علي الجوزي ، ط : ١٤٠٤هـ بيروت .
(٦٣) زاد المعاد في هدي خير العباد : محمد بن القيم ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط وأخيه ، ط : ١٤٠٧هـ دار ابن حزم ، بيروت .
(٦٤) سنن أبي داود : ترقيم محي الدين عبد الحميد ، ط : (دون تاريخ) دار الفكر ، بيروت .
(٦٥) سنن الترمذي : محمد بن عيسى الترمذي ، ترتيب أحمد محمد شاكر وآخرون ، ط : دار احياء التراث العربي ، بيروت .
(٦٦) سنن الدارمي : عبدالله بن عبد الرحمن الدارمي ، ط : ١٤٠٧هـ ، دار الكتاب العربي بيروت .

(٦٧) السنن الكبرى : أحمد البيهقي ، ط : ١٤١٤هـ/١٩٩٤ مكتبة دار البار ، مكة المكرمة .
(٦٨) سنن ابن ماجة : محمد بن يزيد القزويني ، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ، ط : دار الفكر ، بيروت .
(٦٩) سنن النسائي (المجتبى) : أحمد بن شعيب النسائي ، ترتيب عبد الفتاح أبو غدة ، ط : ١٤٠٦هـ مكتب المطبوعات الإسلمية ، حلب .
(٧٠) سير أعلام النبلاء : محمد بن أحمد الذهبي ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط وآخر ، ط : ١٤١٣هـ مؤسسة الرسالة ، بيروت .
(٧١) السيرة النبوية : عبد الملك بن هشام ، ط : ١٤١١هـ دار الجيل ، بيروت .
(٧٢) السيرة النبوية : ابن كثير ، ط : ١٣٩٨هـ بيروت .
(٧٣) شعب الإيمان : أحمد بن الحسين البيهقي ، ط : ١٤١٠هـ دار الكتب العلمية ، بيروت .
(٧٤) الصارم المسلول على شاتم الرسول : أحمد بن تيمية ، ط : ١٤١٧هـ دار ابن حزم ، بيروت .
(٧٥) صحيح ابن خزيمة : محمد بن إسحاق بن خزيمة النيسابوري ، تحقيق : د. محمد مصطفى الأعظمي ، ط : ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م المكتب الإسلامي ، بيروت .
(٧٦) صحيح مسلم : مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي .
(٧٧) صفوة الصفوة : عبد الرحمن بن علي بن الجوزي ، ط : ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م دار المعرفة ، بيروت .
(٧٨) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة : محمد بن القيم ، ط : ١٤١٨هـ دار العاصمة ، الرياض .
(٧٩) الطبقات الكبرى : محمد بن سعد الزهري ، ط : (دون تاريخ) دار صادر ، بيروت .
(٨٠) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية : محمد بن القيم ، ط : (دون تاريخ) مطبعة المدني ، القاهرة .
(٨١) عجائب الآثار : عبد الرحمن الجبرتي ، ط : دار الكتب العلمية ، (دون تاريخ) بيروت
(٨٢) العلل ومعرفة الرجال : أحمد بن حنبل ، ط : ١٤٠٩هـ مكتبة المعارف ، الرياض .
(٨٣) علماء ومفكرون عرفتهم : محمدالمجذوب ، ط : دار الشواف ، الرياض (دون تاريخ الطبع)
(٨٤) علوم الحديث : عثمان بن عبد الرحمن بن الصلاح الشهرزوري ، ط : ١٤٠٦هـ دار الفكر ، دمشق
(٨٥) الفتاوى الكبرى : أحمد بن تيمية ، ط : ١٣٨٥هـ دار المعرفة ، بيروت .
(٨٦) فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري : أحمد بن علي بن حجر (٨٥٢هـ) – ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي ط : المطبعة السلفية ومكتبتها (١٣٨٠هـ) القاهرة .
(٨٧) الفصل في الملل والأهواء والنحل : أحمد بن حزم الظاهري ، ط : ١٣٢١هـ ، مصر .
(٨٨) فضل الدعوة إلى الله : عبد العزيز بن باز ، ط : الجامعة الإسلامية .

(٨٩) فيض القدير : عبد الرؤوف المناوي ، ط : ١٣٥٦هـ المكتبة التجارية الكبري ، مصر .
(٩٠) القاموس المحيط : محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، ط : ١٣٧١هـ/١٩٥٢م شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر .
(٩١) الكشاف : جار الله الزمخشري ، ط : (دون تاريخ) دار المعرفة ، بيروت .
(٩٢) كشف الخفاء : إسماعيل العلجوني الجراحي ، ط : ١٤٠٥هـ مؤسسة الرسالة ، بيروت .
(٩٣) كيف تحفظ القرآن الكريم : د . عبد الرب نواب الدين ال نواب ، ط : ١٤٢٢هـ دار طويق ، الرياض .
(٩٤) لسان العرب : ابن منظور الإفريقي ، محمد بن مكرم بن منظور الافريقي ، ط : دار صادر ، بيروت .
(٩٥) لسان الميزان : أحمد بن علي بن حجر ، ط : ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت .
(٩٦) لمحات في الثقافة الإسلامية : عمر عودة الخطيب ، دارالكتب العلمية ، بيروت .
(٩٧) مجلة البحوث الإسلامية : الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء ، ط : العدد ٣٨ .
(٩٨) مجمع الزوائد : علي بن أبي بكر الهيثمي ، ط : ١٤٠٧هـ دار الريان للتراث ، بيروت .
(٩٩) مجموع الفتاوى : أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني . ط : الرياض .
(١٠٠) مختار الصحاح : محمد أبو بكر الرازي ، ط : (دون تاريخ) دار نهضة مصر ، القاهرة .
(١٠١) مدارج السالكين : محمد بن أبي بكر بن القيم ، ط : ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م دار الكتاب العربي ، بيروت
(١٠٢) المدخل إلى السنن الكبرى : أحمد بن الحسين البيهقي ، ط : ١٤٠٤هـ دار الخلفاء للكتاب الإسلامي ، الكويت .
(١٠٣) المستدرك على الصحيحين : محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري ، ط : ١٤١١هـ/١٩٩٠م دار الكتب العلمية ، بيروت .
(١٠٤) المستصفى في علم الأصول : محمح بن محمد الغزالي ، ط : بيروت .
(١٠٥) مسند الإمام أحمد : أحمد بن حنبل الشيباني ، النسخة الالكترونية (صخر)
(١٠٦) المعجم الكبير : سليمان الطبراني ، تحقيق : حمدي السلفي ، ط : ١٤٠٤هـ/١٩٨٩م مكتبة العلوم والحكم ، الموصل ، العراق .
(١٠٧) معجم مقاييس اللغة : أحمد بن فاس زكريا ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط : ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، مصر .

(١٠٨) المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ط : (دون تاريخ) طهران .
(١٠٩) المغني : ابن قدامة المقدسي ، ط : ١٤٠٥هـ دار الفكر .
(١١٠) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة : محمد بن القيم ، ط : ١٤١٨هـ دار ابن حزم ، بيروت .
(١١١) مفردات القرآن الكريم : الراغب الأصفهاني ، ط : (دون تاريخ) دار الكتب العيمية .
(١١٢) مقارنة الأديان : د . أحمد محمد شلبي ، ط : ١٩٧٨م مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة .
(١١٣) المقاصد الحسنة : السخاوي ، ط : (١٩٩٦)م دار الكتاب العربي ، بيروت .
(١١٤) مصنف ابن أبي شيبة : عبد الله بن محمد الكوفي ، ط : ١٤٠٩هـ مكتبة الرشد ، الرياض .
(١١٥) المنتظم في التاريخ : لابن الجوزي ، ط : (١٩٩٢) م دار الكتب العلمية ، بيروت .
(١١٦) المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج : يحيى بن شرف النووي ، ط : دار احياء التراث العربي .
(١١٧) الموافقات في أصول الأحكام : أبو إسحاق بن موسى اللخمي الشاطبي ، ط : ١٣٤١هـ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .
(١١٨) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة : الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، ط : ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م الرياض .
(١١٩) الموطأ : مالك بن أنس ، ترقيم الموسوعة الالكترونية (صخر) .
(١٢٠) النكت والعيون : علي بن محمد الماوردي ، ط : ١٤١٢هـ دار الكتب العلمية ، بيروت .
(١٢١) نيل الأوطار : محمد بن علي الشوكاني ، ط : ١٩٧٣م دار الجيل ، بيروت .

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصحيفة
الفصل الدراسي الأول	
المقدمة	٢
الأصل الأول (الدعوة مفهومها ومراتبها)	٦

تعريف الدعوة ٦
العلاقة بين الدعوة والعلوم الشرعية الأخرى ١٢
أهمية الدعوة وفضلها ١٦
حكم القيام بالدعوة ٢٥
تعريف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٣١
شروط الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر ٣٢
لمحة تاريخية عن الحسبة ٣٣
لمحة عن مجالات الحسبة ٣٥
مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٣٨
مراتب تغيير المنكر ٤١
شروط المنكر الموجب للإحتساب ٥٩
الأضرار الناجمة عن ترك الدعوة إلى الله ٦٦
موضوع الدعوة ومقصودها ٧٠
خصائص الإسلام العامة ٧١
الأصل الثاني : (صفات الدعاة) ٨٧
أهمية صفات الدعاة ٨٧
الإخلاص لله تعالى ٨٨
الاستقامة ٩٦
التأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم ١٠٥
أن يكون على بصيرة ١١٠
الصبر ١١٦
الصدق ١٢٣
ثقافة الدعاة : ١٢٧
مفهوم الثقافة وأهميتها ١٢٧
مصادر ثقافة الدعاة ١٢٨
المصدر الأول : القرآن الكريم ١٢٨
المصدر الثاني : السنة النبويةالشريفة ١٣٣

المصدر الثالث : فهم السلف ١٣٩
الثقافة العامة ومصادرها ١٤٠
مجالات ثقافة الدعاة ١٤١
مجالات الثقافة العامة ١٤٧
أسئلة عامة للمراجعة ١٤٩

الفصل الدراسي الثاني

المقدمة ١٥٤
الأصل الثالث : (المدعو) أهمية معرفته ١٥٥
تعريف المدعو ، حقوقه ١٥٦
أنواع المدعوين ١٦٤
الدعوة في المجتمعات الإسلامية ١٦٨
دعوة أهل الاستقامة ١٦٨
دعوة العصاة ١٧١
الدعوة في المجتمعات غير الإسلامية ١٨٩
دعوة المشركين ١٨٩
دعوة منكري النبوات ٢٠٧
دعوة منكري البعث ٢١٤
الأحكام المتعلقة بالمشركين ٢٣٠
دعوة أهل الكتاب ٢٣١
الأحكام المتعلقة بأهل الكتاب ٢٣٨
ما يشترك فيه جميع الكفار من الأحكام ٢٣٩
الأصل الرابع : أساليب الدعوة ووسائلها ٢٤٥
لمحة عن منهج النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة ٢٤٥
بدؤه بالدعوة إلى التوحيد ٢٤٥
أهم الأساليب النبوية الشريفة ٢٥٠
الخطابة : تعريفها ٢٥٨

خصائص الأسلوب الخطابي ٢٥٩
مكانة الخطابة في الدعوة إلى الله ٢٦١
أنواع الخُطب ٢٦٥
أجزاء الخطبة ٢٧١
كيف تعد الخطبة ٢٧٥
كيف تُلقى ٢٧٧
صفات الخطيب الفطرية ٢٨٠
صفات الخطيب الكسبية ٢٨٤
أبرز أخطاء الخطباء ٢٩٢
أسئلة عامة ٢٩٤

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

نموذج أسئلة عامة للمراجعة

١- ماذا يقصد بأصول الدعوة ؟ اشرح ذلك شرحا وافيا على ضوء دراستك مستدلا على ما تقول بنصوص الكتاب والسنة .

٢- عرف الدعوة في اللغة وأذكر الشواهد على ما تقول من الكتاب والسنة مع الشرح .

٣- أورد مرادفات (الدعوة) في القرآن الكريم والسنة النبوية مع إيراد الشواهد .

٤- للدعوة في اصطلاح العلماء عدة تعريفات أوردها مع الشرح الوافي ، ثم أورد تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية مع شرحه واستخراج أهم ماتضمنه من عناصر .

٥- ما حكم القيام بالدعوة ؟ أورد مذهبي العلماء في ذلك وأدلة كل فريق ، ثم رجح مع ذكر أسباب الترجيح .

٦- ما هو (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) وهل بينه وبين الدعوة فرق ؟

٧- أكتب نبذة عن فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٨- أذكر مراتب الأمر ، ومراتب النهي ، مع ذكر الأمثلة على كل .

٩- ما هي مراتب تغيير المنكر ؟ وهل التدرج مطلوب فيها ؟

١٠-(التعريف بالمنكر) من مراتب تغيير المنكر فمالمقصود به وما مثاله ؟ ومن يخاطب به ؟

١١-من مراتب تغيير المنكر (الوعظ) فما هو ومن يخاطب به ؟ وما مثاله من القرآن والسنة ؟ وما آدابه ؟

١٢-ما هو (التغليظ والتعنيف) ومن يخاطب به ؟ أذكر مثالين له من الكتاب والسنة .

١٣-هل (التهديد) من مراتب تغيير المنكر ؟ ومتى يستخدم هذا الأسلوب وما مثاله ؟

١٤-هل يغير المنكر بـــ (الضرب) ؟ وما دليله ؟

١٥-متى يغير المنكر باليد وما الأصل فيه ؟ وهل هو مقيد بالإستطاعة ؟ وما حدودها ؟ أذكر ما قاله ابن القيم في ذلك .

١٦-هل (القتال) من مراتب تغيير المنكر ؟ وما شرطه ؟ ومن هم الذين يقاتَلون ؟ ومتى ؟ وما دليلك فيما تقول إشرح ذلك .

١٧-ما هي مراتب تغييرالمنكر التي تدخل في اختصاصات المحتسب المولَّى ، وما المراتب التي هي من اختصاص المحتسب المتطوع ؟

١٨-ما هي شروط تغيير المنكر وجوبا ؟ وما المراد من قولنا (وجوبا) . وهل يجوز إلزام الآخرين بالمذهب . أذكر كلام ابن تيمية رحمه الله في هذه المسألة .

١٩-أن يكون المنكر (مجمعا عليه) ما معنى هذا الشرط ؟ وما هو الإجماع المعني هنا ؟

٢٠-فصِّل القول في المنكر الذي يترتب على تغييره منكر أكبر أو مفسدة أعظم ما إيراد الدليل فيما تقول ؟ وماذا قال ابن القيم رحمه الله في هذه المسألة ؟

٢١-تحدث عن الأضرار المترتبة على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالتفصيل .

٢٢-مامقصود الدعوة الأجلّ ؟ إشرح ذلك شرحاً ضافياً .

٢٣-أكتب لمحة عن أهمية صفات الدعاة ، ثم أورد خمسة من تلك الصفات مع شرح واحد منها

٢٤-(الاستقامة) من صفات الدعاة فما هي ؟ وما مظاهرها ؟ وما سماتها ؟

٢٥-ما هي الثقافة في اللغة ؟ وما هو الاتجاه الفكري الذي تختاره في تعريف الثقافة اصطلاحا ولماذا

٢٦-(القرآن الكريم) هو المصدر الأول لثقافة الدعاة . أكتب برنامجا علميا لكيفية تكوين ثقافة الدعاة من هذا المصدر ؟

٢٧-ماهي السنة وماذا تعرف عن حجيتها ؟

٢٨-أورد أربعة من كتب السنة مع ذكر ما تعرفه من شروحها .

٢٩-أورد سبعة من المجالات الشرعية التي ينبغي أن يعرفها الداعية ، ثم أورد أهم مراجع كل مجال

٣٠-أذكر أبرز مصادر ومراجع الثقافة العامة .

انتهـــى ..